اقرأ

دكتور أنور لوقا غبريال

ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي

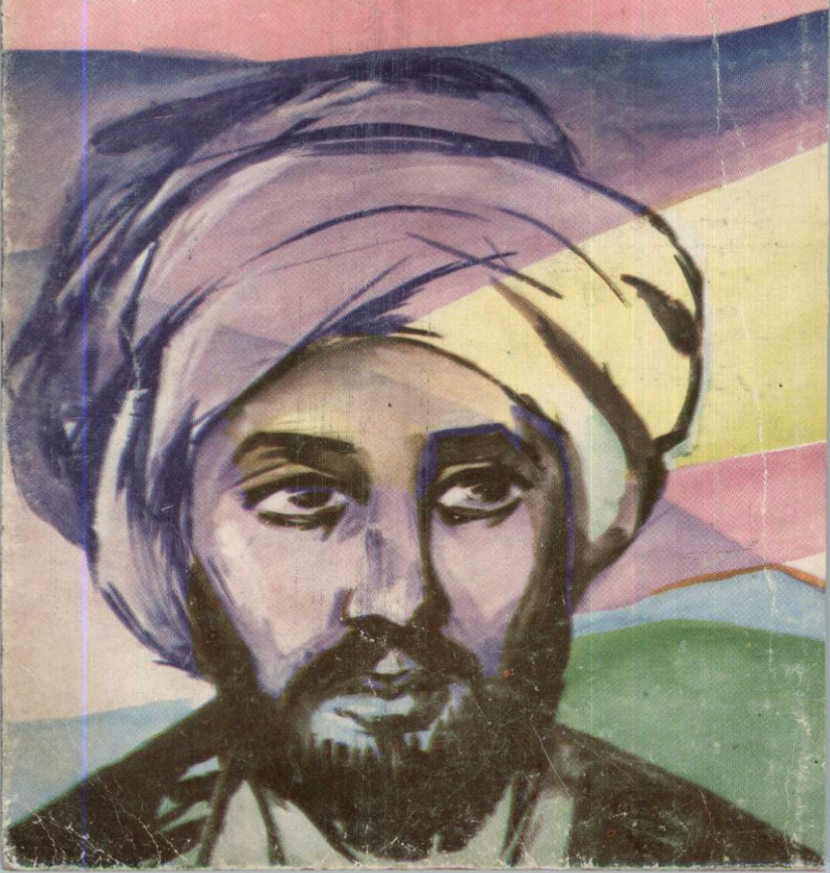

اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٥١٠] - أبريل - ١٩٨٥

رئيس التحرير صلاح منتصر

دكتور أنور لوقا غبريال

ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي

دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

تقـــديم

رفاعة الطهطاوى ظاهرة حضارية . سيرته قصة وجودية من صميم حياتنا ، تشوقنا روايتها ، وأعماله أثر ثابت فى التاريخ المعاصر يقتضى الدرس الموضوعى .

والغريب أن معرفتنا برفاعة حديثة العهد . متى بدأت ؟ وبأى وجه طلع علينا ؟ وفى أى إطار نضع الآن صورته ؟

من المفارقات أن جيلى - تلاميذ الثلاثينات والأربعينات - لم يكد يلتقى فى شبابه بشخصية رفاعة ، فلم يكن لهذا الرجل ذكر متميز فى مدارسنا المصرية أو فى مطالعاتنا . وبرغم نشأتى فى الصعيد - غير بعيد من طهطا - لم أفطن إلى مكان رفاعة إلاّ أثناء دراستى بجامعة القاهرة ، حين اجتذبتنى بضع محاضرات عن « الرحالة » ، فطرقت أبواب الأدب المقارن . إذ ذاك التهمت « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » . وولجت إلى معقل رفاعة بهذا المفتاح ، فوجدته بأكمله فى مركز تقاطع تيار عربى وتيار غربى . لم أتردد فى اختيار هذا الكتاب موضوعًا لرسالة « الماجستير » سنة

١٩٤٩ ، وأسعدنى أن يقبل الإشراف عليها أُستاذنا الكبير الدكتور طه حسين .

وفى العام التالى ظهر كتاب الدكتور أحمد أحمد بدوى « رفاعة الطهطاوى بك » ، وهو أقرب إلى الجرد والتصنيف المكتبى والقوائم الإحصائية ، فكان تجميعًا لبيانات مفيدة وكأنه أداة توضع فى يد الباحث المبتدئ . ثم اهتديت إلى مقالات حافزة سبق أن نشرها أحمد الصادق حسين فى « السياسة الأسبوعية » سنة ١٩٢٧ ، وأحمد أمين فى « الثقافة » سنة ١٩٤٣ ، وراعنى أنها ظلّت بلا أصداء . ولكنى لن أدع لدفعات الاستطراد أن تجرفنى هنا إلى حيث أتتبع « مصير » رفاعة الأدبى منذ ذلك الحين ، بالوقوف على الطبعات الجديدة التى صدرت من كتبه ، وتسجيل أطوار الدراسات العلمية واستعراض الندوات أو المهرجانات الإعلامية التى تناولت جوانب من شخصيته ، وإن استحق هذا الاستقصاء من العناية ما يشرح للمؤرخ كيف أصبح رفاعة لدى الدارسين وثيقة عالمية لاتصال الثقافة الإنسانية وتفاعلها ، وأصبح واقعًا لدينا تتسع رقعته فى وعينا شيئًا فشيئًا ، بل تتجاوزه اليوم إلى الرمز الأسطورى فى الشعر والسيرة الشعبية والمسرح مع فنان مثل نعمان عاشور ... إنى أقترح على ناقد متنبّه أن يتولى رصد هذه المراحل المتعاقبة التى قطعناها فى استكشاف رفاعة ، وأن يستخلص مغزاها .

على أن خطة ذلك المسح تستبطن مشروع هذا الكتاب ،

ولو اقتصرت مواده على مراحل استكشاف رفاعة عند دارس واحد . فهذا « ديوان » تلقائى التكوين ، يضمّ بترتيب التسلسل الزمنى عددًا من المقالات والبحوث نشرت أو ألقيت فى مناسبات وبلاد مختلفة ، حددناها فى مستهل كل فصل . وإذا كان ظهور أوّل هذه الفصول يرجع إلى ربع قرن خلا ، فإن مرافقتى لرفاعة كما أسلفت أقدم عهدًا ، وقد عمرت بها سنوات إعدادى لدكتوراه الدولة بجامعة باريس (١٩٥٠ - ١٩٥٧) . هناك مضيت أتلمس وقائع مقامه ، ومنابت خواطره ، وردود فعله . تفهمت بالخبرة تجاربه ، وترجمت له وترجمت عنه ، وتعقبت من غامروا مغامرته أو لاحقوا خطاه فى موكب النهضة . ولا تنتظم فى سلك هذا الكتاب عدّة دراسات عن ذلك نشرتها باللغة الفرنسية ، وأكتفى بالإحالة إلى أهمها فى بعض الهوامش .

وليس تعذر الإلمام بالنصوص العربية المجموعة هنا - بعد أن نفد أو ندّ المطبوع منها عن متناول القراء - بالمبرر الأوفى لتكثير الكتب على الرفوف ، لاسيما وقد تحالفت الآلة والسوق فى أيامنا على مزيد من الحشد دون الإبداع . وإنما بدا لنا أن هذه الفصول على تفرقها تشكل إذا تجاورت موضوعًا متناميًا ، تترامى أبعاده وتتجلى معالمه على المدى الطويل . وإذ تربطها وحدة فكرية عبر مناهج متكاملة ، فإن حصيلتها كلٌ يتجاوز مجموع أجزائه فرادى .

تتصل الدراسات الأولى بالتاريخ العام وتقوم على المنهج

التاريخى ، باستقاء المعلومات من المصادر المعاصرة للأحداث ، والرجوع إلى الوثائق فى دور المحفوظات ، فضلاً عن المطبوعات والدوريات . ثم نعكف على تحقيق النصوص ، نفحص تكوين « تخليص الإبريز » ، ونصف ما طرأ على موضوعاته وحجمه وأسلوبه من تغيرات تشهد بها صفحات المخطوط ثم طبعتا بولاق اللتان ظهرتا فى حياة المؤلف . ونضيف مناهج النقد الأدبى والمقارنة إلى منهج التأريخ للأفكار ، متبيِّنين تولد الأشكال الجديدة فى الأدب العربى ، متسائلين عن ماهية الحداثة . ونعمد فى الفصول الأخيرة إلى التأويل والتفسير ، باستعارة مناهج التحليل النفسى واللغوى . ولا نكاد نستشرف النهر الممتدّ من رفاعة الطهطاوى إلى طه حسين – قطبى حركة النهضة – حتى تنبعث حياة متضافرة أمامنا فى لوحة الإبداع العربى المعاصر ، ولعل أبرز أقسامها فن الرواية النابض بواقعية الرحلة وبإشكالية مواجهة الغرب .

ولا تنال وحدة هذا المضمون الشامل من استقلال بعض الفصول عن بعض . فقد كُتب كلٌّ منها على حدة ، ليُقرأ على حدة ؛ لذا أبقينا فى كل سياق بدوره ما يتناسب من الشواهد لتمامه . ولا يضير أن تتكرر عبارة أو إشارة ، ففى ذلك تنبيه إلى أمرٍ ما ، وإثراء للنظر بتعدّد الزوايا ، وتوثيق لوحدة الكتاب على كلّ حال .

وبعد ، فليس تصنيف هذا الكتاب جامعًا مانعًا كما يقول

أصحاب المنطق ، وإنما هو حديث ذو شجون ألهمته ألفة طويلة نبعت فى صعيد مصر من أعماق تراث أصيل ، ونضجت فى تجربة الوجود على أرض الغرب . لا تكلّف ولا حرج ، بل صراحة المناقشة وأنس المشاطرة عبر رحلة الزمان والمكان . تنطلق فتنطلق هموم نتشاكاها وآمال نتلاقفها . وتفاجئنا فى مرآة الغير صورة الذات فنثوب إلى صدقها .

شكراً لأعزائى الذين دعونى إلى جمع ما تفرق من مواد تؤلف الآن هذا الكتاب ، فقد أعانونى على أداء أمانة واجبة . وإذا كان ربع القرن مقياسًا زمنيًّا للجيل الواحد عند المؤرخين أو فى كتب « الطبقات » ، فإنى أقدم هذه الحصيلة لجيل سيفتتح القرن الحادى والعشرين ، راجيا أن يستطيبها وأن يستثمرها .

ا . ل .

جنيف - ١٢ يوليو ١٩٨٤

١

قصّة بعثة علمية*

فى التاسع والعشرين من شهر مايو عام ١٨٧٣ توفى رفاعة الطهطاوى عن اثنتين وسبعين سنة .

ولعلّ أهم طور يشرح لنا فى حياة هذا الرجل - وفى حياتنا - كيف تلقّى دوره الكبير ، هو بعثته إلى باريس « لطلب العلم » . وهل كانت هذه البعثة فاتحة عهد جديد فى تاريخنا ، إلّا منذ التحق بها رفاعة ، مصادفة ؟ أجل ، وما أكثر ما يتنكر القدر الحاسم فى صورة المصادفة ! إننا سنحاول هنا أن نروى قصة تلك « المصادفة » ، مستقاة من وثائق المحفوظات وشهادات المعاصرين ، حتى نجتلى حقيقة الظروف التى مهدت للبعثة ، وأحاطت بها ، ونقدّر النتائج التى أسفرت عنها . وإذ نسلط الأضواء على الحدث بجملته ، نود أن نبرز مكان رفاعة الخاص بالنسبة إلينا ، وأن نزجى هذا المقال تحية وفاء للرائد الجليل .

* * *

* نشر هذا الفصل بعنوان « بعثة رفاعة الطهطاوى » فى مجلة « المجلة » ، القاهرة ، عدد ٥٣ ، مايو ١٩٦١ ، ص ٤٠ - ٤٩ .

نحن فى ميناء الإسكندرية ، ضحى الخميس ١٢ من أبريل سنة ١٨٢٦ ، نودِّع أربعة وأربعين شابًّا يصعدون ، واحدًا تلو الآخر ، سلَّم السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » (La Truite) ، التى تقصد مرسيليا . ونشاهد أحدهم ، وهو شيخ معمم ، يسرع قبل ركوب السفينة فينحنى على ماء البحر ، ويغمس فيه يديه ، ويغترف منه ويشرب « حثوات عظيمة » . إنه رفاعة الطهطاوى ، يطبِّق نصيحة أستاذه العزيز الشيخ حسن العطار ، الذى جرَّب فى رحلاته - إلى سوريا وتركيا - أن « ماء البحر المالح يدفع ألمه » . ورفاعة فتى أسمر ، متوقّد العينين ، فى الخامسة والعشرين من عمره ، قد تخرَّج أخيرًا من الأزهر ، بل ألقى فيه بعض الدروس . وقد أفلح شيخه « العطار » فى أن يقنع محمد على بأن يضيفه إلى هؤلاء المبعوثين ليكون لهم إمامًا فى « بلاد الإفرنج » التى خلت من الأئمة .

ولم تكن فكرة إرسال بعثة دراسية إلى باريس فكرة جديدة ، فقد دعا إليها « چومار » (E.F. Jomard) قبل ١٨١٢ . و « چومار » مهندس جغرافى كان بين العلماء الذين اصطحبهم بونابرت إلى مصر ، وظل - بعد جلاء الحملة - شديد الاهتمام بالدراسات المصرية ، فأشرف على نشر أبحاث أولئك العلماء فى المصنف الموسوعى المعروف « وصف مصر » ، وأصبح من أبرز رجال التربية والتعليم والهيئات الثقافية فى بلاده . لقد عرض على

« محمد على » ، عن طريق قنصل فرنسا « دروفيتى » ، مشروعًا « لبعث الحضارة فى مصر بالتعليم » . ولكن محمد علىّ كان لا يهمه إذ ذاك إلّا تثبيت أقدامه فى ولاية مصر ، فلم يلتفت إلى هذا الكلام عن « بعث الحضارة » . وكان لقضاء حاجات حكومته الناشئة ، يستعين مباشرة بالأوروبيين . غير أن ضرورة تزويد مصالحة بمطبعة ذات حروف عربية ولاتينية لم تلبث أن ألحّت ، فأوفد سنة ١٨١٥ « نيقولا مسابكى » - وهو سورى الأصل - إلى إيطاليا ليتعلم الطباعة .

إلى إيطاليا ، لأنها كانت أكثر بلاد أوروبا استشراقًا . ألم يستول بونابرت فى روما على تلك المطبعة العربية التى حملها إلى القاهرة لطبع منشوراته وبثّ دعايته ؟ ولقد كانت اللغة الإيطالية حتى أوائل القرن التاسع عشر أوسع اللغات الأوروبية انتشارًا فى الشرق ؛ وكان عدد كبير من الإيطاليين يعملون فى مصر ، لا تجارًا فحسب ، بل ضباطًا وأطباء ومدرسين أيضًا . وعاد « مسابكى » إلى القاهرة بعد قضاء أربعة أعوام فى ميلانو[1] وأحضر معه آلات المطبعة التى عين مديرًا لها سنة ١٨٢١ ، فى بولاق ، حيث ألحق أولاً بمدرسة « عثمان نور الدين » . وفى العام التالى ظهر أوّل مجلد مطبوع ، وهو قاموس إيطالى - عربى .

---

(١) د . خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى . دار المعارف ، ط ١٩٦٦ ، ص ١٤٨ - ١٥١ .

و « عثمان نور الدين » هذا رجل تركى ، كان أوّل طالب أرسل إلى فرنسا . فبعد أن تجوَّل لحساب « الباشا » حينًا فى دويلات ألمانيا وسويسرا وأنفق بضع سنوات فى إيطاليا ، نقله من « ليڤورنو » إلى « مرسيليا » تركى آخر فى خدمة محمد على هو « أمير البحر إسماعيل جبل طارق » ، أثناء إحدى رحلاته إلى « ستوكهولم »[1] . وفى مرسيليا أنجز عثمان مع رجال الأعمال مطالب عاجلة لمولاه ، فى أواخر سنة ١٨١٨ ، ثم أقام فى باريس عامًا وبعض عام ، فدرس الفرنسية والإنجليزية والرياضة . ولم يفت چومار أن يزوده ، عند أوبته سنة ١٨٢٠ ، بصورة جديدة من المشروع ليسلمها للباشا . ولقد سلمها للباشا ، ولكن دون تحمس للفكرة – إذ كان ميّالاً لإيطاليا التى سرّته المعيشة فيها – فانصرف الباشا عن مشروع چومار مرة أخرى . وأما عثمان فقد عمل مدرسًا للغة الفرنسية ، ثم مديرًا لمدرسة بولاق ومكتبتها ، ورقّاه محمد على حتى ولاّه قيادة الأسطول سنة ١٨٢٨ ، غير أنه فرَّ من غضب الباشا عليه سنة ١٨٣٣ ، حين أرسله لقمع الاضطرابات فى

---

(١) عن هذه الرحلة ، انظر محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :
Correspondance Consulaire, Alexandrie, vol. 19, Fos. 278 - 281.
وعن شخصية « إسماعيل جبل طارق » ، مقال Auriant فى Rev. Bleue سنة ١٩٢٦ ص ٦٢٦ وما يليها ؛ ومقال چاك تاجر فى « كراسات التاريخ المصرى » فبراير ١٩٥٢ ص ١٠٢ – ١١٠ ؛ وعن «عثمان نور الدين» مقالاً آخر لچاك تاجر فى « الكراسات » ١٩٥١ ص ٣٩٢ – ٤٠٥ .

جزيرة « كنديا » فأبى أن يبطش بأهلها .

بدأ الأمر إذن ببعثتين فرديتين ، إلى إيطاليا . ولم يكن بدٌّ بعد ذلك من إرسال بضع عشرات من الشبان دفعة واحدة للدراسة فى أوروبا ، تلبية لما تشعب من حاجات الدولة . فإن الكتاتيب الصغيرة القابعة فى ظل المساجد والكنائس ، بل الجامعة الأزهرية التى انعزلت فى عصر الاختناق التركى عن التيارات العلمية الحديثة[1] ، لم تكن بالمعاهد التى تصلح لتخريج الضباط والأطباء والمهندسين ، والموظفين والصناع ، أى جميع تلك الأيدى اللازمة لإدارة المؤسسات الحربية والاقتصادية التى قام عليها نظام الوالى الجديد فى استغلال البلاد واحتكار مواردها[2] . ولقد لمس محمد على هذا النقص ، منذ استتب له الأمر . فنحن نراه يعهد سنة ١٨١٦ - أى بعد أن فرغ من القضاء على المماليك وغلب الوهابيين - إلى « حسن أفندى الدرويش الموصلى » ، بغلمان من مماليكه ، ليعلمهم فى القلعة الكتابة والحساب . ونمَت هذه المدرسة الخاصة ، وحلَّ فيها محل الأستاذ العراقى أستاذ تركى يدعى « روح الدين أفندى » ، ومضى الصِّبية يحفظون القرآن ، ويتلقون

---

(١) راجع رسالة الدكتور إبراهيم سلامة :
L'Enseignement islamique en Egypte. Le Caire, Imp. Nationale, 1939.

(٢) رسالة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » . القاهرة ، النهضة ، ١٩٣٨ ، ص ٣١ .

مبادئ اللغات التركية والفارسية والإيطالية ، إلى جانب التدريب العسكرى . ونحو سنة ١٨٢٠ - للحصول على من يحسن قياس الأرض ومسحها - افتُتحت « دار الهندسة » فى القلعة ، وهى التى انتقلت إلى بولاق[١] ؛ ولم يمض عام على وصول الجنرال « بواييه » (Boyer) الفرنسى وبعثته العسكرية - أى سنة ١٨٢٥ - حتى انتقلت مرة ثانية إلى « قصر العينى » باسم « المدرسة التجهيزية الحربية » . وكان دخول هذه المدرسة الأخيرة مقصورًا على عناصر غير مصرية ، من أتراك وشراكسة وجورجيين وأرمن وأكراد[٢] .

وبات محمد على يرتقب النتائج ، ويتعجلها ، فلما نفد صبره قرَّر إرسال جملة من التلاميذ إلى أوروبا ، حيث يستطيعون أن يتعلّموا فى سنتين أكثر مما يتعلمون فى أربع سنوات ينفقونها بالقاهرة[٣] .

وإلى أى بلد من أوروبا عساه أن يرسلهم كى يحقق أكبر الفوائد ؟

استشار محمد على فى ذلك « باغوص » وزير خارجيته ، واستفتى « باغوص » بدوره « دروفيتى » ، قنصل فرنسا بمصر

---

(١) J. Heyworth-Dunne : An Introduction to the history of education in modern Egypt. London, Luzac, 1938.

(٢) Y. Artin : L'Instruction publique en Egypte. Paris, Leroux, 1890, p. 70.

(٣) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :

Correspondance Consulaire, Le Caire, vol. 26, fo. 282.

فنصحه – على الرغم من أنه إيطالى من أهل تورينو – بتوجيه أولئك التلاميذ إلى باريس . وتلك نصيحة نزيهة لم يكتم فيها القنصل حذره من أن يثير محضر رعايا محمد على فى أية مدينة من مدن إيطاليا غضب الشعب عليهم : فنحن فى سنة ١٨٢٦ والسلطان – ومن ورائه ، أو من أمامه ، « باشا » مصر – ينكل بشعب شقيق فى اليونان هبَّ للمطالبة باستقلاله ؛ وأما فى باريس فالفرنسيون يظهرون المودة للأتراك ، ويفوقون الإيطاليين تسامحًا ورفقًا[1] .

ولم ترضِ هذه الفتوى أنصار إنجلترا – التى تريد أن تئد النفوذ الفرنسى – ومنهم « باغوص » نفسه ، كما لم ترضِ أنصار إيطاليا ومنهم « عثمان نور الدين » . واتخذت تلك المعارضة المزدوجة صور الدسائس والوشايات للتأثير على « الباشا » ، ولكنه بعد أسابيع قليلة انتهز فرصة وقوف السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » بميناء الإسكندرية ، فكلف قائدها « روبيار » (Robillard) بنقل التلاميذ إلى مرسيليا . وقد احتفى محمد على بالقبطان وبضباطه البحريين الأربعة فى القاهرة ، ويسَّر لهم زيارة الجيزة وسقارة وأبى زعبل واستقى منهم آخر أنباء البوارج التى بدأ بناؤها فى أحواض مرسيليا لحسابه[2] .

---

(١) رسالة بتاريخ ٧ يناير ١٨٢٦ من دروفيتى إلى باغوص ، فى ص ٨٦ – ٨٧ من :
G. Marro : La personnalità di Bernardino Drovetti. Torino, 1951.

(٢) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :
Correspondance Consulaire, Le Caire, vol. 26, fo. 278.

واتصلت الرحلة ثلاثة وثلاثين يومًا ، رست خلالها « لاترويت » على مسينا ونابولى . وفى مياه مسينا استغرق تزويد السفينة بالمؤن خمسة أيام ، دون أن يؤذن لركابها بالنزول . وطفق رفاعة يتأمل فى مِقَة تلك المدينة البيضاء ، لاسيما حين توقد مصابيحها كل مساء ؛ وأطربه توقيع أجراس كنائسها ، ولم يفسد عليه تزمُّت أو تحرُّج ما فاض فى قلبه من شعور بالجمال ، فبات ليلة يستشف أثر الموسيقى فى نفسه ويصوره ، ويتغنى فى أبيات رقيقة بحبيب مجهول يصبو إليه وينتشى - عفيفًا - من سحر عينيه . إن هذا الشيخ الإمام لَشاعرٌ فنان ، مرهف الوجدان . يسعده الانطلاق إلى آفاق إنسانية جديدة .

وفى ١٥ من مايو ترجَّل المبعوثون ، وهم فى ملابسهم الشرقية الفضفاضة ، على أرض مرسيليا ، وذهبوا توًّا إلى المحجر الصحى . وكان هذا الميناء يحتضن السفن اليونانية إلى جانب السفن التى يبنيها عمال « دى سيريزى » (Lefébure de Cerisy) لمحمد على ، مما جعل الأرصفة والأحواض ميدانًا للاحتكاك والشجار بين أنصار اليونان وأنصار الترك ، وأوجب استدعاء بعض قطع الأسطول الفرنسى لإقرار الأمن وتشديد الحراسة . ولم يؤدِّ ظهور المبعوثين المفاجئ إلى حوادث عنيفة ، بيد أن الأحرار من خصوم الحكومة الفرنسية أفشوا الخبر ، ووجدوا فيه مادة لاتهام رئيس الوزراء الرجعى (Villèle) بالتواطؤ مع عميل السلطان . ولم

تسكت الصحف الحكومية ، بل ردت على تلك « المزاعم » . وتوالت تعليقات أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ، بحماسة طيرت شهرة هذه البعثة الدراسية ، التى لم يكن أعضاؤها القصَّر يدركون من الأمر شيئًا . وظلت الأذهان تربط – حتى فى المجلات الثقافية المتزنة – بين وفود هؤلاء المبعوثين ونية سحق اليونان الباسلة !(١) .

وخرج « الأفندية » من المحجر الصحى بعد تمام ثمانية عشر يومًا . وركبوا « العربات المزينة المجملة ، التى تستمر آناء الليل وأطراف النهار ، تقرقع ، إلى بيت من القصور المصنوعة خارج المدينة » . ومكثوا فى مرسيليا شهرى يونية ويولية ، يستكشفون أوجه الحياة الإفرنجية أثناء نزهاتهم ، ويتعلمون حروف اللغة الفرنسية ومقاطعها . ويأخذ رفاعة فى تدوين مشاهداته وملاحظاته ، كما أوصاه أستاذه العطار ، فيسجل التقاءه التاريخى بأبسط العادات ، كتناول الطعام بالشوكة والسكين ، والنوم على أسرَّة مرتفعة عن الأرض ! ويصف المقاهى وقاعاتها المتألقة بالمرايا ، والصحف التى يراها هناك لأوّل مرة ، وسفور النساء فى الشوارع ونشاطهن فى المتاجر . ويشير فى عجب إلى المسرح بقوله : « ومما رأيته فى مرسيليا الملعبة المسماة السبكتاكل ، وأمرها غريب ؛ ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابدّ من رؤيتها بالعين » .

وكان محمد على قد عين للبعثة ثلاثة رؤساء « من أكابر ديوانه »

---

(١) Rev. Encyclopédique, t. XXX, p. 577.

هم : « عبدى شكرى المهردار » ، و « مصطفى مختار الدويدار » و « حسن أفندى الإسكندرانى » . هؤلاء سبقوا رفاقهم فى السفر إلى باريس – يوم ١٤ يولية – بصحبة « يوسف أجوب » المدرس والمترجم الذى هاجر من مصر صبيًّا سنة ١٨٠١ ، ثم لمع اسمه بين شعراء فرنسا ومستشرقيها . وفى باريس ، دعاهم « چومار » لتناول العشاء على مائدته ، مع نفر ممن عرفوا مصر ، كان بينهم القائد « بليار » الذى تمَّ تحت إمرته جلاء الفرنسيين عن القاهرة من ربع قرن خلا . أو ليس فى هذا اللقاء وصل ما انقطع ؟...

وأما باقى « الأفندية » ، فتولّى ترحيلهم إلى باريس تباعًا – وقد انقسموا إلى أربع مجموعات – أربعة تراجمة اختيروا من مهاجرى مصر المقيمين فى مرسيليا[1] . وينوِّه رفاعة بنفع تلك العربات الكبيرة التى حملته إحداها إلى باريس فى ختام أسبوع ، لم يشعر خلاله بمثل دوار البحر ، بل استمتع بجمال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، وبوسائل الراحة التى تقدمها فنادق « فى غاية النظافة والظرافة » .

واستأنف الرأى العام الفرنسى اهتمامه بأخبار البعثة عقب وصولها إلى العاصمة . وراح چومار يذيع نشراته عنها بفخر واعتزاز . فعلم الجمهور أن تلاميذ « الباشا » قد نزلوا فى ٥ من

(١) انظر محفوظات وزارة الحربية الفرنسية بفانسين (Vincennes) :
"Réfugiés d'Egypte", dossier de Joanny Pharaon.

أغسطس دارًا بشارع « كليشى » رقم ٣٣ ، وأنهم بدءوا - منذ ٩ أغسطس - يتلقون الدروس فى اللغة الفرنسية والحساب والرسم من السابعة صباحًا إلى السادسة مساء . وألهَم موضوع البعثة محررى الصحافة الفكاهية - ولاسيما (Le Frondeur) و (La Pandore) . وكتب أديبان من أهل مرسيليا - (Barthélemy et Méry) - ملحمة هزلية عنوانها « البكرية » (La Bacriade) تروى قصة يهودى مغربى يدعى « ناتان بكرى » جاء ينفق فى باريس أموالاً طائلة ابتزَّها من والى الجزائر ، فأرسل محمد على - بناءً على طلب السفير الجزائرى « عثمان » - خمسين تركيًّا إلى باريس للثأر من ذلك المحتال !

وراجت التعليقات وازدادت طرافة ولذعًا فى العام التالى ، حين أهدى « محمد على » إلى « شارل العاشر » زرافة أثار قدومها إلى فرنسا فضول العامة والخاصة . وعادت إلى الظهور بهذه المناسبة صفحات من النقد والسخرية ، ومثّلت روايات مرحة تصوّر بعض مواقفها أولئك المبعوثين فى صورة الأتراك أعداء اليونان .

والحق أن ذلك الأدب الشعبى لم يخطئ عندما نسبهم للأتراك . فقد كان بينهم ستة عشر شابًّا من الترك والشراكسة والأرمن ، ولد معظمهم بالآستانة ، هذا عدا العثمانيين المولودين فى القاهرة ؛ وأما المصريون فكانوا خمسة . وكانت للأوّلين الرياسة ، والدراسات التى تهيئهم للرياسة ، كالإدارة الملكية والإدارة الحربية

والإدارة البحرية والعلوم السياسية ؛ على حين وجّه المصريون إلى تعلم صناعات يدوية أو كيماوية أو فنيّة ، وإلى دراسات شاقّة ولكن لا خطر لها على نظام الدولة - كالطب - لكى يظلوا دائمًا أتباعًا محكومين .

وتتضح هنا سياسة محمد على : كان يقصى أبناء مصر عن المناصب الهامة ، ويعتمد على طبقة أرستقراطية تدين له وحده بالولاء . ولقد اعترف للقنصل الروسى سنة ١٨٣١ بأنه كان يستجلب - على أيدى تجار أتراك يأتون من الآستانة - مماليك يشتريهم صغارًا ويربيهم ، وقد يرسلهم إلى أوروبا على نفقته لهذا الغرض[١] . وتشهد بذلك كثير من وثائق المحفوظات[٢] ، وكتب المعاصرين[٣] .

لا عجب إذن أن نرى من يبلغ عمره الخامسة عشرة إلى جانب من أمسى فى السابعة والثلاثين ، وأن نسمع معظمهم يتخاطبون باللغة التركية . ولن يجدينا البحث عمن يفهم الفرنسية ، فليس

---

(١) R. Cattaoui: Le règne de Mohamed Aly d'après les Archives russes en Egypte. Le Caire, Impr. de l'Inst. Fr., 1931. I, 425 - 426.

(٢) محفوظات دار الوثائق التاريخية القومية بالقاهرة ، القسم التركى ، دفاتر المعية : دفتر ١٨ رقم ٢٣٥ بتاريخ ٢٠ من ذى الحجة ١٢٣٩ - دفتر ٢٩ رقم ١٠٥ بتاريخ ١٩ من جمادى الآخرة ١٢٤٢ - دفتر ٢٢ رقم ٥٧ بتاريخ ١٣ من ربيع الثانى ١٢٤٢ - دفتر ٣١ رقم ٢٧٦ بتاريخ ١٨ من ذى القعدة ١٢٤٣ .

(٣) Gisquet; Prise d'Avennes; Clot Bey.

منهم من تعلَّمها فى وطنه . بل كان بينهم أحد عشر شخصًا لم يتلقوا أى تعليم أوَّلى ! وهذا الخليط العثمانى الغريب ، إنما تفتق عنه منطق سياسى ، لا منطق تربوىّ يشترط فى طالب العلم الذكاء وحسن الاستعداد وحداثة السن[1] . ولم يحظَ رفاعة الصعيدى بأن يكون واحدًا من أولئك المبعوثين ، حتى أضيف إليهم قبيل سفرهم – إمامًا ، كما أسلفنا ، لا طالبًا – بفضل تزكية الشيخ العطار .

* * *

ولم ينتفع المبعوثون بما كان يلقى عليهم من دروس اللغة الفرنسية ، بل ظلوا يتكلمون فيما بينهم بلغاتهم الأصلية . ولما كان تحصيل اللغة هو الخطوة الأولى فى سبيل استيعاب مختلف العلوم ، عمد چومار إلى توزيعهم على عدّة مدارس خاصة (بنسيونات) ليضطروا إلى ممارسة اللغة الفرنسية مع زملائهم وأساتذتهم الفرنسيين . ويقول رفاعة : « تفرقنا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص عند معلّم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم وتعهد أمورنا » .

ورحَّب بهم خيرة المربِّين : نزل « أرتين » وأخوه « خسرو »

---

(١) راجع القائمة ضمن تقرير لچومار نقله عن « المجلة الآسيوية » عمر طوسون فى كتابه : « البعثات العلمية فى عهد محمد على » . إسكندرية ١٩٣٤ ص ٢٦ – ٢٩ .

و « مظهر » لدى الأستاذ جوبو (Goubaux) مؤسس (Collège Chaptal) ؛ وأقام رفاعة لدى المهندس شقالييه (Chevalier) وهو من أصحاب الثقافة العليا . وكان على الجميع أن يدرسوا اللغة والرياضة والجغرافيا والتاريخ والرسم .

على أنهم لم يفقدوا صلتهم بالمركز الرئيسى ، الذى يسمّيه رفاعة « بيت الأفندية » . فهناك كانوا يتجمعون عند خروجهم من مدارسهم فى العطلة الأسبوعية ، ليتلقوا التعليمات الخاصة بقضاء وقت فراغهم . وكانوا أيام الخميس يزورون بعض معالم باريس بصحبة أساتذتهم وزملائهم الفرنسيين . وقد يؤذن بالتنزه فى المدينة مساءً – أثناء الأسبوع – لمن لم يكن عليهم واجبات مدرسية . ونصّت اللائحة التى وضعها « چومار » مدير البعثة – بالاشتراك مع رؤسائها الثلاثة المشرفين على شئونها المالية والإدارية – على عقوبات صارمة يتعرض لها المخالفون[1] . وكان أولئك الثلاثة يتناوبون الرياسة ، حتى انفرد بها « عبدى شكرى » ، فطغى واصطدم ذات يوم بچومار ، وشكاه چومار لمحمد على ، فأمره بتنفيذ توجيهات المدير الخبير[2] . وبعد عودته سنة ١٨٣١ ، خلفه

---

(١) راجع فصل « فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج » ص ١٤٨ – ١٥٠ من رحلة رفاعة « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، بولاق . الطبعة الثانية سنة ١٨٤٩ .

(٢) سنة ١٨٣٠ . محفوظات دار الوثائق التاريخية القومية بالقاهرة : دفتر ٤٠ معية تركى رقم ٦٧٣ بتاريخ ٢٠ من ذى القعدة ١٢٤٦ .

رفيقه التركى « أمين أفندى » . وكان « الباشا » يطلب تقريرًا شهريًا يبين نشاط كل تلميذ ؛ ويوجّه إليهم خطابات مليئة بالتهديد والوعيد[1] .

وفى ختام عامهم الدراسى الأوّل ، فى يولية سنة ١٨٢٧ ، عقد لهم مجتمعين امتحان عام ، كان من حسن نتائجه أن قرر محمد على لچومار مرتبًا سنويًا ثابتا ، قدره عشرة آلاف فرنك ، اعتذر چومار من عدم قبوله . ونشرت الصحافة الرسمية فى باريس ردّه الكريم ، وفيه يعلن تطوّعه للإشراف على البعثة مجانًا ، لوجه العلم والإنسانية والحضارة ، ولتوثيق علاقات الودّ بين البلدين .

وفى العام التالى – فى يومى ٢٨ فبراير وأوّل مارس سنة ١٨٢٨ – أدّى المبعوثون امتحانًا شاملًا فى الدراسات الإعدادية . وجعل چومار من هذا الامتحان حفلًا مشهودًا ، دعا إليه المستشرقين ونفرًا من أعضاء الهيئات العلمية والقادة ، وعلى رأسهم « الكونت دى شابرول » لا لأنه محافظ مقاطعة « السين » وعضو مجلس النواب فحسب ، بل لأنه من العلماء الذين رافقوا بونابرت إلى مصر . واكتمل معنى الحفل – فى رأينا – بحضور ضيفين معيّنين حرص چومار على قدومهما ، وهما « سير سيدنى سميث » قائد الأسطول الإنجليزى الذى أعاد جنود الحملة الفرنسية من مصر إلى

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٥١ – ١٥٢ . ودفتر ٤٠ معية تركى ص ٥١٨ فى ٢٨ جمادى الأولى ١٢٤٦ .

بلادهم ، و « داڤيد موريه » قنصل بريطانيا فى باريس ! وكان توزيع الجوائز فرصة طيبة لإقامة حفل آخر ، فى « بيت الأفندية » يوم ٤ يوليه ، جمع المستشرقين أيضًا وكبار رجال الجامعة والجيش . وتسلّم المتفوقون الجوائز من يد « الجنرال بليار » ، بعد أن خطب چومار فيهم خطبة بليغة .

وكانت الجوائز كتبًا ثمينة ، نال منها رفاعة لتفوقه فى الامتحان الأوّل كتابًا يسمى « رحلة أنخرسيس فى بلاد اليونان ، سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب » ، ولتفوُّقه فى الامتحان الثانى كتاب « الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذوذ من منظوم ومنثور تأليف مسيو دساسى »[1] .

وباجتياز المرحلة الإعدادية ، أصبح التلاميذ أهلًا للتخصص فى فروع مختلفة ، فانقسموا إلى خمس عشرة فرقة صغيرة لدراسة النظم الحربية ، والحقوق ، والبحرية ، والكيمياء ، والهندسة المدنية ، والطب ، والزراعة ، وغير ذلك من علوم الطبيعة والأحياء يبسِّطها لهم مدرسون خصوصيون . وتردّد بعضهم على المعامل والمصانع لتعلُّم الصباغة وتركيب الأملاح وصنع الزجاج والأسمنت والسكر ، والطباعة على الحجر ، كما تدرَّب طلبة البحرية على

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

الملاحة فى السفن الفرنسية بميناء « برست » ، وتدرب طلبة الزراعة فى حقول التجارب « بروڤيل » .

وأما رفاعة ، فقد واصل دراسة اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا ، وألمّ بالحساب والهندسة والمعادن ، والطبيعة - « من غير تعرض للعمليات » - وشحذ فكره بمطالعات قيّمة فى المنطق وتاريخ الفلسفة والأدب الفرنسى ، ولا سيما أدب القرن الثامن عشر الذى يؤمن بارتقاء البشرية ، وهدى المعارف ، وتحكيم العقل فى تنظيم المجتمع . وشغف بمقالات الصحف والمجلات ، فهو يقول : « وكنت متولعًا بها غاية التولع ، وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية ، وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسياسية » . وتخصص فى الترجمة . وأفاد من أحاديث المستشرقين « سيلڤستر دى ساسى » و « كوسان دى پرسڤال » و « چوزيف رينو » ، ومن اتصاله الدائم بيوسف أجوب وچومار وأساتذته الفرنسيين . وأدّت مطالعاته ومشاهداته إلى تطوّر عقليّ سليم ، أفضى به من السذاجة إلى نضج الرأى ثم إلى النقد الساخر ، مما نلمح آثاره فى فصول كتابه القيّم ، الذى يصوّر لنا تجربته تلك الإنسانية أثناء حدوثها . ولقد كانت تجربة خصبة استغرقت خمس سنوات .

وعاد رفاعة من باريس سنة ١٨٣١ ، بعد أن اجتاز فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠ امتحانه النهائى ، وفيه قدّم مخطوط رحلته إلى

لجنة المستشرقين التى ناقشته ، على أنه رسالة تكميلية إلى جانب اثنى عشر موضوعًا مترجمًا[1] .

وألحق محمد على بهذه البعثة ستّةً من التلاميذ أرسلهم إلى ميناء طولون لتعلّم الإنشاءات البحرية ، فى أغسطس سنة ١٨٢٨ – أى بعد أن فقد أسطوله فى موقعة « نڤارين » . وقبل نهاية العام نفسه ، أرسل عددًا آخر إلى باريس ، وكذلك فعل سنة ١٨٢٩ ، ثم سنة ١٨٣٢ بصحبة « كلوت بك » . وبلغ سنة ١٨٣٣ مجموع من شملتهم «المدرسة المصرية» فى باريس ١١٥ تلميذًا. ثم صرفت « ولىّ النعم » حروبه مع السلطان عن الاهتمام بهذه المدرسة ، ولعلّ موقف فرنسا من « المسألة الشرقية » قد خيّب أمله ، فطلب – فى أوّل ديسمبر سنة ١٨٣٥ – إعادة جميع المبعوثين فورًا .

* * *

ولا يعنينا فى هذا المقال عن « بعثة رفاعة » حديث البعثات الأخرى وكشف ما استتر وراءها – تحت مظهر العلم – من أغراض محمد على السياسية . وحسبنا أن ننظر فى نتائج الدفعة الكبيرة الأولى :

ها هم المبعوثون العائدون سنة ١٨٣٢ ، وقد ذهبوا توًّا لتحية « ولى النعم » فى قصره . يسأل محمد على أحدهم : ماذا تعلم ؟

---

(١) راجع تفاصيل هذا الامتحان فى :

Rev. Encyclopédique, nov. 1831, p. 521 – 523.

فيجيبه : الإدارة المدنية . ويستفهم الباشا : ما هذا ؟ فيشرح له الفتى :

– إنها دراسة تصريف شئون الدولة .

– أوه ! أوه ! أنت لن تتدخل فى الإدارة ؛ ضيعت وقتك سدى ! إننى أنا الذى أصرف الشئون ؛ اذهب لترجمة كتب العسكرية .

– ولكنى ، يا جناب الباشا ، لم أدرس العسكرية .

– قلت لك اذهب ، إنك تعرف التركية والفرنسية ، وهذا يكفى .

ويتجه محمد على إلى الثانى ويسأله :

– ماذا تعرف ؟

– الزراعة .

فيصيح « عبد ... أفندى » سكرتير الوالى :

– الزراعة ؟ سبحان الله ! وهل بذر الأرض وحرثها يحتاجان إلى د راسة ؟ إن فلاحينا لم يذهبوا إلى أوروبا ، ومع ذلك يحرثون ويزرعون ... كان ينبغى أن تتعلم العلوم الحربية أو الطب .

ويتصل هذا المشهد الفكاهى ، الذى يرويه « هامون »[1] ، بأن ينكر « الباشا » على من درس صناعة الشمع نفع دراسته ، ويسفّه الذى درس صناعة الورق لأن الورق يأتى ورقًا من أوروبا ، ويأمر

(١) P.N. Hamont : L'Egypte sous Méhémet-Ali. Paris, 1843.

الذى درس الرياضة بأن يدير مغزلاً للقطن !

وقد يكون فى هذه الرواية الساخرة شىء من المبالغة ، ولكنها لا تخلو من حقيقة . فقد كان محمد على من ناحية أميًّا جاهلاً ، لا قبل له بتمييز الكفاءات وتقدير الدراسات ، وكان من ناحية أخرى داهية يحرص على أن يعهد بالوظائف الخطيرة لمن لا يشك فى ولائهم ، وأن يشرِّد الذين يتوجّس خيفة من اتجاهاتهم . والأمثلة على ذلك كثيرة ، يضيق المقام عن إيرادها . ولنقتصر هنا على شهادة شاهد من أهلها ، وهو « أرتين » الذى كان من أعضاء البعثة وغدا سكرتير محمد على الأثير . إنه يكتب لچومار ، سنة ١٨٣٥ :

« إنى لأرجو للشبان الذين سيحضرون من فرنسا ألاّ يصبحوا موضع إهمال كأولئك الذين عادوا سنة ١٨٣٢ » .

ولا ينبغى أن يوهمنا هذا « الإهمال » بأن جميع أعضاء البعثة كانوا شبانًا ممتازين ، تمكنوا من العلم ، وأضحوا خليقين بتأدية أجل الخدمات ، جديرين بالتبجيل والتكريم . وهل نسينا فى أى درك كان مستواهم العلمى – مع تقدمهم فى السن – عند بدء دراساتهم ؟ لقد أعيد منهم خمسة لعدم صلاحيتهم . وكان « ولىّ النعم » يحكم على مثل هؤلاء الفاشلين بالأشغال الشاقة[1] . ويحاول

---

(١) مخطوطة إدريس أفندى « أخلاق وعادات » ص ٣٧٠ – وحاول التلميذ الجورجى « على الكرجى » الفرار فألقى القبض عليه وأعيد إلى مصر حيث عاقبه محمد على (عمر طوسون ص ٤١) .

كلوت بك - وهو من المدافعين عن محمد على - أن يبرر النتائج بحجة أن « نسبة الذين أفلحوا تفوق ما لاحظه الملاحظون » بيد أنه يعتمد على نتائج امتحانات رسمية توخّى فيها الممتحنون إرضاء « الباشا » بالثناء على مبعوثيه . ولعلّ « إدريس أفندى » - خصم كلوت بك - أصدق منه إذ يتحدث عن واحد من أعضاء البعثة اضطر إلى أن يعمل إسكافًا فى زقاق من أزقة الحىّ الإفرنجى بالقاهرة ، وعن آخر هو « إبراهيم الساعاتى » الذى لم يكن ماهرًا ولا أمينًا[1] . ويعترف چومار نفسه ، فى رسالة منه سنة ١٨٤٤ إلى « أرتين » - وكان وزير خارجية محمد على - بكثرة عدد الذين « لم يفلحوا تمامًا » وبعدم انتفاع مصر باستخدام من تخصصوا فيما يناسبهم من الوظائف[2] .

والذين « أفلحوا » ، هل أفلحوا حقًّا ؟

إن التركيين « عبدى شكرى » و « مصطفى مختار » أصبح أوّلهما رئيس المجلس الأعلى للحكومة ونال « الباشوية » ، وتولّى الثانى وزارة المعارف ونال « البكوية » .. وخلف الأرمنيان « أرتين » ثم « اسطفان » - وكلاهما « بك » - مواطنهما « باغوص بك » فى منصب وزير الخارجية .. واستطاع « محمد

---

(١) مخطوطة « سياسة وإدارة » ص ٨٤ . عن شخصية إدريس أفندى ومخطوطاته راجع مقالنا بالعدد ١٥ من « المجلة » ص ٤٧ - ٥٩ .

(٢) نشر الرسالة الأستاذ جاستون فييت فى La Rev. du Caire أكتوبر ١٩٤٤ .

مظهر » بفضل أصله العثمانى أن يرقى إلى « الباشوية » وإلى وزارة الأشغال ، كما استطاع الشركسى « محمود نامى » أن يرقى إلى « الباشوية » ووزارة المالية ... تلك إذن مناصب عليا ، وألقاب رفيعة ، ومظاهر خلّابة ، فهلا استكشفنا بعض ما تخفيه من الواقع ؟

هذا « مصطفى مختار » ، برغم تربيته فى فرنسا ، ما زال منحرف الأخلاق ، يدفعه ذات يوم ذلك الشذوذ الجنسى المتفشى فى الأرستقراطية التركية إلى أن يضرب غلامًا مصريًا من خدمه حتى يقتله ، لأنه استعصى على نزوته ، وهو - أى مصطفى مختار - لم يكد يفرغ من اقتباس مواد القانون الجنائى ! ويضارعه فى القسوة تركى آخر من زملائه ، كان يلقبه جيرانه فى « درب الحبالة » باسم « أحمد أفندى أبو شنب » ، وكان يسرف فى الشراب ويعذب جواريه الإحدى عشرة إلى أن عرفن ذات ليلة كيف يتخلصن منه إلى الأبد[1] . وينعى « إدريس أفندى » على أولئك « المصلحين » المزعومين أنهم لم يعودوا من فرنسا إلّا بقشور الحضارة الحديثة ، فما فائدة معلومات فى الجبر والهندسة وبعض الصناعات لنفوس تهافتت فى باريس على الترف واللهو والخمر والمجون ، وعجزت

---

(١) Paton : History of the Egyptian revolution from the period of the Mameluks to the death of Mohamed Ali. London , 1862. II, 257 - 258.

عن فهم روح الحضارة فى نظم المجتمع ، ومبادئ العدالة والحرية ؟

وتنطبق ملاحظة « إدريس أفندى » على العثمانيين ، الذين لم تربطهم بمصر رابطة الوطن ، ولم يشعروا نحو هذا البلد بواجب عليهم ، فكانوا يلتمسون أقرب المتع الشخصية ، ويمعنون فى الاستهتار . لقد اشترى « مصطفى مختار » فى باريس آلات موسيقية بمبلغ ١٨٤ فرنكًا . وأرسل « محمد على » لكل من رؤساء البعثة الثلاثة جوادًا ، فبلغت نفقات هذه الجياد شهريًّا ٧٤٥ فرنكًا على حين كان المرتب الشهرى لرفاعة الطهطاوى ٢٥٠ قرشًا (وهو أقل من عُشر مرتب مصطفى مختار المولود فى قوله) . ومن المفيد أيضًا أن نذكر هنا أحمد ابن أخى مصطفى مختار ، وكيف أريد له أن يدرس التاريخ الطبيعى والمعادن ، فأنفق ثمانية أعوام دون أن يصل إلى نتيجة ، بل وأعيد إلى مصر « قسرًا لارتكابه جريمة التداين » مع أنه كان « وكيلاً على خرج التلاميذ » يتصرف فى ميزانية كبيرة .

وأما المصريون - مثل بيومى والسبكى والرشيدى والبقلى - فلم يحظوا فى غربتهم بتدليل « ولىّ النعم » ؛ لذا انصرفوا عن الترف والعبث إلى جدّ الأمور . وبات يحفزهم للسعى والتحصيل هاتف فى نفوسهم ، هو مزاج غامض من حنينهم ، ووفائهم الفطرى لوطن عزيز ، وشعورهم العميق بأن أهلاً لهم وإخوة ينتظرون منهم أداء رسالة . ومن المؤثر حقًا أن نرى رفاعة نهبًا لهذه العاطفة

المشبوبة ، يهلك مرتبه الضئيل فى شراء الكتب ودفع أجور دروس إضافية ، ويسهر للاستذكار برغم نصيحة طبيب العيون الذى نهاه عن القراءة ليلاً ، ولا يكف تفكيره اليقظ عن المقارنة بين ما يروعه فى باريس وما خلفه على ضفاف النيل . ولقد كانت تلك المقارنات توثبًا إلى الإصلاح ، وبداية حياة لوطنه أفضل .

لم ينل رفاعة لقب الباشوية ولا كرسى الوزارة ، لأنه - كما شهد الكاتب الحرّ « ڤيكتور شولشير »[1] - لم يكن من الأتراك أو الأرمن . ولكنه فى مكانه المتواضع ، مكان المدرس والمترجم والمحرر وناظر المدرسة ، أدّى الأمانة . أنار عقول جيل من أبناء الشعب ، ونقل معهم - لهم ولمن يأتى بعدهم - كنزًا من الثقافة . وراح يكتب ويخطب ، وينظم وينثر ، يبسط العلوم ، ويفتح لقومه آفاقًا مجهولة ، ويبث كل ما زخرت به نفسه من معانى التقدم فى التربية والاقتصاد والسياسة ، ويحارب أثناء ذلك آراء الرجعية الفاسدة . كان يريد أن يبصّر أمّته بمجد ماضيها وبأسس تطورها . ولم تكلّ فى هذا الجهاد عزيمته برغم القيود التى فرضها عليه محمد على ، ولا فترت همته عندما نفاه عباس إلى السودان . لم يكفر برسالة الارتقاء التى آمن بها ، بل عمل فى جميع الظروف وبجميع الوسائل ، حتى وافته المنية فى ٢٩ من مايو سنة ١٨٧٣ .

---

(١) V. Schoelcher : L'Egypte en 1845. Paris, Pagnerre, 1846. p. 129.

إننا إذا دققنا النظر فى وقائع بعثة ١٨٢٦ وإحصائياتها ، نميل إلى الحكم عليها بأنها كانت فى جملتها بعثة فاشلة . ولقد حتم عليها الفشل روح اختيار أعضائها . ولكن مصر تداركت أمرها ، وألحقت فتى من صعيدها بركب خشيت عقمه . وعاد إليها الفتى حاملاً بذار النهضة ، وتعهّد الغرس فأتى بطيب الثمر . لولا رفاعة إذن لخسرت بعثة ١٨٢٦ معناها الأصيل ، ولفقدت أهميتها فى تاريخنا : أليس انتقاله من طهطا إلى باريس رمزًا لانتقال مصر من القرون الوسطى إلى العصر الحديث ؟ ولذلك يحق لنا أن نسمى تلك البعثة العلمية : « بعثة رفاعة الطهطاوى » .

٢

موعد ولقاء*

من الرجال من ترتبط حياته بحقبة معينة ، وتتصل أعماله بما يشغل زمنه أوثق اتصال ، ويتشكل مصيره بمغزى الأيام التى عاشها ، فإذا هو جزء من التاريخ ، تطوّر تطوّره ، ونما نموّه ، وإذا هو يبدو أمامنا وكأنه قد تقمّص عصره وجسّمه لنا فى صورة إنسان . من الرجال من خصّصت له أمّته دورًا كبيرًا وانتظرته ليؤديه ، فأقبل فى الموعد المحدّد ، وأظهر من الجدارة ما يعادل الأمل المعقود عليه ، واستطاع أن يضطلع بمهمته حتى يكملها على خير وجه . من هؤلاء الرجال « رفاعة رافع الطهطاوى » ؛ فقد وجدت فيه مصر صانع نهضتها حينما أفاقت فى فجر القرن التاسع عشر .

ما كاد ذلك القرن يبلغ عامه الأوّل حتى ولد رفاعة . وكانت الأقدار قد شاءت أن تجعل من هذا المولود – عندما يبلغ عمره ربع

---

* من تقديم « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، طبعة وزارة الثقافة – القاهرة ١٩٥٨ .

قرن - رحالة ترسله من الأزهر إلى باريس ، ليعود ببذور النهضة الفكرية ويخرج مصر من ظلمات العصور الوسطى . بدأت الأقدار فدفعته ، وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره ، إلى مغادرة مسقط رأسه وراء أبيه الذى فرّ إلى قنا وفرشوط من الضائقة الاقتصادية التى أصابت الأسرة فى طهطا . تنقّل الغلام إذن من قرية إلى قرية ؛ تارة على ظهر مطيّة من ذوات الأربع ، وتارة « على ظهر النيل المبارك » ، وتارة أخرى ماشيًا على قدميه . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره ، صحبته الأقدار إلى القاهرة ، ليدرس فى الأزهر ، اقتداءً بأخواله العلماء الشيخ فراج الأنصارى والشيخ أبى الحسن الأنصارى والشيخ محمد الأنصارى ، وهم الذين تولوا تربيته فى طهطا بعد وفاة والده . ولم تكن الرحلة من طهطا إلى القاهرة سنة ١٨١٧ بالأمر الهيّن ، بل كانت تستغرق نحو أسبوعين شاقّين من الملاحة البدائية ، وكانت فى نظر أهل ذلك العصر مغامرة جريئة .

وفى الأزهر شاءت الأقدار أن يتتلمذ الفتى الصعيدى على رجل رحالة ، وأديب مرموق هو الشيخ حسن العطار ، الذى كان يمتاز من بين أساتذة ذلك العهد بعقلية تقدمية تستطلع الحديث وتؤمن بالتطوّر . كان حسن العطار عالمًا ، نتيجة لميله ورغبته ، فقد أحبّ العلم ونزع إليه على الرغم من إرادة أبيه الذى كان يودّ أن يورِّثه تجارته وعطارته ؛ لذلك أصبح العلم لديه معرفةً توسّع الفكر ، لا استظهارًا وتكرارًا . لقد احتلّ التفكير فى تدريسه محل الحفظ ،

واحتلت الحركة فى حياته مكان الجمود . وكان قد اتصل به بعض ضباط بونابرت ليتعلموا اللغة العربية ؛ فلم يحتقرهم ولم ينبذهم ، بل جاورهم وحاورهم ، وعلّمهم وتعلّم منهم . وفطن إلى أهمية كتبهم التى لاحظ - دون أن يستطيع قراءتها - أنها كتب منوّعة تعالج شتى موضوعات الدنيا ، وفطن إلى أهمية منهجهم المتحرر من منطق القرون الوسطى ، وبساطتهم المباشرة فى التعبير عن أفكارهم ، وأحسّ وتنبّأ بضرورة تجديد الحياة العقلية فى القاهرة . وكان مولعًا بالجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش طريفة على كتاب « تقويم البلدان » لأبى الفداء ، وكان يتحدث عن كثير من المدن حديثًا شخصيًّا ممتعًا ، فقد جال فى فلسطين وتركيا وأقام طويلاً فى دمشق .

وشاءت الأقدار أن يؤدّى هذا الأستاذ المستنير أخطر دور فى حياة رفاعة . فقد بلغ رفاعة فى عام ١٨٢٦ الخامسة والعشرين من عمره ، وبلغ أيضًا أقصى ما يستطيع أن يناله فى مصر فتى مثله ، فتصدّى للتدريس بالأزهر ، واشتغل إمامًا لبعض فرق الجيش ولاحت فى حياته مرحلة الاستقرار ، بعد أن انتهت مرحلة التحصيل . ولو قد اتصلت حياة رفاعة على ذلك النحو ، لكان من المرجح ألاّ نسمع عنه شيئًا ، ولما طابق مصيره مجرى التاريخ . فكم من أمثاله ولدوا فى طهطا وفى غير طهطا ، ثم تعلموا فى الأزهر على حسن العطار وعلى غير حسن العطار ، ثم اشتغلوا أئمة فى الجيش أو فى غير الجيش ثم ذهبوا دون أن يتركوا أثرًا .

فى ربيع ذلك العام ، انتهز « محمد على » فرصة مرور السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » (La Truite) فكلّف قبطانها « روبيار » (Robillard) أن يحمل معه إلى مرسيليا أربعين شابًّا ليدرسوا فى باريس[1] . وينبغى أن نذكر فى وضوح أن رفاعة رافع الطهطاوى لم يرسله إلى فرنسا محمد على وإنما أرسله الشيخ حسن العطار .

كان محمد على لا يثق بالمصريين ، وكان يتخذ أعوانه من الأجانب يشتريهم صغارًا كما كانت تشترى المماليك ، ويسلمهم فى القلعة إلى شخص موصلى يدعى « حسن أفندى الدرويش » ومن بعده إلى شخص آخر تركى يدعى « روح الدين أفندى » ليتعلموا الخطّ والحساب واللغة التركية إلى جانب التمرينات العسكرية . وقد اعترف محمد على بذلك صراحة للقنصل الروسى[2] . وهناك من الوثائق المحفوظة بالقاهرة مالا يدع مجالاً للشك فى اتجاهه إلى تكوين طبقة أرستقراطية مشتراه بالمال ، تدين له وحده بالولاء ، ويحكم بواسطتها البلاد . لم يدخل مدرسة القلعة إذن إلّا عدد محدود من الصبية الأتراك والشراكسة والجيورجيين والأكراد والأرمن . ومن هذا الخليط العثمانى انتخب محمد على معظم أعضاء بعثته ، دون مراعاة لما ينبغى أن يتحقق فى طالب العلم من شروط الذكاء وحداثة السن والاستعداد . وحينما أوشكت البعثة على السفر ،

(١) ، (٢) انظر المراجع فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

أشار حسن العطار على الوالى بأن يضيف إلى الطلبة إمامًا يسهر على شئون دينهم فى تلك البلاد البعيدة ، فلم يستطع محمد على أن يرفض هذا الاقتراح . وهكذا عين حسن العطار تلميذه رفاعة إمامًا للبعثة .

وفى باريس ، اهتم « چومار » (Edme-Francois Jomard) ، مدير البعثة ، بالشيخ الإمام ، وجعله موضع عنايته الخاصة . كان « چومار » مهندسًا جغرافيًا من علماء الحملة الفرنسية الذين اصطحبهم « بونابرت » إلى ضفاف النيل ، وهو الذى أشرف فيما بعد على نشر الكتاب الضخم الذى ضمّ دراسات أولئك العلماء بعنوان « وصف مصر » (Description de l'Egypte) . وقد أصبح « چومار » رئيسًا للجمعية الجغرافية ، وعضوًا فى « المعهد الفرنسى » (Institut de France) ، ومحركًا لكثير من الهيئات الثقافية والتربوية . ولم ينقطع اهتمامه بمصر ، بل اتصل مرارًا بواليها الجديد « محمد على » ، وأفلح فى اجتذاب بعثاته إلى باريس وكانت قد اتجهت فى أوّل الأمر نحو إيطاليا .

توسم « چومار » فى رفاعة الذكاء ، فوجّهه إلى الإفادة من رحلته بدراسة اللغة الفرنسية ، وترجمة مبادئ العلوم ، وإنشاء كتاب عن مشاهداته فى باريس ، لعلّ هذا الفتى الصعيدى أن يصير همزة الوصل المنشودة بين ثقافة الغرب وعقلية الشرق .

وبعد أن أمضى رفاعة فى باريس خمس سنين عامرة بالاطلاع

والتفكير والتحصيل بين الأساتذة والمستشرقين وأهل العاصمة الفرنسية وأئمة الحضارة الحديثة ، عاد إلى وطنه سنة ١٨٣١ زاخر النفس بمعانى حياة جديدة ، متحفزًا لعمل خطير هو إصلاح المجتمع المصرى بتعليم الشعب وتنوير العقول . عاد ليدرس وينشئ المدارس ، ويصنع من تلاميذه مدرسين للجيل الصاعد ، راح يستعرض كتب الثقافة الغربية ، ويترجم ويصنع من تلاميذه مترجمين يتولّون معه وتحت إشرافه ومن بعده نقل ذلك الكنز المفتوح . ومضى يكتب ويخطب ، وينشر المجلدات والصحف ، ويبسط العلوم ويعالج شئون التربية والاقتصاد والسياسة ، يهدم الآراء الفاسدة ويبثّ أفكار التقدم ، ويبصّر أمته بروعة ماضيها وخصب حاضرها ورجاء مستقبلها ، لا يكلّ فى ذلك نشاطه على الرغم مما يقيّده به محمد على ، ولا تفتر همّته حين نفاه عباس إلى السودان ، بل واصل رسالة الارتقاء التى آمن بها ، حتى وافته المنيّة سنة ١٨٧٣ . إنه رائد عملاق ، لولاه ولولا الفريق الذى ربّاه لظلّت مصر متخلفة عن ركب التاريخ . ما أصدق ذلك الكتاب الذى لم يكتب بعد وعنوانه « رفاعة رافع الطهطاوى أو نهضة مصر ! » .

* * *

تتجلّى فى خبرة رفاعة تلك الظاهرة الكبرى التى يمتاز بها تاريخ مصر والعالم العربى فى القرن التاسع عشر ، ألا وهى الاتصال

المحتوم بالحضارة الغربية . إن رحلة رفاعة إلى باريس هى أوّل علاقة مثمرة بين الشرق والغرب فى العصر الحديث . أجل ، لقد تبادل الشرق وأوروبا التجارة والسفراء منذ القرون الوسطى ، ولكن إقامة التجار والسفراء الأوروبيين بين ظهرانينا لم تنتج قط امتزاجًا إنسانيًا عميق الأثر . ثم انطوت مصر على نفسها ، حين دهمها الأتراك فى القرن السادس عشر ، فباتت فى ظلامها تجهل أنوار الفجر الجديد الذى طلع إذ ذاك على أوروبا . وامتدّ سباتنا حتى أيقظتنا فى آخر القرن الثامن عشر طلقات مدافع بونابرت .

كانت الحملة الفرنسية لقاءً عنيفًا بين أبناء الغرب وأبناء الشرق ، ولم يتح لها قصر الأجل ولا روح المقاومة الشعبية من الاستقرار ما يؤدّى إلى اتصال جليل النفع . وللردّ على مبالغات بعض المؤرخين فى تقدير النتائج المباشرة لتلك الحملة على مصر[1] يكفينا أن نذكر الجبرتى ، فإن هذا الرجل الذى يعتبر من أكبر علماء عصره لم يستطع أن يدرك شيئًا من علوم الفرنسيين ، بل إنه لم يحاول أن يتفهم ما شهد من تجاربهم الكيميائية والطبيعية البسيطة ، وقنع فى آخر الأمر بإبداء دهشته وعجزه ، إذ يقول : « وهم فيه

---

(١) كراسات التاريخ المصرى . فبراير ١٩٥٥ :

Anouar Louca : "La Renaissance Egyptienne et les limites de l'Oeuvre de Bonaparte". Cahiers d'Histoire Egyptienne le Caire, Sér. VII, Fasc. 1, février 1955, pp. 1 - 20 .

أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا »[1] .

وخطت مصر خطوتها التالية فى سبيل الاتصال بالغرب عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد « الإفرنج » . شعر الفتى الصعيدى بمكانه من الدنيا ومن التاريخ ، وأحسّ بروعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته . ووضعه « چومار » فى مركز المعارف الجديدة ، فأقبل عليها ، وأفاد أكبر فائدة من التوفيق الذى حظى به ، فأصبحت رحلته هى أول صورة كاملة للقاء الشرق والغرب أمامنا ، وأتحفتنا تجربته بجميع نتائج الإخصاب ؛ لأنها تمت فى ظروف مواتية .

* * *

لهذه التجربة الفريدة سجل ثمين ، كتبه بطلها نفسه فى أثناء إجرائها ، وعرف قيمته قبل أن نعرفها اليوم ، فسمّاه « الديوان النفيس » بعد أن عنونه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » . ترى ما مصدر الشغف الذى يجده قارئ هذا الكتاب بعد قرن وربع قرن من نشره ؟ إن أهمية « تخليص الإبريز » ترجع إلى غزارة مادته ، وتعدد دلالته بالنسبة لنا .

قد يكون هذا الكتاب أوفى مصدر مباشر لدراسة البعثة التعليمية

---

(١) راجع عبد الرحمن الجبرتى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ . الجزء الثالث ص ٣٥ وما يليها .

المصرية التى أرسلت إلى باريس عام ١٨٢٦ . على أنه فى الوقت نفسه قصّة شائقة تروى رحلة طريفة . وتلك القصة تشبه فى بعض سياقها تقريرًا يرفعه إلى حكومة مصر طالب عن بعثته راح يستعرض موضوعات دروسه وامتحاناته ، وهى تفاصيل تطلعنا على مراحل تطوّر عقل الكاتب ونضجه طوال خمس سنين . ولكنه تقرير أشمل من قائمة بنشاط طالب مجتهد ، فالكتاب بجملته تقرير جامع عن باريس باعتبارها عاصمة الحضارة الأوروبية . ومن وراء صورة فرنسا نستشف صورة مصر ، إذ تبدو معالمها خلال الموازنات والحسرات والأمانى التى تلح على قلم المؤلف ، وتلك صورة لمصر فى نهضتها كما التقطها فتى من أبنائها الأبرار . والكتاب يعكس لنا أيضًا صورة هذا الفتى وهو ينتقل من الشباب إلى الرجولة ، فنحن نعيش معه فى هذه الصفحات حقبةً من أهمّ حقب حياته ، نشاطره مطالعاته ومناقشاته ونزهاته ، ونعجب بدأبه وإخلاصه ، ونعرف ذوقه الأدبى وقريحته الجادة مع ميله إلى الفكاهة ، وتقواه التى توازى بل تفوق إيمانه بالمدنية والارتقاء . ويقدم لنا « تخليص الإبريز » فضلاً عن ذلك ، ملخصًا ممتازًا لجميع أعمال رفاعة المقبلة ، كما راودته مشروعاتها فى باريس . فكثيرًا ما تبدأ جهود المصلحين بالأحلام والرؤى ، ونستطيع هنا أن نتتبع أحلام المواطن الصعيدى ، والطالب الذكى ، والمترجم والأديب . والكتاب فوق هذا كله - بما يحمل من أفكار جديدة فى أسلوب جديد - تاريخ يؤرِّخ فى

الأدب المصرى الحديث ، فهو يعلن انقضاء عصر الركود العثمانى ، ويبشر بازدهار فنون أدبنا المعاصر .

وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الزاخر بالمعانى التاريخية والاجتماعية والشخصية والأدبية ، فقد خيم عليه طويلاً ظل النسيان أو الإهمال ، ولا يكاد يذكره شباب اليوم إلّا ليتندروا بعنوانه المسجوع !

* * *

ومن الحق أن يستوقفنا ذلك العنوان قبل أن نشرع فى قراءة الكتاب ، فالجناس المصحف بين كلمتى « تخليص » و «تلخيص » ، ثم بين كلمتى « إبريز » و « باريز » ، يقرع سمعنا بجرس منظوم ، وسجع مرقوم . ويدعونا إلى الابتسام من صنعة قديمة قوامها التكلف والافتعال . وهل يقنع المؤلف بهذا العنوان المطرب ؟ إنه يصوغ عنوانًا ثانيًا تشهد فيه ألفاظ أخرى ، متجانسة مسجوعة ، ببراعة الفنان وحذقه : « الديوان النفيس بإيوان باريس » ولا عجب ، فقد كانت الصناعة اللفظية وإجادة الألعاب الإنشائية هى خير صفات الكاتب فى نهاية عصر الانحلال بعد أن انعدم الاهتمام بالفكرة ، ولم يكن بدّ للأديب من إظهار مهارته فى اللعب بالألفاظ حتى يكون أديبًا . فكأنى برفاعة يتحدّى قارئه بهذا الإتقان ، ويغتصب إقباله على الكتاب اغتصابًا .

على أن كلمة غريبة تبرز فى هذا العنوان المثنى العتيق ، كلمة

مجهولة لم تظهر فى اللغة العربية حتى أوّل القرن التاسع عشر ، هى اسم العاصمة الفرنسية . فلم يذكر « باريس » إلاّ « نقولا الترك » الذى عاصر حملة بونابرت وأرّخ لها . ويبدو من تردّد رفاعة فى كتابة هذا الاسم بين السين والزاى ، أنه يخطه بالحروف العربية للمرة الأولى . وسواء كتب « باريس » أو « باريز » ، فهو ينظم الكلمة الجديدة فى سلك عنوانه ، ويحرص على وضعها موضع القافية من الشعر ، حتى تمتد موسيقاها فى أذن السامع ، وتقع لديه أهم موقع . وإنها لظاهرة طريفة ، تروعنا بغزارة معناها . « باريس » التى ترمز إلى حضارة العالم الحديث تتجاوب مع ألفاظ عبارة عربية بالية ، على غلاف كتاب كبير الحجم ... هنا لقاء القديم والجديد ، لقاء الشرق والغرب .

٣

هذا « الديوان النفيس »*

حسبنا أن نلقى على الصفحات الأولى نظرة سريعة حتى تتضح لنا عناصر هذا الكتاب الكثيف المادة ، الذى تختلط بمتنه أشعار دخيلة ، ونصوص مترجمة متباينة .

ها هو ذا الشيخ حسن العطار ، شيخ الجامع الأزهر ، يقرظ بقلمه الرصين هذا الكتاب عن باريس ، فى أول صفحة منه . إنه لسعيد بأن يقدم للجمهور عمل تلميذه . ولا يعدو تقريظه فقرة واحدة من النثر المسجوع المتكلف ، الجميل بحسب مقاييس الكتّاب الفنية فى تلك الأيام . ترى هل صدَّر الشاب كتابه الداعى إلى أفكار جديدة بثناء شيخ الأزهر ، ليدفع عن نفسه تهم الضلال والمروق والبدعة ؟ لعلّه أراد من هذه الصفحة فى أوّل الكتاب أن تحميه من هجمات أعدائه ، كما أراد أن تحميه بعد ذلك صفحات فى آخر الكتاب أضافها إلى الطبعة الثانية وشحنها بقصائد فى مدح

* من تقديم « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، طبعة وزارة الثقافة – القاهرة ١٩٥٨ .

عباس باشا بمناسبة جلوسه على عرش مصر ...

ويبدأ رفاعة حديثه « بخطبة الكتاب » ، وهى أربع صفحات من النثر المنمق ، التزم فيها السجع وأكثر من المحسنات البديعة ، وحلاها بأبيات ركيكة من شعر ذلك العصر ؛ إلّا أنه أجاد بناءها ، وحمّل ألفاظها أفكارًا . فهو ينظر فى نفسه من ناحية وفى عمله من ناحية أخرى ، ونستطيع أن نرى فى تلك الصفحات صورة مصغرة للرجل وللكتاب :

إنه رجل تربّى فى الأزهر ثم انتقل إلى باريس ، فاحتفظ بالتقاليد الإسلامية ، وأضاف إليها التحليل العقلى الذى تتميز به الثقافة الفرنسية .

يتجلّى حظ الأزهر فى طريقه الاستهلال بحمد الله « الذى ابتلاه فصبر ، وأغناه فشكر » ، وبالصلاة والسلام على رسوله « الذى سافر إلى الشام وهاجر إلى المدينة » ، وبتمجيد الحاكم فى مصر إذ ذاك . وبعد هذا الاستهلال التقليدى يقدّم رفاعة نفسه للقارئ دون إبطاء ، فيذكر اسمه وبلدته ونسبه ومذهبه ، كأنه يبرز أوراقه الشخصية عند باب الدخول ! ويوجز قصّة حياته ، فيشير إلى افتقار أسرته بعد ثراء ، وإلى تعلّمه فى الأزهر ، وتعيينه « واعظًا فى العساكر الجهادية » ثم « مبعوثًا إلى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلّم العلوم والفنون بهذه المدينة البهية » . ويتجلى حظ باريس فى الإنشاء المنطقى الذى صيغت فيه هذه الصفحات من ناحية ،

وصيغت فيه من ناحية أخرى أبواب الكتاب ، كما راح يعدّدها المؤلف فى ختام خطبته . إن هذه الخطبة مقدّمة جيدة ، أحسن فيها رفاعة استعراض كتابه ، وساق أفكاره سياقًا منظمًا . فهو يروى - على سبيل التمهيد - كيف وُلد كتابه ، ثم يبين أهدافه ، ويحدّد مجال موضوعه ، ويشرح وجهة نظره ، ويعرِّف بخطته ومنهجه .

ولعل خير سبيل إلى الإحاطة بجميع أطراف الكتاب لتقديره حقَّ قدره هى أن نناقش مع المؤلف تلك القضايا التى يثيرها . ولكن لابدّ لنا قبل أن نبدأ هذا النقاش من أن نلمّ بمحتويات أبوابه وفصوله .

* * *

يتألف « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » - كما يعلن صاحبه - من « مقدمة » تضم أربعة أبواب ، ومن « مقصد » يشمل ستّ مقالات تنقسم كلٌّ منها إلى عدة فصول ثم من « خاتمة » .

ويبدأ رفاعة ، فى أوّل أبواب مقدمته ، بذكر دواعى تلك الرحلة إلى فرنسا ، فيصعد إلى ما قبل التاريخ . ويتتبّع تطوّر الإنسان وارتقاء المجتمع ، ويرى أن الشعوب من حيث تفاوتها فى درجات الحضارة تنقسم إلى ثلاث مراتب : مرتبة المتوحشين ، ومرتبة البرابرة ، ومرتبة « أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن » . وقد كان العرب فى عداد هذه المرتبة الثالثة أيام العباسيين وملوك

الأندلس ، غير أن « الإفرنج » فى العصور الأخيرة تفوقوا عليهم بفضل ما أتقنوا من علوم ، وما أرسوا من قواعد العدالة . وحلال طلب العلم فى بلاد الإفرنج ، ألم يرد فى الحديث « اطلب العلم ولو بالصين » ؟

وفى الباب الثانى من المقدمة يعدّد رفاعة مختلف المواد التى كان على المبعوثين أن يدرسوها ، وهى أوّلاً مواد عامة لجميع التلاميذ ، كالحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ والرسم ؛ ومواد تخصّص ، كالإدارة المدنية ، والإدارة العسكرية ، والملاحة البحرية ، والدبلوماسية ، والهندسة المائية والميكانيكية والحربية ، والمدفعية ، وصناعة الأسلحة ، والكيمياء ، والطب ، والزراعة ، والتاريخ الطبيعى ، وصناعة الطباعة على الحجر ، والترجمة .

ولكى يحدثنا رفاعة ، فى الفصل الثالث من المقدمة ، عن أسباب إرسال البعثة إلى فرنسا دون سواها من بلاد الإفرنج ، ينشىء مقدمة طويلة يستعرض فيها دول العالم كما جمعها الجغرافيون الإفرنج فى خمس قارات . ويبدو له « بحسب مزية الإسلام وتعلقاته » أن أفضل القارات هى آسيا ، لأنها مهد الإسلام ، ومهبط الأديان السماوية ، ومنشأ الأنبياء والمرسلين والصحابة والأئمة الأربعة ، ولأنها وطن العرب ، وبها القبلة والأراضى المقدسة . تليها إفريقية لأنها تضم مصر « وهى أيضًا عش الأولياء والصلحاء والعلماء » . وأما ثالث القارات فى الفضل فهى أوربا ،

إذ لا يشرفها إلّا « وجود الإمام الأعظم سلطان الإسلام فيها » . وبالمقياس عينه توضع جزر المحيط فى المكان الرابع « لعمارها بالإسلام أيضًا مع عدم تبحّرها فى العلوم » ، فهى خير من أمريكا ، حيث لا وجود للإسلام بها أبدا . ولكن رفاعة لا يلبث فى هذا التصنيف أن يستدرك استداراكاً جوهريًا ، ويقرر أن جدارة الأمم وفضلها وامتيازها لا تقاس بأديانها وإنما تقاس بمستواها من العلم . « ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية » . وأكثر هؤلاء الإفرنج علمًا هم الإنجليز يليهم الفرنسيون فالنمسويون . غير أن « باريز » تمتاز على « لوندرة » باعتدال الجوّ وقلّة الغلاء ، وبما تبيحه للأجانب من حرية الرأى والعبادة والتصرف ؛ ولذلك استأثرت فرنسا بأغلبية الطلبة المبعوثين من مصر ، ولم يقصد انجلترا والنمسا منهم سوى عدد قليل .

ورابع أبواب المقدمة باب قصير ، يسجل فيه رفاعة أسماء رؤساء البعثة ، وهم ثلاثة « أفندية » كانوا يتناوبون الإمرة : « عبدى أفندى المهردار » وكان يتخصص فى الإدارة المدنية ، و « مصطفى مختار أفندى الدويدار » وكان يدرس الإدارة الحربية ، ثم « الحاج حسن أفندى الإسكندرانى » الذى كان يتعلّم الملاحة البحرية ، إلى أن انفرد الأوّل بالرياسة . وكان يشرف على البعثة « مسيو چومار » .

وهنا تنتهى « المقدمة » ويبدأ « المقصد » . ويأخذ رفاعة فى

سرد وقائع رحلته وما خالجه من مشاعر فى الطريق الطويل إلى فرنسا . منذ وصل إلى الإسكندرية - بعد أربعة أيام على النيل - أحسَّ أنه يدنو من بلاد الإفرنج . ولما كان قليل الخروج فى أثناء الأيام الثلاثة والعشرين التى قضّاها المبعوثون « فى سراية والى مصر » ، فإن حديثه عن هذه المدينة لا يعدو ما لخصه عن تاريخ الإسكندر وشخصية « ذى القرنين » من بعض الكتب العربية والفرنسية ، ولا سيما « تقويم البلدان » لأبى الفداء و « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » . وكذلك يحدثنا رفاعة من خلال الكتب عن « البحر المالح المتصل بثغر إسكندرية » وعن جزيرتى كريت وصقلية وجبل إتنا وأحوال البراكين . إن كل شىء جديد عليه ، من هذه البارجة الفرنسية التى تدهشه نظافتها إلى إجراء الحجر الصحى على ركابها . وفى مياه مسينا ، حيث ترسو السفينة خمسة أيام دون أن يؤذن لهم بالنزول يروق رفاعة أن ينظر إلى المدينة البيضاء وهى توقد مصابيحها فى المساء ، وأن يشنّف سمعه بتوقيع أجراس كنائسها ، دون تزمّت ، بل يأخذه الطرب ذات ليلة فيحاول التعبير عن أثر الموسيقى الجميلة فى نفسه ، وينظم وهو يسمر « مع بعض الظرفاء » من زملائه ، أبياتاً رقيقة يتغنّى فيها بحبيب مجهول يصبو إليه ، وينتشى من سحر عينيه .

وتهبّ على السفينة رياح مضادّة لاتجاهها ، فتردّها إلى « نابولى » بعد أن كانت قد جاوزتها فى عرض البحر . فإذا

استأنفت ملاحتها رأى رفاعة جزيرة كورسكا - التى يسميها « قرس » قبل أن يترجل على أرض مرسيليا . وقد استغرقت الرحلة ثلاثة وثلاثين يومًا .

وأما بقية الرحلة إلى باريس فهى مادة « المقالة الثانية » . لم يدخل المبعوثون مباشرةً مدينة مرسيليا وإنما أنزلوا فى بيت خارجها للحجر الصحى أقاموا فيه ثمانية عشر يومًا . وهل « الكرنتينة » مما يوجبه الشرع أو مما يحرمه ؟ لعلها « من جملة الفرار من القضاء » كما يقول بعض الفقهاء . على أن رفاعة - فى اعتدال وحذر - يورد محاورة أنصار « الكرنتينة » وخصومها ، دون أن يفصل فى المشكلة برأى شخصى . ويبدأ المبعوثون فى الكشف عن العادات الفرنسية ، فيدهشهم ما يرون من بسائط الحياة اليومية ، يدهشهم الجلوس على الكراسى والنوم على أسرة مرتفعة عن الأرض ، وطريقة إعداد المائدة ، ونظام تتابع الأطعمة ، واصطناع الشوكة والسكين فى تناولها ، وانفراد كل آكل بأدواته تلك ، وكونه لا يشاركه فى استخدامها جاره القريب أو البعيد ... ومكث المبعوثون فى مرسيليا خمسين يومًا أخرى فى انتظار نقلهم إلى باريس . أقاموا فى بيت كبير بإحدى ضواحيها ، وشرعوا فى تعلم مبادئ قراءة اللغة الفرنسية . وكانوا يخرجون للنزهة فى وسط المدينة . ويعجب رفاعة باتساع الشوراع ، وبضخامة الأبنية ، وبأناقة « العربات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل

وأطراف النهار تقرقع » ، ويشتد عجبه إذ يشاهد النساء سافرات يعملن فى المتاجر كالرجال ! إنها امرأة تلك التى تدير ذلك المقهى الفاخر الذى دخله مع أصحابه ، فرأى القوم يطالعون الصحف – لأول مرة – وخيل إليه طويلاً وهو بين المرايا المثبتة على الجانبين المتوازيين أنه فى طريق عام مزدحم بالحركة والناس ! ويلتقى رفاعة فى جولاته ببعض المهاجرين المصريين الذين استقروا فى مرسيليا ، ويسمع ما يروونه له من أخبار المصرية التى تزوجها القائد الفرنسى « عبد الله مينو » و « عبد العال » الذى تزوج فرنسية .

والفصل الثانى من هذه المقالة فصل قصير جدا « فى الخروج من مرسيليا إلى دخول باريس » ، ينوّه فيه رفاعة بالعربات الكبيرة التى يستقلّها المسافرون أيامًا متواصلة ، ولا يشعرون فيها بدوار البحر ، والتى تحطّ بهم فى آخر كل مرحلة أمام فنادق « فى غاية النظافة والظرافة » . وفى فندق بمدينة « ليون » يستريح الركب اثنتى عشرة ساعة ، ولا يتاح لرحالتنا أن يرى من تلك المدينة إلّا ما تطلّ عليه نافذته . وفى ختام الأسبوع تصل العربة إلى باريس . ولا يفوت رفاعة أن يصف جمال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، تظله « الأشجار المرصوصة بوجه مرتّب مطّرد » ، كما لا يفوته أن يصف جمال نساء الريف ، وما يمتزن به على الباريسيات من صفاء البدن والحسن الطبيعى .

والمقالة الثالثة – « فى دخول باريس وذكر جميع ما شهدناه

وبلغنا خبره من أحوال هذه المدينة » - هى أطول مقالات الكتاب ، وتنقسم إلى ثلاثة عشر فصلاً .

يعالج الفصل الأوّل « تخطيط باريس من جهة وضعها الجغرافى وطبيعة أرضها ومزاج إقليمها وقطرها » . وينظر رفاعة قبل كل شىء فى لفظة « باريس » فيشرح أصلها ، وكيف ينبغى أن تنطق باللغة العربية . ويستطرد بعد ذلك ، لتحديد موقع باريس ، إلى درس عن خطوط الطول وخطوط العرض ، استقاه بلا شك من كتاب فى مبادئ الجغرافية الفلكية . وهو يحسّ بأنه يستدرج القارئ خارج الموضوع ، فيعتذر بأن فى استطراده هذا معلومات جديدة مفيدة . ويشبّه رفاعة تقلب الجوّ فى باريس بتقلّب طباع أهلها . فما أكثر ما تفجؤك العاصفة فتنغص عليك نزهتك ! وقد حدد المناخ المطير هناك شكل المبانى المنحدرة السقوف ، وشكل الشوارع « المبلطة بالحجر » المزوّدة بمجارٍ تحمل الماء إلى البالوعات . ويصف رفاعة أنواع المدافئ التى يوقدها الفرنسيون لاتقاء برد الشتاء . ويعجبه خصب الأرض التى تهب البيوت بساتين وافرة الثمر ، متنوعة الشجر ، فقد يغرس الفرنسيون بها أشجارًا من غير نبات منطقتهم كالنخل ، رغم قول القزوينى عن النخيل فى كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » إنه « شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنها لا تنبت إلّا فى بلاد الإسلام » ! ... ويفضل رفاعة ماء النيل على ماء « السين » ، والنزهة فى الروضة

والمقياس على النزهة فى جزيرة « السيته » . وهو يتغنى بحنينه إلى مصر فى قصيدة متكلفة ركيكة ، استهلها بالنسيب وحاكى فيها شعر المديح التقليدى ، وحيّا رجال الأزهر والوالى . وقد لا تظهر روعة وطنيته فى هذه القصيدة الفاترة ، بقدر ما تظهر فى حرصه على اقتباس كل ما يراه نافعًا لبلاده ، مثل تلك العربة التى تجرها الجياد بينما تنفتح ثقوب دنّها الملىء بالماء لرش الشوارع والميادين . وبعد أن يحصى رفاعة قناطر نهر « السين » ، والطبقات الجيولوجية التى تتكون منها أرض باريس ، يذكر عدد « الفسحات » أى الميادين التى تشبه « فسحة الرميلة بالقاهرة – فى مجرد الاتساع لا فى الوساخة » – وعدد أبواب المدينة الخارجية ، وعدد قنواتها وصهاريجها ، وعدد سكانها – وهم يبلغون « فوق مليون من الأنفس » ويتزايدون باطراد ، وتتسع دائرة عمرانهم « لإعانة ملوكهم على ذلك » .

والفصل الثانى فصل شائق « فى الكلام على أهل باريس » – لقد عرف رفاعة شدّة ذكائهم ، وتأصّل الثقافة فيهم ، وتوقهم إلى الفهم والاستطلاع ، والوقوف على كل طريف ، وولعهم بالصيت ودوام الذكر أكثر من تهافتهم على الكسب . وعرف نشاطهم الجم ، وخفّة حركاتهم ، وتقلّب مزاجهم وعواطفهم ، وإن كانت آراؤهم فى جدّ الأمور رصينة ثابتة . إنهم قوم يحبّون وطنهم ، ويكثرون مع ذلك من الرحلات ويحتفون بالأجانب . وهم يحرصون إلى حد التقتير ،

إلّا أنهم يبذرون المال فى طلب اللهو . ويتفننون فى اللهو ، ولكنهم يعملون فيتقنون عملهم . وقد يدفعهم الاعتزاز بالنفس إلى هاوية الانتحار دون أن يذعنوا للقدر ، ولو أنهم أوفياء للعهد ، يحفظون الجميل ويؤدون الواجب . ومن الغريب أن الرجال عندهم عبيد النساء ، يثقون بهن ، ويدلّلوهن ، ثم يلجئون فى خيانة العرض إلى ساحة القضاء بدلاً من أن يثأروا ثأرًا شخصيا . ويعجب رفاعة بعدم وجود الغزل بالمذكر فى أشعارهم . غير أنه يأخذ على النساء قلّة العفاف ، وعلى الرجال قلّة الغيرة ، وإن كان يرى أن اضطراب الأخلاق نتيجة اجتماعية طبيعية لبيئة المدن الكبيرة بوجه عام . وأما عن عقائدهم ، فهى تقدمية تطورية ، يؤمنون بالعقل ويرفضون مالا يقبله العقل من الخوارق ، ويقولون إن الحضارة فى المجتمع الراقى تؤدى دور الدين فى المجتمع البدائى . ويستنكر رفاعة إنكار بعضهم القضاء والقدر . ثم يصف مظهرهم ، من بياض البشرة – لعدم اختلاطهم بالزنوج – إلى رقة نسائهم اللطيفات ، اللواتى يشاطرن الرجال متعة النزهة والرقص .

ولما كانت لغة الباريسيين هى الفرنسية ، فقد ختم رفاعة هذا الفصل بحديث عن مزايا هذه اللغة ، مقارناً لها باللغة العربية ، وعن فضل بعض من تعرف بهم من المستشرقين . فاللغة الفرنسية واسعة المجال غنية بالمعانى « لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية

اللفظية » ، وترجع هذه الثروة اللغوية إلى كثرة ما استعاره الفرنسيون من اللغات الأخرى لإكمال مصطلحاتهم ولا سيما فى العلوم . وأما جمال الأسلوب لديهم فلا يقوم على الجناس والتورية « فهى من هزليات أدبائهم » ، وربما عدّ ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس » . ويبدو لرفاعة أن « اصطلاح اللغة الفرنسية تقليل التصريف ما أمكن وتصريف الفعل مع فعل آخر » . ولكن لكل لغة كيانها ، نحوها وخطها وبيانها « فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك » . ويستطرد رفاعة إلى ذكر « علوم العربية » الاثنى عشر ، فينقد تصنيفها ، وينفى نسبتها إلى اللغة العربية وحدها .

ويشهد هذا النقد وتشهد تلك المقارنات باتساع أفق الطالب الأزهرى القديم . لقد اكتسب معنى النسبية ، وأيقن أن « العلم هو الملكة » لا مجموعة المتون المحدودة التى يستظهرها الحافظ ويعيدها . ولا أدلّ على ذلك من أن العالم بلغة من اللغات ، كاللاتينية مثلاً « له إدراك فى النحو فى حدّ ذاته ... فمن الجهل أن يقال إنه لا يعرف شيئاً بدليل جهله باللغة العربية » . ألم يجالس ويناقش المستشرق الفحل « سيلفستر دى ساسى » Silvestre de Sacy ؟ ألم يقرأ شرحه لمقامات الحريرى ، وكتبه التى ألّفها فى النحو « على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا » ؟ إن رفاعة يشبِّه هذا العلامة بالفيلسوف الفارابى ، ويستنكر « ما يتراءى من أن

الأعاجم لا تفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب ؛ فهذا لا أصل له » .

ويستطرد إلى سرد ترجمة لحياة الفارابى فيروى بعض نوادره وأبياتا من شعره ، مما ينسينا أننا مازلنا نقرأ فصلاً عن « أهل باريس » . ثم يشيد رفاعة بتغلغل العلم فى جميع شعاب الحياة الفرنسية ، حتى لدى الطباخين والسوقة ! وللنساء فى التأليف والترجمة نصيب ملحوظ ، وفضل ثابت ، وهذا شىء جديد يسجله الصعيدى الرحالة ، ويدفعه إلى تغيير رأيه فى المرأة . لقد قرأ رسائل « مدام دى سفينيه » ، وأيقن أن للمرأة مكانًا فى الحياة الفكرية ينبغى أن تشغله . وأما الآداب الفرنسية « فلا بأس بها » ، ولكن رفاعة لا يقر جرى الشعراء على « عادة جاهلية اليونان وتأليههم ما يستحسنونه » ، إذ يقولون مثلا إله العشق ! وإله الجمال ! « فألفاظهم فى بعض الأحيان كفرية صريحة ، وإن كانوا لا يعتقدون ما يقولون » . ويحاول رفاعة أن يتحفنا بشىء من الشعر الفرنسى ، ترجمه هو إلى شعر عربى ، فإذا بترجمته عسيرة متكلفة ، إلا أنها أفادته تمرينًا وممارسة وصقلاً ، وعلمته أن « هذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها فلا تظهر علوّ نفس صاحبها ، ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الأفرنجية من غير أن يذهب

حسنها بل وربما صارت باردة » . ولا شك أن ذلك كان نواة لشعور إمام المترجمين المحدثين بصعوبات الترجمة ، ولا سيما ترجمة النصوص الأدبية الممتازة .

وفى الفصل الثالث ، يحدّث رفاعة مواطنيه عن الحكومة الفرنسية ، « ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر » . إنه معجب بالنظام الديمقراطى حيث يدافع عن الملك « ديوان البير » أى (مجلس الأعيان) ويدافع عن الشعب (مجلس النواب) أو « ديوان رسل العمالات » كما يسميه ، ويرى فى هذا التوزيع ذكاءً وإصابة وكفالة للعدالة « بنكتة لطيفة » !

وبعد أن يستعرض أجهزة الحكومة المختلفة ، يثنى على الدستور الفرنسى « وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم » ، ويحرص على ترجمة مواده « لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلمًا أبداً ، والعدل أساس العمران » .

ولا يكتفى رفاعة بالترجمة ، بل يعلّق على المواد الرئيسية . إنه يشيد أوّلاً بالمساواة بين « سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع .. حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه

الحكم كغيره . فانظر إلى هذه المادة الأولى ، فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرًا إلى إجراء الأحكام ! » .. ويرى رفاعة أن هذه المادة من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية . فإن « ما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف ، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام بحيث لا يجور الحاكم على إنسان . بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة . فهذه البلاد حرية » . وتلك شجون مصرى استنار فى عهد محمد على فأحس باستبداد الوالى . ولا تدلّ وجهة نظره – فى جعل « الحرية » مرادفة « للعدل والإنصاف » – إلّا على أن الشعب فى فرنسا هو الحاكم وفى مصر هو المحكوم !

ويشيد رفاعة بالعدل فى تحديد الضرائب وبالنزاهة فى تحصيلها ، « بحيث أنها تؤخذ بكيفية لا تضرّ المعطى وتنفع بيت مالهم خصوصًا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة » . كما يشيد بتشجيع الكفايات أينما ظهرت ، إذ أن لكل أمرئ هناك الحق فى أن يتولّى أىّ منصب تؤهله له جدارته ، وأن يصل إلى أى رتبة يرفعه إليها علمه وعمله .

ثم يسهب فى الحديث عن مبدأ حرية الرأى والنشر الذى لولاه لما استطاعت الصحافة أن تؤدّى رسالتها الجليلة : « وأما المادة الثامنة فإنها تقوّى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما

يخطر بباله مما لا يضرّ غيره ، فيعلم الإنسان سائر ما فى نفس صاحبه ، خصوصًا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات ، فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية . وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى ، إلا أنها تتضمن أخباراً تتشوّف نفس الإنسان إلى العلم بها . على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة » .

ويضيف رفاعة إلى هذا الفصل الخطير ترجمة ما أدخل على الدستور من تعديلات بعد ثورة سنة ١٨٣٠ ضد الملك شارل العاشر .

ويتناول الفصل الرابع « عادة سكنى أهل باريس » . وفيه يحدثنا رفاعة عن المواد التى يستخدمها الفرنسيون فى البناء ، وكيف يكسون جدران الغرف بورق منقوش ، وأرضها بخشب مصقول . ويصف ما يشمله البيت من مختلف الأثاث :

« وتحت أسرتهم - المكسوة بالمخيشات وبالمشجرات وغيرها - سجادات عظيمة يطؤونها بالنعال . وفى كل « أوضة » مدخنة للنار .. وفى غالب أوضهم آلة الموسيقى المسماة « البيانو » . فإذا كانت الأوضة أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس أو غيرهما . وأغلب الأوض مشحون بالصور خصوصًا

صور الأقارب . وفى أوضة الشغل أيضًا قد توجد صور عجيبة وأشياء من غرائب ما كان عند القدماء على اختلافهم . وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق الوقائع على اختلاف أجناسها . وربما رأيت كذلك فى أوض الأكابر النجفات العظيمة التى توقد بشموع العسل . وربما رأيت فى أوضهم - فى يوم تلقى الناس - طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرهما لتسلية من أراد من الضيوف أن يسرح ناظره وينزّه خاطره فى قراءة هذه الأشياء . وهذا يدلّ على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب ، فهى أنسهم » .

ثم يقارن هذ المجتمع - فى حسرة وسخرية - بالمجتمع المصرى المحروم من وجود المرأة : « ثم أن جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت - أى زوجة صاحبه - التى تحيّى الضيوف أصالة وزوجها يحييهم بالتبعية . فأين هذه الأوض بما احتوت عليه من اللطائف ، من أوضنا التى يحيى فيها الإنسان بإعطاء شبق الدخان من يد خادم فى الغالب أسود اللون ؟ » .

ويصنف الدور ، حسب أحجامها ومستواها من الترف ، إلى ثلاث مراتب ، ويشرح وظيفة البواب ، ويذكر أثمان العقارات وغلاء إيجار المساكن . ثم يصحبنا إلى زيارة « حريم ملك فرنسا » ، حيث يقدر الأشياء بدرجة ما يتجلّى فى صناعتها من فنّ لا بقيمة مادتها الأولية ، مما يدلنا على تطوّر شخصيته وارتقاء ذوقه :

« ومن العوايد التى لا بأس بها أن قصر ملك فرنسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كلّ سنة للإقامة فى الخلاء مدة أشهر . فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه .. ولكن لا يدخل أحد إلّا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الإذن بدخول شخص أو شخصين أو أكثر .. فترى فى البيت ازدحامًا عظيمًا للفرجة على جميع ما فى حريم الملك وأقاربه . وقد دخلت ذلك عدة مرّات فرأيته من الأمور العجيبة التى ينبغى التفرج عليها . وفيه كثير من الصور التى لا تمتاز عن الناس إلّا بعدم النطق . وفيه صور كثير من ملوك فرنسا وغيرهم ، وكل أقارب السلطة » .

وأغنياء باريس يقيمون فيها أثناء الشتاء ، أما فى الصيف فيهجرون حرّها ، وينزحون إلى بيوتهم الريفية . والجميع مولعون بالرحلات ، حتى النساء « خصوصًا فى مدة من السنة تسمّى عندهم مدّة التعطيل » . ويختم رفاعة هذا الفصل بمدح نظافة الفرنسيين ووسائلهم إليها .

والفصل الخامس « فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب » . فخبزهم من الحنطة ، يطحنونها فى طواحين الهواء والماء ، ويخبزها الفرّان فيبتاعونها من دكانه ؛ لأن الفرنسيين يشغلون أيامهم بما هو أهم من صناعة الخبز فى بيوتهم كما اعتاد الناس فى مصر . والأطعمة متنوعة ، ولو عند الفقراء . ويهتم الشيخ الإمام بطريقة ذبح ما يؤكل لحمه . وله هنا وصف شائق

لطريقة ذبحهم للماشية ، وهو وصف لم يخل من فكاهة .

« ثم أن المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لا داخلها . وحكمة ذلك أمران : دفع الوخم ، ودفع أضرار البهائم إذا انفلتت . وكيفية الذبح تختلف عندهم . فأما ذبح الضأن فإنه أهون من ذبح غيره ، فإنهم ينفذون السكين وراء زوره (أى حلقه) يعنى بين زوره ورقبته ثم يقطعونه بعكس ما نفعل . وأما ذبح العجول فإنه مثله . وأما الثيران فيضربونها بمقامع من حديد فى وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ، ثم يكررون ذلك عدة مرات فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة . ثم يذبحونه كما تقدم من ذبح الضأن . ولقد بعثت خادمًا لى مصريا إلى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتى ، فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الأمر البشع جاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثوراً فى بلاد الإفرنج وإلا ذاق العذاب كالثيران التى رآها » !

على أن هناك المطاعم « الرسطوراطورات » – وهى أماكن فاخرة ، أكثر استعداداً من البيوت لتقديم المأكل والمشرب ، وتوفر راحة الباريسيين . ويعود رفاعة إلى وصف المائدة وآدابها وترتيب قائمة الطعام ، مندهشاً من إقلال الفرنسيين من شرب الخمر ، ومن عدم التغنى بها كشعراء العرب المتفننين فى الخمريات ! تلى ذلك أرقام وإحصاءات عن المواد الغذائية التى يستهلكها سكان باريس . وتثير صناعة المأكولات المحفوظة إعجاب رفاعة ، إلّا أنه – رغم

شهرة الفطائر الفرنسية – لا يكاد يحب أطعمة الفرنسيين . ويروى فى ختام الفصل ما وقع له ذات ليلة مع سكير خارج من إحدى « الخمارات » :

« وأما خمّاراتها فإنها لا تحصى . فما من حارة إلّا وهى مشحونة بهذه الخمارات . ولا يجتمع فيها إلّا أراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم . ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه « الشراب .. الشراب » . ومع ذلك فلا يقع منهم فى سكرهم أضرار أصلاً . وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مارّ فى طريق فى باريس ، أن « سكران » صاح قائلاً : « يا تركى .. يا تركى ! » وقبض بثيابى . وكنت قريباً من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه ، وأجلسته على كرسى وقلت لرب الحانوت على سبيل المزح : « هل تريد أن تعطينى بثمن هذا الرجل سكراً أو نقلا ؟ » . فقال صاحب الحانوت : « ليس هنا مثل بلادكم يجوز التصرف فى النوع الإنسانى » . فما كان جوابى له إلّا أننى قلت : « إن هذا الشخص السكران ليس فى هذا الحال من قبيل الآدميين » .

وهذا كله والرجل جالس على الكرسى ولا يشعر بشىء . ثم تركته بهذا المحل وذهبت » .

وفى الفصل السادس عن « ملابس الفرنسيس » يثنى رفاعة على « لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فإن الموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات ؛ وبهذا يستعينون على قطع

عرق الواغش » . ويشير رفاعة إلى هندام الرجال ، ولكنه يطنب فى وصف ملابس النساء ويستحسنها :

« وملابس النساء – فى بلاد الفرنسيس – لطيفة ، بها نوع من الخلاعة ، خصوصًا إذا تزينَّ بأغلى ما عليهن . ولكن ليس لهن كثير من الحلى ، فإن حليهن هو الحلق المذهب فى آذانهن ونوع من الأساور الذهب يلبسنه فى أيديهن خارج الأكمام ، وعقد خفيف فى أجيادهن . وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبداً . ولبسهن فى العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو الشيت أو البفت الخفيف . ولهن فى البرد شريط فروة يضعنه على رقابهن ويرخين طرفيه كالمآزر حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين . ومن عوايدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن ، حتى يظهر الخصر نحيفاً ويبرز الردف كثيفًا . ومن العجائب أنه يمكن الإنسان أن يضع يديه فى الخصر – وقت الحزام – فترى يديه لدقته . ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيباً من صفيح من البطن إلى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج به . ولهن كثير من الحيل . ومن خصالهن التى لا يمكن للإنسان أن يستحسنها منهن ، عدم إرخائهن الشعور كعادة نساء العرب ، فإن الفرنسيس يجمعن الشعور فى وسط رؤوسهن ، ويضعن فيه دائمًا مشطًا ونحوه . ومن عوايدهن فى أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن، فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدى ، حتى أنه يمكن أن يظهر ظهرهن . وفى ليالى الرقص

يخلعن عن أذرعتهن . وبالجملة فلا يعدّ ذلك من الأمور المخلّة عند أهل هذه البلاد . ولكن لا يمكن لهن أبدًا كشف شيء من الرجلين ، بل هن دائمًا لابسات للشرابات الساترة للساقين . خصوصًا فى الخروج إلى الطرق . وفى الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلا » .

ويستعرض رفاعة علامات الحداد السوداء ، ومتى وإلى أىّ مدى يحملها أصحابها فى كل مناسبة ، وعادة التحلّى بالشعور المستعارة .

والفصل السابع تقرير ثمين عن الملاهى فى باريس ، يعرف القارئ بالمسرح ، وبرسالته الثقافية والأخلاقية . وبرغم إملاق اللغة العربية يومئذ من الألفاظ والمصطلحات الفنية اللازمة لتسمية ما يضمه المسرح ، لا يحجم رفاعة عن وصف قاعة التمثيل ، ومراحل « اللعب » ويشبّه اللاعبين واللاعبات « بالعوالم » . إن هذه الصفحة الساذجة لوثيقة هامّة يؤرخ بها دخول المسرح الحديث إلى الأدب العربى المعاصر .

ويعدّد رفاعة أنواع « التياتر » و « السبكتاكل » الباريسية ، من الأوبرا إلى السرك . ثم يتحدث عن لون آخر من اللهو وهو « البال » أى حفلة الرقص :

« والبال قسمان : بال عام ، ويدخله سائر الناس – كالبال فى القهاوى والبساتين – وبال خاص ، وهو أن يدعو الإنسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ، كالفرح فى مصر . والبال دائمًا مشتمل على الرجال والنساء . وفيه وقدات عظيمة وكراسى

للجلوس . والغالب أن الجلوس للنساء ، ولا يجلس أحد من الرجال إلّا إذا اكتفت النساء . وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن ثم كرسى خال ، قام لها رجل وأجلسها . ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ، فالأنثى دائمًا فى المجالس معظمة أكثر من الرجل » ...

ولا يفوته أن ينبّه قارئه إلى جمال هذه الرقصات التى يشترك فيها الرجال والسيدات ، وهم جميعاً فى أفخر حللهم وزينتهم ، وكأنهم يؤدون حركات رياضية مهذبة راقية ، على حين بات الرقص فى مصر وسيلة لتهييج الشهوات : « وقد قلنا إن الرقص عندهم فنّ من الفنون . وقد أشار إليه المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب ، فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها إلى بعض . فليس كل قوى يعرف المصارعة بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم .. وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شىء واحد يعرف بالتأمل . ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس ، وكأنه نوع من « العياقة » و « الشلبنة » لا من الفسق .. فلذلك كان دائمًا غير خارج عن قوانين الحياء بخلاف الرقص فى أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات » .

ويختم رفاعة هذا الفصل بجولة فى حدائق باريس ، من « الشانزليزيه » إلى الشوارع الكبرى « البولفار » حيث يتنزه العشاق ليلًا ، وبأخذه الطرب ، فيخرج من أعماق ذاكرته أبياتًا

من الشعر القديم عن الليل والغرام .

ويتدرج المؤلف من هذا الفصل إلى الفصل التالى بعبارة بارعة : « وبالجملة فلا يمكن أن الإنسان يتمتع بهذه المتنزهات إلّا بصحة البدن » . ذلك أنه يريد أن يشرح لنا الآن « سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس » . غير أنه لا يكاد يذكر تحت هذا العنوان إلّا الحمامات ، مقارنا لها بحمامات مصر ، ومدارس الرياضة البدنية . وأما الحديث عن الطب ، وما بلغته فيه باريس من تقدم ، فهو موضوع الفصل التاسع الطويل .

ويضيف رفاعة إلى هذا الفصل « نبذة » فى الطرق الطبيعية للعناية بالصحة ، يوجهها إلى صحاح البدن وإلى المرضى وإلى الناقهين ويعنونها « نصيحة الطبيب » ، وهى ترجمة لكتيب شعبى من نشرات بعض الهيئات الطبية الفرنسية .

ونعود فى الفصل العاشر أيضًا - « فى فعل الخير بمدينة باريس » - إلى ذكر مختلف المستشفيات . ثم يتحدث رفاعة عن الجمعيات الخيرية ، وعن ملاجئ اللقطاء والأيتام ، والعمى . والشيوخ ، وجرحى الحرب ، وعن « دواوين الإحسان » أى المكاتب التى تتولى إعانة المحتاجين وإغاثة المنكوبين ، وعن مراكز إسعاف المصابين . وفى هذه المنظمات ما يعوّض المجتمع عن بخل الفرنسيين أفرداً ، فإن الجود شيمة العرب .

والفصل الحادى عشر « فى كسب مدينة باريس ومهارتها » . إن

حب العمل والسعى إلى الكسب ، متأصلان فى نفوس هؤلاء الناس « حتى إن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذمّ هى لفظة الكسل والتنبلة » . ويستعرض رفاعة تجاراتهم ، وأوّلها « معاملات الصيارفة » أى البنوك - « صيارفة الدولة أو الميرى ، وصيارفة باريس » . ثم يعرف بشركات التأمين ، وهو يسميها « جمعية الشركاء فى الضمانة » .

ويعدّد أنواع المصانع ، وفوائد المعارض ، والمواد التى يدرسها الطلبة فى معاهد التجارة . ومما يساعد على رواج التجارة ، تيسير وسائل المواصلات ، وانتظام البريد ، ودعاية الصحف للسلع أو توزيع الإعلانات عنها .

وكانت عربات « الأومنيبوس » جديدة فنوّه بها رفاعة : « وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى « الأمنيبوسة » ، ومعناها « لكل الخلق » وهى عربات كبيرة تسع كثيرًا من الخلق مكتوب على بابها أنها تمشى إلى الحارة الفلانية ، فكل الناس الذاهبين إلى حارة واحدة يركبونها ويدفع كل منهم قدرًا معيّنا » .

ويشرح رفاعة لقارئه فى كثير من البساطة ما هو البريد : « وأما البريد المسمى عند الفرنسيين « البسطة » ، فإنه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها . يسهل فيه إخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلاً ويأتى ردّها فى أسرع ما يكون . وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن . فإن المكاتيب

التى تبعث فى البلد أو العمالة ، تصل إلى صاحبها من غير شك ، لأن سائر البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى النمرة ، فبها يمتاز البيت عما عداه . والمكتوب الذى يبعثه الإنسان ، تضعه فى محل المكاتيب الموضوع فى كل حارة ، فيأتى الساعى ويأخذه ، فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى ويأتى ردّه فى يومه . ثم إن الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الإمكان ، فلا يمكن الإنسان أن يفتح مكتوبًا معنويا باسم آخر ولو كان متهمًا بشىء .. ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه الحالة . كثرت الرسائل بين الأحباب والأصحاب » .

ولقد فطن الفرنسيون إلى أن الاقتصاد من أهم قواعد الثروة الفردية والوطنية . واشتدّ اهتمامهم بالتوفير و «وتدبير المصاريف » حتى جعلوا من الاقتصاد علمًا ذا مقدمات ونتائج . ولا يفوت الصعيدى الذكى أن يتهكم على المسرفين من مواطنيه قائلا : « ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف ، حتى أنهم دونوه وجعلوه علمًا متفرعًا من تدبير الأمور الملكية . ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى . فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف . فإن الوزير مثلاً ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادمًا ، وإذا مشى فى الطريق لا تعرفه من غيره ، فإنه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجه . فانظر

الفرق بين باريس ومصر حيث أن العسكرى فى مصر له عدة خدم » .

والفصل الثانى عشر « فى دين أهل باريس » . والفرنسيون ، فيما عدا قليل من اليهود والبروتستانت ، يدينون « بالنصرانية القاثوليقية » ، وفى أكثر الأحيان « ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم فهم داخلون فى اسم الكتابيين فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه » . بل ومن الفرنسيين من ينكر العقائد ، ولا يؤمن إلّا بما يقبله العقل ، ويقاطع رجال الكنيسة ويرميهم بالجهل . ومن أحاديث هؤلاء المنصرفين عن الروحانيات استقى رفاعة ما يقال عادة فى ذمّ القسيسين ممن لا يؤذن لهم بالزواج « فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقًا على فسقهم » ، وممن يقومون فى بعض الأعياد بمواكب دينية غريبة « من باب الهوس » . ويشرح رفاعة لقارئه « درجة القسيسية » من الكردينال إلى الشماس . وقد عرض رفاعة مخطوط كتابه على المستشرق سيلفستر دى ساسى ، فعلق على هذا الجزء مصححًا تعميمه بنظرات أدقّ ، مكملًا اللوحة بما غاب عن بصر الشيخ الإمام من التفاصيل ، ونشر رفاعة تعليق دى ساسى فى الفصل نفسه ، فكان نشره مثالًا لاعتزازه بحرية الرأى :

« قولك إن الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وأنهم ليسوا نصارى إلّا بالاسم ، فيه نظر ، نعم ، إن كثيرًا من الفرنساوى خصوصًا من سكان باريس ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط ،

تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ، ولكن فيهم أيضًا من يقيم على دين آبائه ، يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل الصالحات . وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب » .

والفصل الثالث عشر فصل طويل عن « تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع » ، يحرص فيه المبعوث على نقل صورة وافية عن الحياة الفكرية فى العاصمة الفرنسية . إنه معجب إعجابًا لا حدّ له بالعلوم التجريبية ونتائجها المحققة بفضل الأجهزة والمعامل المتخصصة ، ولكنه يحذّر قارئه المؤمن من « الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شىء من الفلسفة » لأن لهم « فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردّها » . ترى إلى أية قضية علمية يشير رفاعة ؟ إن كتاب « تخليص الإبريز » المطبوع قد حذف تتمة هذه العبارة التى نجدها فى المخطوط : « كالقول بدوران الأرض ونحوه » .

على أن اللغة الفرنسية بوضوحها ودقتها ، وتوفيرها على الأسلوب عناء التطبيقات البلاغية التى تعوق تيار الفكر لدى المعبّر باللغة العربية ، قد أصبحت أداة مثالية للبحوث العلمية . وما أصدق هذه الشكوى بقلم خريج الأزهر القديم ! وبفضل بساطة اللغة ، نجد الفرنسيين أصحاب ثقافة يدهشك اتساعها ، وتجد

« الصغير الذى خرج من سن الطفولية » ذا استعداد تام لتلقى المعرفة وتحصيلها . ويقارن رفاعة بين علماء باريس ، الذين يتوّجون دراساتهم العامة الطويلة بالتخصص فى فرع واحد يبتكرون فيه بحثًا جديداً ، وبين علماء الأزهر الذين يحصرون العلم فى دائرة المواد الشرعية . ويبين كيف أدّى هذا التضييق إلى إملاق المدارس العربية من العلم بمعناه الحديث . وإنها لصفحة جريئة يريد أن يفتح بها رفاعة أعين معاصريه :

« وأما علماؤهم فإنهم منزع آخر لتعلمهم تعلمًا تامًّا عدة أمور واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص ، وكشفهم كثيرًا من الأشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها . فإن هذه عندهم هى أوصاف العالم . وليس عندهم كل مدرس عالما ولا كل مؤلف علامة بل لابد له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم إلّا بعد استيفائها والارتقاء . ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس ، لأن القسوس إنما هم علماء فى الدين فقط . وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا . وأما من يطلق عليه اسم العالم ، فهو من له معرفة فى العلوم العقلية التى من جملتها علم الأحكام والسياسات . فإذا قيل فى فرنسا : « هذا الإنسان عالم » ، لا يفهم منه أنه عالم فى دينه ، بل أنه يعرف علمًا من العلوم الأخرى . وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها ، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بنى

أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك ، كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية ، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية . والعلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم فهى دائمًا فى الزيادة . فإنها لا تمضى سنة إلّا ويكشفون شيئًا جديدًا . فإنهم قد يكشفون فى السنة عدة فنون جديدة أو وسايط أو تكميلات » ..

ثم يستعرض دور الثقافة والتعليم ، من المكتبات العامة والخاصة، إلى متاحف النبات والحيوان والجيولوجيا . ومن المرصد إلى « الأكاديميات » المختلفة ، والكليات والمدارس و « البنسيونات » . ويشتدّ إعجاب رفاعة بنشاط تجارة الكتب ، وبكثرة المنشورات والدوريات . ويعود إلى ذكر فوائد الصحف ، فإنه يكتشف الصحافة اكتشافا :

« ومن الأشياء التى يستفيد منها الإنسان كثير الفوائد الشاردة ، التذاكر اليومية المسماة « الجرنالات » جمع جرنال .. وهى ورقات تطبع كل يوم وتذكر كل ما وصل إليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة ، وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى . وهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنًا أو قبيحًا وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ما لم تضرّ بذلك ، فإنه يحكم عليها وتطلب بين يدى القاضى ...

ولا يوجد فى الدنيا أكذب من الجرنالات أبدًا ، خصوصًا عند الفرنسيين الذين لا يتحاشون الكذب إلا من حيث كونه عيبًا ، وبالجملة فكتاب « الجرنو » - أى الصحف - أسوأ حالاً من الشعراء عند تحاملهم أو محبتهم . والجرنالات مختلفة الأنواع والأصناف ، فمنها ما هو معد لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها ، ومنها ما هو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات ، وما هو للطب ، ولكل علم على حدته كعلم الطب إلى آخره » .

وفى المقالة الرابعة يعرف رفاعة قارئه بالثقافة التى حصلها فى باريس وبمراحل دراسته وامتحاناته ونظام البعثة . ففى الفصل الأوّل من هذه المقالة يذكر ذلك الكتاب الصغير المبسّط المصوّر ، الذى تعلم فيه مبادئ قراءة اللغة الفرنسية بتقطيع الألفاظ ، ويثنى على منهجه التربوى ، « فهذه الطريقة يتعلم الإنسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمات وينطق بها كما ينبغى ، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة . ثم بعدها تلقى فى هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل تناسب الصغار » .

ثم يسجل البرنامج الذى اتبعه المبعوثون مدّة عام تقريبًا فى « بيت الأفندية » ، قبل أن يتفرقوا فى عدة « بنسيونات » ، يخالطون فيها التلاميذ الفرنسيين ليتقدموا فى اللغة ويفيدوا من الدروس . ويذكر كيف أن المبعوثين كانوا يمنحون « بثلثمائة قرش

خشب للتدفى بها » فى السنة ، لشدّة البرد ، فضلاً عن أنه « كان يشترى لنا من طرف الميرى أيضًا القمصان والسراويل والنعال ، وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها . ومما ينبغى ذكره أيضا ما كان يعطى للحكماء والأجزاجية فى مداواة من كان يمرض منّا ... ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به فى أغلب الأوقات لنجتهد » .

وفى الفصل الثانى – وعنوانه « فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج » – يسرد رفاعة مواد اللائحة التى وضعها المشرفون على البعثة . وفى الفصل الثالث ، يورد مثلاً من الخطابات التى كان يرسلها محمد على إلى هؤلاء الطلبة فى باريس ، مترجمًا من اللغة التركية « فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية إحياء القلوب ، ومنها ما كان من باب التوبيخ » ، كما يورد ترجمة لرسالة إليه من جومار مدير البعثة يعترف فيها باجتهاده وثمرة تحصيله . ويواصل رفاعة نشر الرسائل ، فيوافينا فى الفصل الرابع بما كتبه إليه المستشرقان « سيلفستر دى ساسى » وكوسان دى برسفال Caussin de Perceval عن « تخليص الإبريز » ، كما يضيف ترجمة لخطاب آخر ، يسأله فيه المستشرق « جوزيف رينو » Joseph Reinaud عن الكتب التى ترجمها من الفرنسية . ولا ينسى أن يطلعنا كذلك على رسالة ودّية من صديقه « جول

سلادان » . وفى الفصل الخامس ، يستعرض رفاعة الكتب التى درسها فى النحو والتاريخ والرياضة والجغرافية والمنطق والأدب الفرنسى . ولما كانت الصحف من أحبّ مطالعاته فى باريس ، فإنه يتحفنا بترجمة مقالة عن الحرب بين الأتراك والروس . وأخيرًا يصل ، فى فصل سادس ، إلى ذكر الامتحانات التى أدّاها والجوائز التى نالها . ويترجم لنا ما نشره جومار عن امتحانه النهائى فى المجلة الموسوعية (La Revue Encyclopédique) ، وهذا النص بالإضافة إلى شهادة أستاذه « شيفالييه (Chevalier) » خير تقرير عن بعثته . يقول أستاذه :

« أشهد أنى مدّة نحو الثلاث سنوات ونصف التى مكثها التلميذ المذكور عندى لم أر منه إلّا أسباب الرضى ، سواء فى تعليمه أو فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس ، وحسن خلقه ولين عريكته » . ويعدد العلوم التى درسها رفاعة ، ثم يضيف أن هذا التلميذ صرف جهده مع غاية الغيرة فى الترجمة التى هى صنعته المختارة له ... « ومما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة « مسيو الشيخ رفاعة » تناهت به إلى أن أدّته إلى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار ، حتى احتاج إلى الحكيم الذى نهاه عن مطالعة الليل ، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه . ولما رأى أن الأحسن فى إسراع تعليمه أن يشترى الكتب اللازمة له - غير ما سمح به الميرى - وأن يأخذ معلمًا آخر ، غير معلّم

الميرى ، أنفق جزءًا عظيمًا من ماهيته فى شراء كتب وفى معلّم مكث معه أكثر من سنة » .

ولقد شهد رفاعة فى باريس ، قبيل عودته إلى مصر ، ثورة الشعب الفرنسى على حكومة الملك شارل العاشر فى يوليو سنة ١٨٣٠ ، فأفرد المقالة الخامسة من كتابه لرواية هذا الحدث التاريخى . والفصل الأوّل من هذه المقالة تمهيد يحاول فيه رفاعة المؤرخ أن يستنبط « علّة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم » ، متتبعًا اتجاهات الأحزاب المختلفة منذ الثورة الكبرى سنة ١٧٩٠ (كذا) . والفصل الثانى عرض لأوامر الملك التى أطاحت بحريّة النشر وأقامت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وما تلا ذلك من احتجاب الصحف ، وإضراب العمال ، وغضب الشعب على الحكومة ، ونشوب حرب أهلية . وفى الفصل الثالث يستنكر موقف الملك المعادى لحرية الشعب ويقصّ كيف أفضى به عناده إلى التنازل عن العرش وخلع المملكة على ابنه ، ولكن بعد فوات الأوان ، فقد رأى مجلس النواب أن يخلفه « الدوق دورليان » . ويتتبع فى الفصل الرابع الخطوات الدستورية التى اتخذت لتولية هذا الدوق ملكاً للفرنسيين – لا ملكًا لفرنسا – باسم « لويس فيليب » . ثم يروى فى الفصل الخامس كيف قبض الشعب على وزراء شارل العاشر وكيف حاكمهم ، ويذكرنا إعجاب رفاعة بنظام القضاء الفرنسى بما سبق من إعجاب الجبرتى به فى حديثه عن قضية اغتيال القائد

« كليبر » فى القاهرة . ويصور الفصل السادس دهشة رفاعة وهو يستطلع فى شغف سخرية الفرنسيين من ملكهم المخلوع برسوم تظهر فى الصحف أو تلصق على الجدران ، وبنشر فضائحه فى أوراق مطبوعة ، وهذا فى نظره أكبر دليل على حرية الرأى هناك . ويحاول فى الفصل السابع أن يحيط بنتائج هذه الثورة من الناحية الدولية ، فقد أخذ كثير من الأمم الصغيرة يطالب باستقلاله أسوة بالشعب الفرنسى ، وتحفّز ملوك أوربا للنيل من فرنسا . لقد كتب رفاعة فى وضوح وذكاء ذلك التاريخ الذى عاصره فى باريس ، ورجع إليه فى مقالات الصحف .

والمقالة السادسة والأخيرة من « تخليص الإبريز » كتيّب تعليمى يقدم لمحات من المواد التى سافر الطلبة ليحصلوها فى باريس . يبدأ رفاعة - فى الفصل الأول - بشرح تصنيف الأوروبيين للعلوم ، مقارناً مذهبهم فى ذلك بمذهب العرب . ويتوقف - فى الفصل الثانى - عند علم اللغة ليقارن بين قواعد الفرنسية وقواعد العربية . لقد حاول عبثاً أن يجد فى النثر الفرنسى الزخارف البديعية التى اعتادها . ثم ينظر فى الشعر ، فيردد ما سبق أن نبّه إليه زملاءه الأزهريين : « نظم الشعر غير خاص بلغة العرب » . وينتهز هذه الفرصة فيملأ خمس صفحات بمختارات من « أحسن القصائد والمقطعات » تدلنا على ذوقه الأدبى وذوق معاصريه . والفصل الثالث - « فى فن الكتابة » - يؤكد لنا اتجاه

رفاعة الجديد إلى الدراسات المقارنة ، فهو يستعرض الحروف الهجائية فى عدة لغات ويوازن بينها . ويعود - فى الفصل الرابع - إلى « علم البلاغة » ، فيعرّف بموضوعه ، ويكرر أن « هذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية بل قد يكون فى أىّ لغة كانت من اللغات » . كما يكرر أن القيم الجمالية للتعبير تختلف من بيئة إلى أخرى . ثم ينتقل - فى الفصل الخامس - إلى « المنطق» ، فيعدد مباحثه ومبادئه ، ويترجم فى الفصل التالى « المقولات العشر المنسوبة إلى أرسطو » عن كتاب المنطق الشهير الذى درسه فى باريس (La Logique de Port-Royal) . وبعد أن يتحدث - فى الفصل السابع - عن « علم الحساب المسمى باللغة الإفرنجية الأريتماطيقى ، يقدم « نبذة » من الجغرافيا تحدد أقسامها الكبرى : جغرافيا طبيعية ، جغرافيا رياضية ، جغرافيا سياسية ، إلخ . ولما كان التاريخ علماً جديرًا بالاهتمام فقد رأى رفاعة أن يترجم للقارئ ، عن العبر التى نستمدها من دراسة ماضى الإنسانية ، صفحتين بليغتين من نثر أستاذه « جوزيف أجوب » Joseph Agoub . ويصرح رفاعة فى آخر مقالته بأنه تعهد بنقل هذين العلمين من الكتب الحديثة خدمة لمواطنيه .

هكذا قدم رفاعة لنا رحلته ، وثمرتها ، ولم يبق عليه الآن إلّا أن يكتب « الخاتمة » . وإنه ليستهلّها بمدح « ولىّ النعم » ورؤساء البعثة الذين عادوا ليشغلوا مناصب عليا ، مدحًا أجوف ، فى جمل

متكلفة مسجوعة . ثم وصف رفاعة طريق عودته من باريس . وقد وقفت به العربة فى « فونتنبلو » حيث أوحى إليه القصر التاريخى الذى زاره بعد أن تنكر الزمان لمن سكنوه ، أن يذم الدهر وأن يستطرد إلى رواية أبيات من الشعر المأثور فى هذا المعنى . ويشبه رفاعة النصب الذى أرادت أسرة « البربون » أن تسجل عليه أسماء ملوكها ، بالآثار المصرية القديمة . ويورد آراء العلماء المحدثين فى الأهرام حتى يقابلها القارئ بما ذكره فيها المؤرخون العرب « من الأوهام » . وهنا نلمس الوعى الجديد الذى يدفع هذا الصعيدى الناهض إلى المطالبة بحماية آثار أصبح يقدّر قيمتها الوطنية والجمالية . ثم يستأنف رفاعة استعراض المدن التى مرّ بها : « نيمور » Nemours ، وملان Melun ، حيث كان يعيش مماليك نابليون من مهاجرى مصر وسورية و « روانة » Roannes التى يميزها بهذه التسمية من « روان » Rouen الواقعة فى شمالى فرنسا ، و« ليون » Lyon ، و « أورجون » Orgon . وفى ميناء مرسيليا ، ركب رفاعة سفينة تجارية أوصلته إلى الإسكندرية . وهو لا يصف الطريق فى البحر « لأنه عين ما سبق فى المقصد » .

على أنه لا يضع القلم قبل أن يصارحنا برأيه فى الفرنسيين : لا شك فى أنهم أقرب إلى العرب منهم إلى الترك ، فهم يحرصون على الشرف والحرية ، ويحبون الافتخار ، ويفون بعهودهم . ولكى يشبع استطلاع قرائه الذين يكثرون السؤال عن حال النساء عند

الإفرنج ، يعلن أن العفة ليست نتيجة الحجاب ، بل نتيجة « التربية الجيدة » و « التعوّد على محبّة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة » و « الالتئام بين الزوجين » . وقد لاحظ فى فرنسا « أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى دون نساء الأعيان والرعاع » . ويعجب رفاعة « بمروءة » الفرنسيين ، وتلك من صفات العرب الأصيلة وإن يكن أضعفها فى الأزمنة الأخيرة « مشاق الظلم ونكبات الدهر » . وأما الحرية التى يعتز بها الفرنسيون ، فقد كانت أيضًا من أهمّ ما يعتز به العرب ، ورفاعة يستشهد على ذلك بأمثلة من تاريخ العرب وأشعارهم .

ولا ينسى الطالب الوفىّ أن يشكر « مسيو چومار » لتفانيه فى خدمة المبعوثين . ويترجم شطرًا من مقدمة التقويم الذى وضعه چومار « لاستعمال مصر والشام سنة ١٢٤٤ هـ » ، ففيه يتحدث عن وجوب الإصلاح فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة والصحة والتعليم . وفى الختام ، قبل أن يرفع الكاتب الدعاء التقليدى بالتوفيق للحكومة ، نحس أنه يدافع عن نفسه « من قال الناس وقيلهم » فى حزم وتواضع معًا .

٤

التخليص والتلخيص*

لكل كتاب قصّة . وقصة تأليف « تخليص الإبريز » يروى لنا رفاعة طرفاً منها فى خطبته ، إذ يقول :

« فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار علىّ بعض الأقارب والمحبّين – لا سيما شيخنا العطار ، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار – أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعًا ... »

أما « الشيخ حسن العطار » فنحن نعرف ما سبق له من الاتصال بالفرنسيين فى مصر ، والتنقل فى الشام وتركيا . لقد كان يحبّ الرحلات ويحب الكتب ويغدق النصح لتلميذه الأثير . وأما « الأقارب » فلابدّ أنهم أخوال رفاعة الذين شجعوه قبل ذلك على السفر فى طلب العلم من طهطا إلى القاهرة ، وأما « المحبّون » فهم

* من تقديم « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، طبعة وزارة الثقافة – القاهرة ١٩٥٨ .

بلا شك أصدقاؤه من شباب الأزهر الذين أخذوا يتطلعون إلى بشائر النهضة ، وحسبنا أن نسمّى من بينهم « عياد الطنطاوى » الذى رحل فيما بعد إلى بطرسبرج ، وكتب سنة ١٨٥٠ « تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا » .

هؤلاء جميعًا كانوا خليقين بدعوة رفاعة إلى تأليف كتاب عن رحلته . ولو لم يفعلوا ، لكتب رفاعة من تلقاء نفسه « تخليص الإبريز » . فهذا الفتى الأديب الذى يسعد بإنشاء النثر وقرض الشعر ، هذا المصرى الذى لم يكد يغادر الأزهر حتى وجد نفسه فى قلب باريس ، هل كان يستطيع أن يصمت أمام مشاهد الحضارة الرائعة التى انكشفت له أسرارها ؟ لقد أقام خمس سنين تهتزّ مشاعره بما يرى وبما يسمع وبما يقرأ . فهى إذن باريس التى أوحت بهذا الكتاب ؛ على حين لا يظهر حسن العطار ولا تظهر توصيته إلاّ فى الصفحات الأولى ، وهى فى أكبر الظن مكتوبة بعد عودة رفاعة إلى مصر .

إن « تخليص الإبريز » هو الثمرة الطبيعية للرحلة . وفيه نتتبع تجربة الكاتب ، تلك المحاولة العميقة لفهم الحياة الجديدة واقتباسها . فالمقارنات بين العيش فى مصر والعيش فى فرنسا لا تكاد تنقطع . وفى كل فصل يتدفق تيّار من الوطنية المتأججة هو الذى يدفع الصعيدى المتحرر إلى الكتابة . لقد أملى هذه الصفحات عزم شديد متوثّب ، يريد أن تنطلق مصر مسرعة إلى الأمام لتلحق

بركب الإنسانية المتقدمة .

وأنشأ رفاعة كتابه وبلوره فى كثير من التأنى والرويّة . كان عليه أن يتعلّم اللغة الفرنسية ، وأن يلمّ بمبادئ العلوم الحديثة وأن يترجم ما يطلب منه ترجمته ، فإذا خلا إلى نفسه فى أوقات الفراغ كتب ما تيسّر له من « تخليص الإبريز » . وكان يعود إلى أوراقه فيضيف إليها سطورًا جديدة عقب درس من الدروس ، أو مطالعة تأثر بها ، أو نزهة فى بعض أحياء العاصمة ، أو زيارة لسيلفستر دى ساسى « بالكوليج دى فرانس » ، أو لكوسان دى پرسڤال فى مدرسة اللغات الشرقية ، أو لجوزيف رينو بدار الكتب ، أو بعد حوار خصب مع جومار ، أو حديث شائق مع صديقه جول سلادان .

وفضلًا عن هذه المصادر الشفوية ، كان رفاعة يستقى المعلومات من كتبه الدراسية ولا سيما فى الجغرافية والتاريخ ، ومن مقالات الصحف والمجلات التى شغف بقراءتها . ومن هنا كان دأبه ، كلما ذكر علم من الأعلام أو اسم مدينة شهيرة ، على إتحاف القارئ بمحصول غزير ثقيل من العلم المنقول . وينبغى ألّا نلوم رفاعة على إسرافه فى الجمع من الكتب ، فقد كان متعطشًا إلى المعرفة ، توّاقا إلى الوقوف على كل جديد وقديم . وإن نهم هذا الطالب لظاهرة من الظواهر التاريخية التى يتميز بها عصر النهضة فى كل مكان ، فالنهضة تفتح للمعرفة ، وكشف عن المجهول ، وانتهاب لكنوز التراث الإنسانى ، وقد صوّر « رابليه » (Rabelais) هذه النزعة

فى قصة من أهم آثار الأدب الفرنسى فى القرن السادس عشر عندما أعدّ لبطله العملاق « جارجانتوا » برنامجًا موسوعيًّا يدرسه فى باريس .

على أن رفاعة ، وإن مثّل هذه النزعة باسترساله فى التعريفات والتحقيقات المختلفة ، لا يزال يبدو أمامنا بوجهه الأليف ، وجه « الواعظ » الذى اعتاد أن يتكلم ليرشد سامعيه ، الواعظ الذى يتحوّل إلى « أستاذ » يشرح ويبحث ويترجم ، ويصبح المعلم الأوّل لشباب مصر الحديثة .

وإلى جانب هذه « النبذات » التى لا يخلو تجميعها وتلصيقها من سذاجة ، نستطيع أن نتسمع أصداء مطالعات أدبية أرقى وأطرف . فرفاعة يفتتح الفصل الأوّل من مقالته الأولى بالرجوع إلى أصل المجتمع وبداية الحضارة كما كان يفعل كتاب القرن الثامن عشر الفرنسيون ممن اغتذى بأدبهم . فقد كانت تملؤهم ثقة بالإنسانية ، وثقة بتقدّم العلم ، وثقة بذكائهم ، جعلتهم يتخيلون تاريخ الجماعة البشرية فى مختلف الأطوار ، وكأنهم يريدون إعادة خلق الدنيا وتشكيلها على ما يتمنّونه من صور .

ومن الثابت أن رفاعة قد قرأ بعض مؤلفات « روسو » و « ڤولتير » و « مونتسيكو » . ولا شك أنه فى حديثه الفكه عن الباريسيات والباريسيين ، وعن سرعة تنقلهم من زىّ إلى زى ومن بدعة إلى بدعة ، متأثر بصفحات شهيرة لمونتسيكو فى « الرسائل

الفارسية » (Les Lettres Persanes) .

وكان بين يدى رفاعة ، وهو يجمع مادة كتابه ويصنفها ، نماذج من كتب الرحلات ووصف الشعوب ، فهو يشير إلى « رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية » و « رحلة فى بلاد الجزائر » دون أن يهتم بذكر اسم مؤلف هذه ولا اسم مؤلف تلك .

ولكنه يذكر مرارًا وفى دقّة كتابًا ثالثًا قرأه فى باريس ، واقترح عليه جومار أن يترجمه ، وفرغ فعلًا من ترجمته قبل أن يتمّ « تخليص الإبريز » بسنة على الأقل ، وذلك هو كتاب ديپنج : « لمحة تاريخية عن أخلاق الأمم وعاداتها »

(Depping : Aperçu historique sur les moeurs et coutumes des nations) الذى عنونه رفاعة « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » . إن هذا الكتاب الجامع يرجع إليه إلى حدٍّ كبير ، الطابع الموسوعى الذى اتخذته « رحلة » رفاعة . غير أنه علم رفاعة فنّ تقسيم مادته وتبويبها . وحسبك إلقاء نظرة على فهرست هذا الكتاب من ناحية ، وعلى فهرست « تخليص الإبريز » من ناحية أخرى ، حتى تقدر مبلغ ما يدين به رفاعة لديپنج . فموضوعات فصول رفاعة عن باريس ، الفصل الرابع والفصل الخامس والفصل السادس ، هى موضوعات الفصل الأوّل والفصل الثانى والفصل الثالث من كتاب ديپنج ، على التوازى : المسكن ، والمأكل ، والملابس . لقد مضى رفاعة يطبق

على أهل باريس ما درسه ديبنج لدى شعوب الأرض المختلفة . ولعلّ إطناب هذا الأخير فى حديثه عن النساء ، وعن التجارة وعن الألعاب والرياضة ، وعن الرقص والملاهى ، هو الذى أغرى رفاعة بالإطناب فى وصفها عند الفرنسيين . ولا شك أن الشيخ رفاعة ، حينما أخذ فى تأليف كتابه الأوّل ، كان فى حاجة إلى مثال يحاكيه ، ومرشد يقتفى خطاه .

وفى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠ ، يوم أدّى رفاعة امتحانه النهائى فى باريس ، قدم « تخليص الإبريز » إلى اللجنة التى ناقشته ، كأنه رسالة تكميلية إلى جانب اثنى عشر موضوعًا مترجمًا [١] .

وفى شهر فبراير سنة ١٨٣١ ، حرص رفاعة قبل مغادرته باريس على أن يستطلع رأى المستشرقين سيلفستردى ساسى وكوسان دى برسفال فى « تخليص الإبريز » . فعهد بمخطوطه إلى كلٍّ منهما ، وأثبت ترجمة شهادتيهما فى كتابه . ومن خلال هذين التقريرين ، وتقرير ثالث طويل نشرته بعد عامين « الجريدة الأسيوية » . بقلم كوسان دى برسفال[٢] نستطيع أن نعرف كيف كان ذلك المخطوط فى جملته ، لأننا لم نعثر بين أوراق رفاعة التى تحفظها أسرته إلاّ على أجزاء متفرقة من مسودّة « تخليص

---

(١) Revue Encyclopédique, nov. 1831, t. XLVIII. pp. 521 - 523.
Nouveau Journal Asiatique, t. XI, Mars 1833.

الإبريز » . وعلى كل حال ، فإن الصفحات الأربع التى ذيّل بها كوسان دى برسفال مقالته ، لتكون أمثلة من نثر رفاعة ، هى أوّل ما نشر من الكتاب ، سنة ١٨٣٣ .

* * *

تستوقفنا إذن فى دراسة تكوين الكتاب ثلاثة أطوار : المخطوط ، والطبعة الأولى التى تمت فى بولاق سنة ١٢٥٠ هـ . سنة ١٨٣٤ م . ثم الطبعة الثانية التى تمت فى بولاق سنة ١٢٦٥ هـ . سنة١٨٤٩ م . أما الطبعة الثالثة ، الصادرة فى سنة ١٩٠٥ م . وإن كانت لا تختلف عن سابقتها ، فلا تكاد تعنى الباحث عن تطوّر رفاعة ؛ لأنها أعدّت ونشرت بعد وفاته .

وإلى جانب تقريرات المستشرقين عن مخطوط « تخليص الإبريز » ، لدينا اليوم من مسودّته عدّة أجزاء ، لم يرقم رفاعة صفحاتها ، وفيها نتتبع ما يأتى :

(ا) آخر صفحات « المقدمة » ، ابتداء من « بلاد غرناطة الجديدة » ، وأوّل صفحات « المقصد » حتى منتصف الفصل الثالث من المقالة الأولى عند عبارة « غير أن المعتمد على الكريم ، لا يخشى من الخطب العظيم » .

(ب) الصفحات الأخيرة فى الكلام على أهل باريس ، أى من الفصل الثانى فى المقالة الثالثة ، ابتداءًا من « ليلاً ونهارًا على أحجار أرض باريس خصوصًا إذا كانت المستأجرة للعربية مرأة فإن

العربجى يجهد خيله » حتى ترجمة « المادة الحادية عشرة » من الدستور الفرنسى .

(جـ) الصفحات الأخيرة من الفصل الثانى عشر « فى دين أهل باريس » ابتداءً من « فساير من أراد أن تغفر ذنوبه » حتى نهاية المقالة الثالثة بنهاية الفصل الثالث عشر منها . وهنا تليها فى المسودة مباشرة « المقالة الرابعة فى ذكر نبذات من العلوم والفنون » . وهذه المقالة تبدأ « بنبذة » فى « اللغة » يتصل بها الحديث عن « فن الكتابة » ؛ ثم عن « علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع » ؛ ثم عن « علم المنطق » حتى « ومثال التعريف اللفظى قولك الإنسان هو الآدمى إذا فرضنا أن لفظ الآدمى أشهر وأعرف » .

(د) وقد وجدنا ورقة مزدوجة ، على ثلاث صفحات منها ترجمة عاجلة بخط رفاعة لطائفة من مواد القانون المدنى التى تنظم الزواج فى فرنسا ، أوّلها « ولنذكر لك عدة أحكام من شريعتهم المدنية » وثمة ورقة مزدوجة أخرى ، لا شك فى أنها من مسوّدات « تخليص الإبريز » إذ تبدأ إحدى صفحاتها بهذه الجملة ، ومكانها فى الفصل الحادى عشر من المقالة الثالثة : « وقد اخترعوا فى باريس عربيات كبيرة تدور إلى طرق المدينة وتوسق من عدة معدودة كالسفينة بثمن معلوم تسمى الأمنيبوس معناه لكل الناس » . تلى هذه السطور محاولة قصيرة لبداية فصل جديد لم يتم « فى السجن والجنايز

والمقابر » لا يحمل رقمًا بعد . والطريف أن الجزء الثانى من الورقة عينها بصفحتيه يحمل تعريفًا بالموسيقى الغربية مترجمًا من بعض كتب تبسيط العلوم ، وقد نقل رفاعة أيضًا فى هذا الحيز ثلاثة رسوم توضح أوّل علامات تدوين الموسيقى .

(هـ) كما وجدنا ورقة مزدوجة ثالثة ، مهد فيها رفاعة لفصل المنطق من مقالته الأخيرة بصفة عامة عنوانها « الكلام جملى على علم الفلسفة » ، على حين اكتسى الجانب الآخر من الورقة بما قرأناه فى الكتاب من « الكلام على علم الحساب » . ولعلّ رفاعة قد أنجز ما وعدنا به فى عنوان تلك المقالة المدرسية الجامعة أى بذكر « نبذات من العلوم والفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة » فكتب بالفعل - نقلاً عن مرجع فرنسى - فصولاً عن « البحرية » وعن « علم مصالح البلدان المسمى بالإفرنجية الدبلماسيا » وعن « علم الميكانيقى » يعنى علم التحيلّ بالآلات وعن « الأيدروليقى » وعن « علم الكيميا » وعن غيرها مما ضاع مع بعض أوراق هذه الكراسة الصغيرة التى تقدم لنا من خط المؤلف ومن أسلوبه مرحلة أكثر رسوخًا ونضجًا ، غير أنه عدل عن نشر هذا كله فى كتاب رحلته ، أو لعلّه أعده لطبعة تالية .

وتختلف الطبعة الأولى عن المخطوط فى الكم والكيف . فالمخطوط لم يكن يتألف كما لاحظنا إلا من أربع مقالات ، رابعتها « فى ذكر نبذات من العلوم والفنون » . بل كانت هذه المقالة

الرابعة ناقصة يوم تصفح العمل « كوسان دى برسفال » فلم ير سوى « لمحة فى الرياضة والفلك ومبادئ الهندسة والجغرافيا الطبيعية » . أضاف رفاعة إذن إلى فصول تلك المقالة بعد رجوعه من باريس صفحات عن اللغة والمنطق والتاريخ . وأضاف إلى الكتاب خاتمة ومقالتين جديدتين رقمهما الرابعة والخامسة فأصبحت مقالة « العلوم والفنون » هى السادسة . وفى أولى المقالتين الجديدتين أودع أهم وثائق دراسته وامتحاناته ومراسلاته ، وفى الثانية روى ثورة الشعب الفرنسى سنة ١٨٣٠ . غير أنه نسى أن يصحّح ، حتى فى الطبعة الثانية ، خطةّ الكتاب التى أعلنها فى مستهل « المقصد » فهى مازالت تنبئ القارئ بالمقالات الأربع القديمة .

وعلى الرغم من ازدياد الكتاب بنحو ثلث حجمه بعد عودة المؤلف إلى مصر فقد حذف رفاعة بعض صفحات مخطوطه الباريسى قبل أن يسلمه للمطبعة . وإذا كنّا لا نستطيع إحصاء جميع ما حذفه رفاعة ، لأننا لم نعثر على المخطوط كاملاً ، فالثابت أنه حذف – على الأقل – نصّين خطيرين .

وفيما يلى النصّ الأوّل ، نقلاً من المسودة ، ومكانه فى نهاية الباب الرابع من « المقدمة » بعد تسمية « حسن أفندى الإسكندرانى » والدعاء له :

« والعادة أن كل أربعين من أمة النبى ﷺ لا تخلو من رجل

صالح ولعلّ صالح أربعيننا هو الحاج حسن أفندى الإسكندرانى . فإنه بهذه السفرة تمسّك على الدين ما أمكن . وله فى الله سبحانه وتعالى حسن ظنّ بنصرة الإسلام على الموسقوبية بأنفاس سلطان الإسلام المؤيد بعناية الملك المعبود ، مولانا الإمام الأعظم السلطان محمود . ومما اتفق أنها كانت تصلنا أخبار الحرب مكتوبة فى تذاكر باريز اليومية فنراها مشومة على الإسلام ، فلا يشك هذا الأفندى فى نصرة الإسلام . فسألته عن ذلك ، فكان يقول : إن الإسلام مبشر بالنصرة ، وإن الله تعالى لا يخذل أحبابه وينصر أعداءه وإنه رأى جملة منامات ناطقة بذلك ، ورؤيا المؤمن حق . وأعطانى فائدة لأستعملها وأقول ما يظهر لى . وصورة هذه الفائدة أن يقرأ الإنسان بعد صلاة العشاء سورة يس مستقبلاً للقبلة ، ثم ينظر إلى السماء ويقول : اللهم اكشف لى عما يقع فى كذا وكذا ثم ينام على الجنب الأيمن . ففعلت ذلك ، ودعوت قائلاً اللهم أرنى ما يقع للسلطان فى هذه الحرابة ، فنمت ، فرأيت خادمًا فى المنام يقول ما معناه : محمود أفندى والى القصير سابقًا الذى نزل عن مرتبة الأميرالاى قد رجع فى منصبه ، وأنا ذاهب لأبشره بذلك ا هـ .

فقمت ليلاً وكتبت ذلك لئلاّ أنساه ، وقصصته صباحًا على حضرة جناب الحاج حسن المذكور فاستبشر غاية البشارة . فتواردت بعد ذلك الأنباء السارّة. وتفسير المنام سهل » .

لابدّ أن رفاعة ، وهو يقرأ فى سنة ١٨٣٤ هذا الكلام الذى كتبه

قبل انقضاء ست سنين أو سبع – على وجه التحديد قبل أن ينفرد المهردار برياسة البعثة – لاحظ ما يبدو فيه من سذاجة ، ورفض أن ينشره . وبالمثل لا نجد فى الكتاب المطبوع ثانى مصراعى هذه العبارة التى خطها رفاعة فى حديث رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية : « ولا فائدة لذكر بعض البلاد أو القرى التى رسينا عليها ، غير أنه حصل على الغم الشديد بعدم تيسّر زيارتى سيدى إبراهيم الدسوقى فى القرب من دسوق » . فهو الآن قد يرى فى التبرّك بالأضرحة إفراطًا فى السذاجة أيضًا .

ولكن ، هل رأى من الإفراط فى الجرأة أن يحتفظ بالفقرة الخطيرة التى أورد فيها إثبات علماء الإفرنج لدوران الأرض حول الشمس ؟ ها هى ذى ، كما نقلها من مخطوطه كوسان دى برسڤال[1] ، ومكانها بالمقالة السادسة فى آخر التعريف بالجغرافية الفلكية :

« وقال بعض علماء الإفرنج : إن القول بدوران الأرض واستدارتها لا يخالف ما وردت به الكتب السماوية ، وذلك لأن الكتب السماوية قد ذكرت هذه الأشياء فى معرض وعظ ونحوه جريًا على ما يظهر للعامة لا تدقيقًا فلسفيًّا ، مثلاً : ورد فى الشرع أن الله تعالى وقف الشمس ، فالمراد بوقف الشمس تأخير غيابها عن الأعين وهذا يحصل بتوقيف الأرض ، وإنما أوقع الله الوقوف

(١) Nouveau Journal Asiatique, t. XL, Mars 1833, pp. 245, 251.

على الشمس لأنها هى التى يظهر فى رأى الأعين سيرها . انتهى . فظاهر كلامه أنه ارتكب غاية التأويل » .

لقد اقتنع رفاعة بالبراهين العلمية التى درسها ، ثم أعاد النظر فى مخطوطه ، فحذف هذه السطور ! وحذف كذلك الإشارة التى بدرت منه إلى هذه المشكلة وهو يحذّر مواطنيه - فى الفصل الثالث عشر عن أهل باريس - من « الحشوات الضلالية المخالفة للكتب السماوية » فقد كانت بقية الجملة : « كالقول بدوران الأرض ونحوه » . ويبدو أنه كان إذ ذاك شديد الحيرة ، فهو يعترف فى اللحظة نفسها بأنهم « يقيمون على ذلك أدلّة يعسر على الإنسان ردّها » . ولابدّ من أنه وزن الأمور بعد أوبته إلى مصر بميزان معاصريه ، فتحاشى ما يعتبرونه بدعة ، وتجنب أن يقف موقف « جاليليو » وأن يعيد مأساته . واكتفى فى هذا الموضوع بما سبق له من تلخيص مناظرة « علماء » المغرب حول كروية الأرض وبسطها وحول دورانها وسكونها (الفصل الأول من المقالة الثانية) فلا خطر من ذكر آراء « العلامة الشيخ محمد المناعى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم ، والعلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات بقرب بلاد تمبكتو » !

على أن رفاعة لم يجد بدًّا من تحكيم العقل ، عندما أفرد للجغرافيا كتابًا علميًّا مستقلًّا ، أخرجته المطبعة الأميرية ببولاق مع « تخليص الإبريز » فى نفس السنة (١٨٣٤) ، بعنوان

« التعريبات الشافية لمريد الجغرافية » . فهو يقول بصراحة فى فصل « الكلام على العالم بأسره - علم هيئة الدنيا » :

« ثم إننا هنا نسلك طريقة الإفرنج فى الكلام على الهيئة منبهين على مذهبهم ، وإنما نجعل المسألة لحكم القارئ فى كتابنا . فإن كل إنسان له عقل وذهن ، فليأخذ ما يحكم بصحته وليطرح ما يحكم بفساده . فنقول : قد جعل الإفرنج الشمس من الكواكب الثابتة ونسبوا الدوران للأرض » .

* * *

أما أسلوب « تخليص الإبريز » فى المخطوط فكان مليئًا بالأغلاط اللغوية والنحوية . وقد نبّهه « سليفستر دى ساسى » إلى هذه الظاهرة ، وعللها بأن رفاعة « استعجل فى تسويده » ، ورجاه أن « يصحّحه عند تبييضه » . وقد اختفى بالفعل عند طبع الكتاب لأوّل مرة عدد كبير من هذه الأخطاء ومن التعبيرات الركيكة والعامية ، فلقد وجد رفاعة فى مصر من أوقات الفراغ ومن صحبة أساتذة الأزهر ما أتاح له أن يصحح وينقح كتابه قبل طبعه .

ولسنا نعنى أن الطبعة الأولى خلت من الأخطاء اللغوية . فقد اشتغل رفاعة مرة أخرى ، وهو يعد الطبعة الثانية ، بمراجعة ألفاظه وتطبيق قواعد النحو والصرف . وغنىّ عن القول أنه بدأ بتصحيح الأخطاء المطبعية . على أن الطبعة الثانية تمتاز فوق ذلك على الأولى بعدة زيادات وتعديلات أدخلها رفاعة فى مواضع مختلفة . من هذه

الفروق ما يصحح فكرة أو يحدّدها ، ومنها ما يضيف ذكر أعمال تمت منذ نشر الطبعة الأولى ، غير أن معظمها لا ينبئنا بجديد سوى رغبة المؤلف فى تحلية كتابه بما راح يجمعه من جميل النثر والشعر لكل مقام .

فمن التعديلات التى تصحح فكرة أو تحددها ، حذف رفاعة لكلمة « كفرة » التى استعملها أوّل الأمر مرادفة لكلمة «نصارى » فى قوله : « ثم إن بلاد أوربا أغلبها نصارى أو كفرة[1] وقد خط رفاعة هذا النعت مرارًا فى مسودته ، فقد كان يقول مثلاً فى تقديمه للدستور الفرنسى : « فلنذكره لك .. لتعرف كيف قد حكمت عقول الكفرة بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » . ولعل فى تكرار هذه الكلمة ما يدلّنا على أن رفاعة كان يستخدمها استخدامًا آليًّا ، مرددًا فى ذلك تعبيرًا جاريًا على ألسنة أهل عصره ، أفقده التكرار معناه ، ولم يتدخل رفاعة فى إنشائه على كل حال . أما إذا كان له أن يعبّر تعبيرًا شخصيًا ، يعنى فيه ما يقول ، بعد أن عاش فى أوروبا ، وخبر « الإفرنج » ، وكتب عن دينهم وناقش فى هذا الموضوع سيلفستر دى ساسى ، فإنه يتدخل فى التعبير ليزيل هذا المرادف الذى اقتنع بأنه غير مرادف . وفى الوقت نفسه يحرص المؤلف على اكتساب رضا أغلبية قرائه فقد ساءتهم بلا شك نهاية « عبد العال » أغا الإنكشارية

(١) فى الباب الثالث من المقدمة .

الذى هاجر من مصر إلى فرنسا ثم تنصر « بسبب الزواج بنصرانية ثم مات بعد قليل » وها هو ذا رفاعة يضيف فى الطبعة الثانية رواية أخرى لنهاية عبد العال : « ويقال إنه سمع منه عند موته يقول : أجرنى يارسول الله ، ولعلّه ختم له بخير وعاد إلى الإسلام فقال بلسان الحال :

الحمد لله الحنيفة ملّتى والله ربى وابن آمنة نبيى »[1]

ومن التعديلات التى تبعت عامل الزمن ، نجد بعض ما يدل على تغير التاريخ ، ففى الطبعة الأولى نقرأ أن المهردار « يشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية » وفى الطبعة الثانية نقرأ الفعل فى صيغة الماضى : « اشتغل »[2] كما يشير رفاعة إلى بعثة تعليمية جديدة إلى « بلاد النيمسا »[3] وبعد أن شبه الإسكندرية بمرسيليا فى الطبعة الأولى يضيف فى الطبعة الثانية : « لما ذهبت إليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من أوربا »[4] وكان فى الطبعة الأولى قد تمنى أن تقتبس مصر نظام رش الشوارع بمثل العربات التى أعجب بها فى باريس ، وقد تحققت أمنيته قبل نشر الطبعة الثانية فكتب فى آخر تلك الفقرة بين

---

(١) فى الفصل الأول من المقالة الثانية .

(٢) فى الباب الرابع من المقدمة .

(٣) فى آخر الباب الثالث من المقدمة .

(٤) آخر الفصل الأول من المقالة الأولى .

قوسين : (قد صار الآن جلّ ذلك بمصر)[1] .

على أن أكبر الزيادات حجمًا فى الطبعة الثانية هى أبيات الشعر التى دأب المؤلف الأديب على أن يستشهد بها ، وبضع صفحات مستحدثة تخللت الكتاب وفيها يستطرد رفاعة إلى ذكر موضوعات من تاريخ الحضارة العربية . ومن أطرف هذه الصفحات ما علق به على شخصية الإسكندر ذى القرنين ، فقد مضى يمزج بين أساطير اليونان وأساطير العرب ، ملبيًا نزعته الجديدة إلى الدراسات المقارنة ، رافعًا فكرة بحثه هذا فى « الميتولوچيا المقارنة » إلى الأكاديمية الفرنسية [2] لقد تفاعلت فى عقله معارف من الشرق ومعارف من الغرب فأخصبت . وثمة صفحة أخرى ، يشيد فيها رفاعة بسالف مجد العرب ردًّا على ما يراه من تفوّق الإفرنج ، وهو يسجع العبارة تلو العبارة ، حتى ينتهى بمدح ولىّ النعم . [3] وحينما يضيف فى إطناب ترجمة حياة الفارابى لأنه شبه به « سيلفستر دى ساسى » [4] ، أو يضيف نوادر أبى بكر الخوارزمى والصاحب ابن عباد[5] نتأكد نحن أن رفاعة قد عاد فى مصر إلى أحضان الأدب العربى .

---

(١) فى الفصل الأول من المقالة الثالثة .
(٢) فى الفصل الأول من المقالة الأولى .
(٣) فى الباب الثالث من المقدمة .
(٤) فى الفصل الثانى من المقالة الثالثة .
(٥) انظر المصدر السابق .

وماذا أراد رفاعة من كتابة « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ؟ لقد أفصح عن أغراضه فى « الخطبة » التمهيدية حيث قال :

« ليكون نافعًا فى كشف القناع ، عن محيًا هذه البقاع ، التى يقال فيها إنها عرائس الأقطار وليبقى دليلاً يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصًا وأنه من أوّل الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها .. فما قصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة .. وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فإن كمال ذلك ببلاد الأفرنج أمر ثابت شائع « والحق أحق أن يتبع » .

لقد وضع نصب عينيه إذن أن يقدم للمسافر إلى فرنسا دليلاً مفيدًا ، ولقارئ الأدب العربي كتابًا طريفًا ، وللشعوب الإسلامية دعوة إلى النهوض والأخذ من حضارة أوروبا . حاول أن يجعل من « ديوانه النفيس » ثلاثة أشياء فى آن واحد : رحلة عملية وتحفة فنية ، ودرسًا وطنيًا . فإلى أى مدى حقق كل غرض من هذه الأغراض ؟

لكى يتحدث عن فرنسا بوصفها بلدًا سياحيا كان عليه أن يجوب أرجاءها ، وأن يزور أشهر مدنها ومعالمها . ولكنه لم ينتقل من

مكان إلى مكان ، فظلّ مجال خبرته ومشاهداته محدودًا . لم يقم طوال السنوات الخمس التى قضاها بعيدًا عن مصر إلاّ فى باريس ، باستثناء بضعة أسابيع أنفقها فى مرسيليا . وإذا كان قد استروح نسائم الريف الفرنسى من نافذة العربة التى قطعت به الطريق إلى العاصمة . فإنه يجهل الحياة فى الأقاليم ؛ لذلك لامه سيلفستر دى ساسي قائلاً : « غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لايحكم به إلاّ على أهل باريس » .

ومن الحق أن عنوان الكتاب ينصبّ على باريس وحدها لا على فرنسا بأسرها . فهل عرّفنا رفاعة بباريس تعريفا وافيًا ؟ لقد عاش فى ركن منها ، تلميذا هادئًا مجدًّا ، لا يغادر « البنسيون » إلاّ يومين فى الأسبوع ، وينكبّ على كتبه ما استطاع إلى الدرس سبيلا . وهكذا كان يرى باريس من خلال مطالعاته . وظلت الكتب أهم مصادره فى التعرف والتعريف بالعاصمة الكبيرة ، فهو يسرد لنا خصائص مناخها فى أسلوب مدرسى ينم عن كتاب الجغرافيا ، ولا يكاد يحدثنا عن أحيائها بصورة واقعية . وفى « تخليص الإبريز » تطغى المعلومات المنقولة ، والملخصات ، والاحصاءات – على الصفحات التى يكلمنا فيها الرحالة كلامًا شخصيًا مباشرا . ولهذا بعينه كان رفاعة يعتقد أنه أنشأ كتابًا ممتازًا ، جامعًا ، وهو يعالج موضوعًا جديدًا لم يطرقه أديب عربى من قبل . ولنعد بالذاكرة إلى ما كان ينبغى أن يتصف به « الأديب » قديمًا من تنوّع

الثقافة وقوّة الحافظة ، لنحدّد مفهوم العمل الفنى فى ذهن رفاعة . فقديمًا كان الرحالة العربى عالما بالجغرافيا ، والفلك ، والمعادن ، والنبات والحيوان ، مؤرخا للحوادث ، مؤرخا للعادات ، مؤرخا للأديان ، دارسًا للاقتصاد ، بل وفقيهًا فى بعض الأحيان أو فيلسوفا . وبات رفاعة يصبو إلى هذا المثل الأدبى الأعلى . ولما كان قد عهد فى الأزهر أن فنّ تأليف كتاب هو فن جمع نصوص فى موضوع ما والتعليق عليها ، فقد عمد - بعد أن جمع مادته وصنفها - إلى التعليق عليها ببليغ الحكم والأمثال ، وفرائد الشعر والنثر ، وكل ذلك مرآة تعكس لنا ذوق أدبائنا فى مطلع عصر النهضة . ولو جردنا الكتاب من تلك الاستطرادات والتضمينات والاستشهادات الدخيلة لما بقى بين أيدينا سوى خمسين صفحة تقريبا . وهذه الصفحات لا تكفى لإرشاد من يزور العاصمة الفرنسية ، ولا لإشباع نهم قارئ تعذرت عليه أسباب الرحلة ، وإنما تقدم لنا لوحة مبسطة للحضارة الأوربية كما كانت تجلوها باريس سنة ١٨٣٠ لعينى مصرى من أبناء الجيل الأول فى القرن التاسع عشر .

وتلك هى اللوحة التى أراد رفاعة بنقلها إلى مواطنيه أن يغريهم بالنهوض واستقبال حياة جديدة . لقد كشفت له باريس حقيقة مصر . فعندما رأى تقدم الفرنسيين ونشاطهم وإنتاجهم ، عرف فى أى درك قد هوت مصر اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا . وكتب رحلته

ليحفز أهله إلى العمل ، مهديًا إليهم مثالا يحتذونه فى تنفيذ الإصلاحات اللازمة . وقد نوّه بفضل الكتاب من هذه الناحية المستشرق « كوسان دى برسفال » فى هذه الفقرة من التقرير الذى ترجمه لنا رفاعة :

« ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوربا فى العلوم البشرية والفنون النافعة ، أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبّة تعلّم التمدّن الإفرنجى والترقى فى صنايع المعاش . وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك » .

وهنا نجح رفاعة وأصاب الهدف لأنه كان مخلصًا ملهمًا تملؤه الحسرة على حال مصر بقدر ما يملؤه الإعجاب بأنوار المعارف ، و « راحة العباد » فى فرنسا . لم يعد الأمر أمر كتاب أدب يصنعه وينمّقه بل أمر رسالة عاجلة يريد إبلاغها . ولذلك نجده كلما بدأ حديثًا عن انطباعاته الفردية الخاصة تحول الحديث على الرغم منه إلى درس جماعى أو إلى عبرة أخلاقية أو إلى تعليق عام . فبدلاً من أن يسترسل فى وصف السين وصفًا أدبيًا ، وبدلاً من أن يمعن فى تحليل نفسيته وهو يتنزّه على ضفاف ذلك النهر ، نراه ينصرف إلى أفكار جماعية ويقول :

« فلولا نجامة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم وحسن

تدبيرهم واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم لكانت مدينتهم كلا شيء . فانظر مثلاً إلى نهر السين ، فإنه وإن كان نزهة فى أيام الحرّ فإنه قد يبلغ فى وقت الشتاء ثمانى درجات من الجمود ... فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا . كما هو شائع على لسان الناس من قولهم مصر أم الدنيا » .

وهو كذلك لا يعبّر عما يثيره فى نفسه من الرضا أو السخط حرّ باريس ، بل يتغير مجرى انفعاله بالطبيعة ، وتحجب عنا شعوره الذاتى صورة العجلة الرشاشة التى يود لو استطاع نقلها إلى شوارع القاهرة :

« فإنهم يصنعون دنًّا عظيمًا ذا عجلات ويمشون العجلة بالخيل . ولهذا الدن عدّة بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع فلا تزال العجلات ماشية والبزابيز مفتوحة ، حتى ترشّ قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة. ولهم غير ذلك من الحيل فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرّها ».

وقد جدّ رفاعة فى معالجة موضوع « تخليص الإبريز » من هذه النواحى الثلاث ، مزوّدا السائح بالمعلومات ، متحفا القارئ بجودة التصنيف ، مقارنًا دائمًا بين أحوال فرنسا « العجيبة » وأحوال مصر التى ينبغى إصلاحها . ويعترف رفاعة بأنه وشح كتابه بعد ذلك « ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة » ، أى بكل

ما وجده مفيدًا أو جميلاً . وكثيرًا ما بدت له فصول كتب الجغرافية والتاريخ الفرنسية مفيدة ، وكثيرًا ما بدت له أبيات الشعر العربى التى يحفظها جميلة . وليس يدهشنا الآن أن نراه قد أفسح فى « رحلته » مكانًا لأربعة كتيبات مستقلّة عنها كان أجدر به أن ينشر كلاًّ منها على حدة ، وهى ترجمته للدستور الفرنسى ، وترجمته « لنصيحة الطبيب » ، وتأريخه لثورة ١٨٣٠ ، ومقتطفاته من « العلوم والفنون » . ولقد شرح المؤلف وجهة نظره فيما يختص بالمقالة الأخيرة ، فقد أراد أن يكمل فائدة رحلته للقارئ بإيراد « ثمرتها » أيضًا .

وفى الواقع ، كانت لفظة « باريس » بالنسبة لرفاعة لفظة جامعة شاملة ، تمثل فى ذهنه البعثة الدراسية ، والطريق بما فيه الإسكندرية ، والمنظمات الأوربية ، والعلم الحديث . وذلك ما يبرر عنوانه الغريب ، فقد كانت كتابته فى هذه الموضوعات كلها استخلاصًا للذهب من مقامه الثمين فى باريس ، وتلخيصًا لمعارفه التى استقاها عن باريس ومعارفه التى حصلها فى باريس .

٥

لغة النهضة*

نشهد فى أسلوب « تخليص الإبريز » - كما شهدنا فى موضوعات الكتاب - تطوّر شخصية رفاعة الطهطاوى . إنها الرحلة بأشمل معانيها ، نتتبعه خلالها هنا على صعيد يتجاوز الآماد الجغرافية ، أو يوازيها ، هو صعيد التعبير .

يلاقينا أولاً الشيخ الأزهرى بعنوانه الرّنان المتشابك ، الكثيف السجع والجناس ، ثم بخطبة الكتاب التقليدية . ونلمس غلبة الصيغة التعليمية القديمة على التصنيف والتبويب وسياق النص . فمعظم الفصول ذات عناوين طويلة مستأنية « فى ذكر كذا وكذا .. » وتبدأ بعبارة « اعلم أن .. » ولا يمسك رفاعة عن التحقيقات اللغوية ، وهى تنصبّ على ما اعتاده من جوهرية الألفاظ العربية ، وتمييزها من الدخيل ، فهو يقول مثلاً بصدد بركان إتنا : « ويسمى الجبل النارى بلكان بضم الباء الموحدة

* نشر جزء من هذا الفصل بعنوان « ثورة النثر العربى يقودها رفاعة من باريس » بمجلة « الرسالة الجديدة » أكتوبر ١٩٥٨ ص ٤٤ - ٤٥ .

وسكون اللام ، ويقال ولكان بضم الواو ، وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة بركان بالراء ، ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس ، ويسمى طهمة بفتح الطاء وسكون الهاء كما ذكره المسعودى فى كتابه المسمى مروج الذهب » . ولا يمسك أيضًا عن التحقيقات الجغرافية والتاريخية فى شوارد وتخريجات يجرف الاستطراد قارئها إلى غير ما يقصد ، وحسبك أن تستعرض ما أورده فى « نبذته » عن الإسكندرية (الفصل الثانى من المقالة الأولى) . إن مراجعه - كالبيضاوى والشيخ خالد والأخضرى والدميرى - تدلّ على سعة اطلاعه وإن كانت تنتمى فى أغلبها إلى برنامج الأزهر .

وإلى جانب ذلك الاحتجاج التعليمى المباشر بالمراجع التراثية ، لا يكاد رفاعة فى أول أمره يتصرّف إذا أراد التعبير عن ذات نفسه وإنما ينحصر طائعا فى إطار من الأدب المأثور . حتى سفره ، لم ينسج فى إنشائه إلاّ على منوال من سبقوه . وعندما ألهمته ليالى « مسينا » - وهو على ظهر السفينة - معانى جديدة ، صاغ مشاعره فى شكل « مقامة » حافلة كما يقول « بأبيات مجنسة والبحث فى معناها ونوع تجانيسها وبالجواب عن بعض ألغاز نحوية إلى آخره » . إنه يزاول مع بعض رفاق الرحلة من الأزهريين ما درجوا على اصطناعه من تجميع الكلام للتظرف . وقد لاحظنا فى دراستنا لتاريخ تكوين الكتاب من ناحية ولمجالات موضوعه من

ناحية أخرى فيض الاستشهادات الشعرية والحكمية التى يكلف بها المتأدبون . وما القصيدة النونية التى نظمها بباريس فى مدح « ولىّ النعم » إلا سلسلة من العبارات المتداولة المطروقة المعادة .

ومن تلك التشبيهات والاستعارات الشائعة فى النصوص ما استبطن فكره ، وأصبح عادة ذهنية تربط فى نثره أحيانًا بين مفهومين أو لفظين ربطًا آليًا يقتحم الحديث المنطقى اقتحامًا ، مثل تداعى « المستحيل والعنقاء » فى تعليقه على المساواة التى نصت عليها المادة الأولى من الدستور الفرنسى ، ومثل الاستطراد إلى المفاضلة بين « السيف والقلم » أكثر من مرة .[1] غير أن ترابطًا من نوع آخر ،مبنيًا على وجه شبه لاحظه الكاتب شخصيًا ، لا يلبث حتى يقرن على صفحات « تخليص الإبريز » بين اسم من أعلام التراث الغربى واسم من أعلام التراث العربى ، بين « هرقول » و « عمرو بن يربوع » بين « مونتسيكو » و « ابن خلدون » ، أو بين « سيلفستر دى ساسى » و « الفارابى » .

وهذا الضرب الأخير من المقارنات هو فى الواقع وسيلة من وسائل الشرح والتقريب ، فهو جمع على أرض مشتركة بين عنصرين مختلفين ظهر تشابههما للكاتب .

وقد كان رفاعة وسيطًا بين ثقافتين ، فأصبح لا مفر له من دورة

---

(١) فى آخر الباب الرابع من المقدمة ، والفصل الثالث من المقالة السادسة .

المعانى فى عقله بهذه الصورة الازدواجية . وتلك هى الحركة التفكيرية التى مضت تدفعه نحو الترجمة .

لقد عالج رفاعة الترجمة فى باريس على أنها مقارنة فى سبيل الإدراك . فعندما أخذ يترجم دستور فرنسا، نشطت ذاكرته فى البحث عن مصطلحات من تاريخ النظم الإسلامية تعادل المصطلحات الفرنسية ، ووجد بعض ما يريد فوضع مقابل Loi كلمة « الشريعة » ومقابل trésor public « بيت المال » ، ومقابل département «عمالة » ومقابل Préfet « المحتسب » إلخ . وعندما أخذ فى ترجمة نصوص علمية استعمل - متبعًا نفس الاتجاه - تسميات العلوم القديمة عند العرب فترجم « الميكانيكا » بعلم « الحيل » والتاريخ الطبيعى بعلم « التولدات أو المواليد الثلاثة » والفلك أو الجغرافيا الرياضية بعلم « الهيئة » إلخ .

وفى ترجمة الشعر يبلغ به الأمر إلى أن يستبدل بالكنايات والتعبيرات الموروثة عن اليونان وأساطيرهم الزاخرة بالآلهة مصطلحات الشعر العربى التقليدية المألوفة ، وينتهى إلى إنشاء نصٍّ عربى مستقل ، يوازى النصّ الفرنسى الأصلى . ففى القصيدة التى أنشأها أستاذه « جوزيف أجوب » بعنوان « القيثارة المهشمة La Lyre brisée » وترجمها رفاعة شعرًا بعنوان « نظم العقود فى كسر العود » ، أصبحت Thaïre التى يتغنى بها أجوب حسناء عربية تسمى سعدى و « تتثنى لتخجل الغصن قدًّا » ، وتحوّلت الجملة

التالية : J'ai chantéles dieux, les rois, les héros, la beauté إلى هذا البيت الذى يتحاشى ذكر الآلهة فى صيغة الجمع :

باسم ربّى والسادة الأعيان وترنمت شجوة بالحسان

ومن هنا نفهم ما يعنيه رفاعة بقوله عن ترجمة هذه القصيدة :

« وأخرجتها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام » .

إنه يحاول أن يبعث من التراث العربى قوالب التعبير الثقافية والجمالية التى تقابل القيم الفكرية الحديثة ، وتفاصيل الحياة التى يعاصرها . ولكنه يصطدم بالعدم فى كثير من الأحيان ، فاللغة العربية التى بين يديه لغة قد تحجرّت منذ قرون طوال ، وتخلفت عن الركب ، وأصبحت عاجزة عن تسمية محاصيل الحضارة الأخيرة . وكم كان يتمنى لو أنه استطاع أن يوفق دائما بين ما يجده فى موارد الفرنسية والعربية من الجرْس والمعنى فى آن واحد ، كما وفق بين كلمة « شارت Charte »أى الميثاق وكلمة « شرط أو شريطة » وطلع علينا بكلمة جديدة هى « الشرطة » ! غير أن مثل هذا الالتقاء لم يتوفر له ولم يتيسر ، وهيهات أن يقع الحافر على الحافر مادامت أرض فى الشرق وأرض فى الغرب .. فيضطر رفاعة إلى الاحتفاظ بالكلمة الفرنسية راسمًا إياها بحروف عربية ، ولا سيما إذا كانت من الأسماء الجغرافية أو أسماء الأشهر ، فضلاً عن أسماء الأعلام . وهو ينقل تلك الألفاظ من الكتب نقلاً صوتيًّا تاما ، أى بإثبات كل حرف يراه فى الأصل . وبهذه الدقة نسخ :

Washington وشهنجتون ، و Afghanistan : أفغهانستان ، و Etats - Unis . الإيتازونيا[1]. وأما غير أسماء الأعلام ، فإنه ينقلها نقلاً صوتيًا مع شرح معناها للقارئ ، مثل سبكتاكل spectacle ، بال bal شمبر دوبير Chambre des pairs ، أكدمة Académie ، فسيولوجيا Phisiologie ، دلجنس Diligence ، أمنبوسOmnibus ، رسطراطورrestaurateur ، جرنال Journal إلخ .

على أنه يقنع بترجمة banquiers بصيارفة ، و acteurs بلاعبين ، و musiciens بالآتية . وتوخيًا للوضوح فى نقل المعنى ، قد يلحق رفاعة باللفظة الجديدة تعريفًا كاملاً كما قال فى ترجمة Chambre des députés « ديوان رسل العمالات الذين هم أمناء الرعايا ونوّابهم » . فإن الألفاظ فى رأيه هى التى ينبغى أن تكون فى خدمة المعانى ، وإن العلّة التى أوجدت اللفظ الأصلى هى التى ينبغى إبرازها فى أدائه بلغتنا . وهكذا يترجم - فى المادة العشرين من « الشرطة » après un délai de dix jours بعد التفكر عشرة أيام » لأن غاية تلك « المهلة délai» هى دعوة المجلس المذكور إلى إعادة النظر فى قراره أى « التفكر » .

وفى كتاب يرمى إلى نشر معارف جديدة بين جماهير الشعب - ومنهجه التخليص والتلخيص - يهتم المؤلف بالموضوع والفكرة قبل

(١) هى الولايات المتحدة الأمريكية .

أن يهتم بالشكل واللفظ . وهذا ما فعله رفاعة فى كل مناسبة . ففى ترجمته لمقولات أرسطو نلمس حرصه على تقريب الدرس إلى مدارك قرائه بضرب أمثلة يستمدّها من حياتهم اليومية فبدلاً من أن ينقل إليهم حرفيًا هذه العبارة :

« être à Rome, à Paris, dans son lit, dans son cabinet, dans sa chaise »

كتب : « قولك فى مصر فى الحريم فى الفراش » . إنه ليضحى بالحرف من أجل الروح .

ومادام الأمر أمر تعليم وإفهام وإصلاح ، فلابدّ من التصرّف بالتحرّك نحو الهدف ، وها هو ذا الأديب الذى شغف منذ صباه بفنون البلاغة والبديع ملزم بهجر ذلك النثر الأجوف ، تلبية لمقتضيات موضوعه . ملزم بكتابة جمل ناصعة نصوع البديهيات لا يلتبس فيها القول بتورية ولا كناية ولا تجنيس . إنه يعود على الرغم منه إلى الطبيعة والسجيّة . لقد أقنعه اكتشاف اللغة الفرنسية ، ورأى فى بساطتها عاملاً من عوامل دقتها العلمية ، فلم يكتم ثورته على كتب الأزهر المعقدة :

« ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها . فإن لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة فى تعلّمها . فأىّ إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد

تعلمها أن يطالع فى أىّ كتاب كان حيث أنه لا التباس فيها أصلاً ، فهى غير متشابهة .

وإذا أراد المعلم أن يدرس كتابًا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدًا ، فإن الألفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر بخلاف اللغة العربية مثلاً ، فإن الإنسان الذى يطالع كتابًا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها . وأما كتب الفرنسيس فلا شىء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شرّاح ولا حواش ، إلاّ نادرًا ، وإنما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة ، تكميلاً للعبارة بتقييد أو نحوه ، فالمتون وحدها من أوّل وهلة كافية فى إفهام مدلولها : فإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أىّ علم كان تفرّغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكّة الألفاظ ، فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن إنتاجه منها . وأما غير ذلك فهو ضياع ؛ مثلاً إذا أراد إنسان أن يطالع علم الحساب فإنه يفهم منه ما يخصّ الأعداد من غير أن ينظر إلى إعراب العبارات ، وإجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كذا ،

ولو أخره كان أولى ، وأنه عبّر بالفاء فى محل الواو والعكس أحسن ونحو ذلك .. »

ومع إعجاب رفاعة بفعالية اللغة الفرنسية ، فقد رُدَّ إلى البساطة ردًّا حينما أخذ يدوّن مشاهداته فى كتاب رحلته . وما رصد الأشياء الجديدة ، غير المعتادة ، سوى تحليل وشرْح ، سوى تبسيط وتوضيح ، وتتبع لخطوط تلك الأشياء كما اجتلتها عين يقظة ، لا انسياق وراء أنغام المقاطع اللفظية السانحة البارحة ..

وفى تخليص الإبريز ظاهرة لا يجوز إهمالها ، ألا وهى اقتصار السجع على مناسبات قليلة تعمّد المؤلف أن يثبت فيها براعته وطول باعه . وقد أراد رفاعة من سجع العنوان والخطبة إرضاء الخاصة وإغراء العامة ، ليقبل على قراءة كتابه الأزهريون وغير الأزهريين . وأما سجع صفحات الثناء والمديح التقليدى فقد أراد به أن يطرب محمد على ورؤساء البعثة أمثال « الدويدار » و « المهردار » من الناطقين بالتركية . فهؤلاء يحسّون بوقع الألفاظ المتشابهة فى آذانهم أكثر مما ينشطون لاستيعاب معانى لغة غير لغتهم. وهكذا أوحوا بالرجعية فى الكتابة . ومما يؤيدنا فى هذه النظرة أن رفاعة لم يتكلف السجع فى مدحه لسيلفستر دى ساسى مع أنه مستشرق كبير خليق بأن يتذوق جمال اللغة وحسن الصناعة .

إن هذا التطور فى الأسلوب لثورة خطيرة فى تاريخ الأدب . فمنذ رفاعة لم يعد النثر المزين المسجوع هو الأسلوب العربى

الوحيد ولا الأسلوب العربى الأفضل ، و « تخليص الإبريز » ينبئ بزوال دولة البديعيين الذين سادوا فى قرون الانحطاط . فبفضل صفحات كثيرة من هذا الكتاب تحرر النثر العربى من قيوده . ولم يفت « سيلفستر دى ساسى » و « كوسان دى برسفال » أن يهنئا رفاعة على بساطته . وقارئ « تخليص الإبريز » يلمس إلى أى الحدود امتدت تلك البساطة . ففى سبيل إبلاغ رسالته إلى السواد الأعظم من مواطنيه لم يتحرج الرحالة عن الركاكة والأخطاء والنقل المباشر . وانتظر أن يكتسب الإجادة والإتقان من طبعة إلى طبعة ، بالتنقيح والتمحيص ، ثم من كتاب إلى كتاب ، بالعمل المتّصل ، فتلك سنّة الارتقاء ، وما كان ينبغى أن يعوقه شىء عن نشر أنوار المعارف وتبديد الظلمات التى تكاثف بعضها فوق بعض . لم يتردد إذن ولم يتراجع ، لم يتحيّر ولم يتخيّر ، بل استخدم جميع ما وجد من وسائل التعبير . ومن هنا كان تنوّع الأسلوب فى « تخليص الإبريز » .

يجذبنا أولاً أسلوب الصحافى الفطن ، المتنبّه إلى العالم المحيط به . فهذه أحاديث طلية ، مرسلة ، لا رقيب على سياقها إلا طبع مخلص كريم ، يفضل استخدام العامية على الغموض . وهل يستطيع قارئ أن ينسى تلك الصفحات الساذجة عن اكتشاف المائدة والمقهى فى مرسيليا ، وعن اكتشاف المسرح فى باريس ؟ على أن رفاعة ليس من أنصار العامية حتى يجعل منها وحدها لغة الكتابة

على الإطلاق ، ولا هو من خصوم العامية حتى ينبذها نبذًا ، وإنما يلجأ إلى ألفاظها المعبّرة إذا اقتضاه الحال : فالرقص نوع من « العياقة والشلبنة » ، والمائدة « طبلية عالية » ، والعربة الرشاشة ذات « بزابيز » ، والفرنسيون يكرهون الكسل و « التنبلة » ، و « مصر أم الدنيا » ..

وإلى جانب أسلوب الصحافى الجائل ، نجد قلم اللغوى المتبحر ، الذى يخطّ تارة كلمات عربية نادرة مثل « الفلق » ، وتارة أخرى تسميات منسيّة مثل « العمالة » ، وينشئ تارة ثالثة كلمات جديدة مثل « الشرطة » . وهناك المترجم أيضًا ، تنم عنه استعمالات غريبة لكلمات عادية مثل « الزمن » يعنى بها الطقس أو الجو[1]

ولن نحاول هنا أن نحصى العناصر التى يتكون منها أسلوب « تخليص الإبريز » ، وحسبنا أن ننبّه إلى تعدّدها وتباينها . وفى هذا التعدد وهذا التباين ما يميّز لغة عصر النهضة . فهى لغة تتفاعل ، وتتشبث بالحياة ، وتسعى إلى استكمال ما ينقصها ، لتخدم جميع الأغراض . كذلك كانت اللغة الفرنسية فى القرن السادس عشر ، تثقلها الألفاظ المستعارة من اللاتينية والإيطالية ، ولكنها تنشد البساطة ، وتجتهد للتعبير عن كل فتح مبين حققته الإنسانية .

---

(١) راجع بحثنا فى مفهوم الزمان عند رفاعة الطهطاوى وطه حسين فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

إن كل شيء في « تخليص الإبريز » - من العنوان وخطّة الكتاب ونيّة المؤلف إلى آخر حدود زياداته وإمكانيات أسلوبه - كل شيء يصوّر لنا تلك الحقبة الفاصلة في تاريخ حياتنا الفكرية .

٦

عرفوه فقالوا ...*

للتعرف بأديب راحل ، يرجع المؤرخ إلى ما خلفه هذا الأديب من أعمال ، كما يرجع إلى ما كتبه أو رواه عنه معاصروه . وقد اعتاد مؤرخو رفاعة بيننا أن يستشهدوا برجلين اثنين عرفاه معرفة مباشرة ، وترجما لحياته باللغة العربية فى صفحات قليلة .

أما الأوّل فهو « صالح مجدى » الذى تتلمذ على فاعة فى مدرسة الألسن ، وعمل معه فى قلم الترجمة ، ثم تولّى تدريس العربية والفرنسية لطلاب المهندسخانة ونشط فى تعريب فروع الرياضيات ، كما شارك فى تحرير مجلة « روضة المدارس » وفى ترجمة القوانين ، وعين قاضيًا بالمحكمة المختلطة حتى توفى عام ١٨٨١ عن ثلاث وستين سنة وعن عديد من المترجمات والكتب لا يزال بعضها مخطوطًا . وقد ظلّت سيرة أستاذه رفاعة التى عنونها « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » من المخطوطات المعروفة بدار الكتب المصرية

* نشر جزء من هذا الفصل بعنوان « رفاعة رافع الطهطاوى ، الأزهرى الذى أدهش علماء الغرب » بمجلة « الهلال » – القاهرة ، ديسمبر ١٩٥٨ ص ٧٩ – ٨٤ .

حتى قام بنشرها مساهمة فى إحياء ذكرى رفاعة سنة ١٩٥٨ الدكتور جمال الدين الشيال رحمه الله .

وأما الثانى فهو الوزير الشهير « على مبارك » ، الذى بدأ بترسّم خطا رفاعة ثم زاحمه وتفوّق عليه فى الرتبة والمنصب ، ولكنه لم يستطع أن يتجاهله أو ينكر فضله . وقد حدثنا عنه فى الفصل الذى أنشأه فى « الخطط التوفيقية » عن مدينة طهطا .

ومن الطبيعى أن تختلف نظرة كلٍّ من هذين الرجلين إلى رفاعة ، وألّا نجد فى كتاب على مبارك ذلك الإعجاب المتدفق الذى يملأ صفحات صالح مجدى . فقد رصد كل منهما شخصية الرائد الأول من زاوية خاصّة . وهذا خير لتاريخ الأدب والفكر . فكلما تعدّدت الزوايا تكشّفت الشخصية المرسومة ، واستطعنا أن نجتلى ملامحها بمزيد من الوضوح والدقة .

ولكن صالح مجدى وعلى مبارك – مهما اختلفت علاقة كل منهما برفاعة – يتفقان فى وجهة النظر العامة ، فهى وجهة النظر المصرية ، التى يقتصر مجالها على بيئتنا ، وتهتم بتحديد مكان هذا المصلح منها وبسرد أعماله . ومن حقّنا أن نبحث عن وجهات النظر الأخرى فيما كتبه عن رفاعة معاصروه من غير المصريين . فقد خالطه عدد من المستشرقين والأدباء والصحافيين الأجانب ، فى باريس وفى القاهرة وفى الخرطوم ، أى فى فترات متفرّقة وأماكن متباينة ، وسجلوا آراءهم فيه كما بدا لهم . وهم يزنونه فى أغلب

الأحيان لا بميزان مصر فحسب ، بل بميزانهم الغربى أيضًا . وقد آن لنا أن نقدّر هذا الرجل تقديرًا عالميًّا ، إنسانيًّا ، لا تقديرًا محليا فقط . ترى كيف تلوح صورة رفاعة الطهطاوى فى مرآة الغرب ؟ .

* * *

لعل أوّل من اكتشف مواهب رفاعة فى باريس ، حينما وصل إليها سنة ١٨٢٦ إمامًا للبعثة التعليمية ، هو المدير الفرنسى لهذه البعثة «إدم فرنسوا چومار Edme - Francois Jomard» كان جومار مهندسًا جغرافيًا من علماء الحملة الفرنسية الذين حشدهم بونابرت إلى جانب ضباط جيشه ، وهو الذى أشرف فيما بعد على نشر الكتاب الضخم الذى ضمّ دراسات أولئك العلماء بعنوان « وصف مصر » . وقد أصبح جومار رئيسًا للجمعية الجغرافية ، وعضوا عاملًا فى كثير من الهيئات الثقافية والتربوية ببلاده . ولم ينقطع اهتمامه بمصر ، بل اتصل مرارًا بواليها الجديد محمد على ، وأفلح فى اجتذاب بعثاته إلى باريس وكانت قد اتجهت فى أوّل الأمر نحو إيطاليا[1] .

توسم جومار فى ذلك الشيخ الملتحى الذى يبلغ الخامسة والعشرين من عمره صفات الذكاء وحبّ الاستطلاع والعزم ، فجعله موضع عنايته الخاصة ، وأغدق عليه النصح والإرشاد ، ورسم

(١) راجع الفصل الأول من هذا الكتاب .

له برنامجًا لدراسة اللغة الفرنسية والإلمام بآدابها وبمبادئ العلوم الحديثة حتى يكون مترجمًا نافعًا ، وقد صدقت آمال جومار ، وأضحى رفاعة همزة الوصل المنشودة بين عقلية الغرب وتراث الشرق . وحفظ رفاعة الجميل لهذا الرجل ، وأشاد أكثر من مرّة بمنزلته العلمية وإخلاصه وحسن رعايته ، فى كتابه الطريف : « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، وظلّ يكاتبه بعد عودته إلى مصر . أما رأى جومار فى رفاعة فهو رأى مشرّف فى جميع المناسبات. هنأه سنة ١٨٢٧ بنتيجة الامتحان الأوّل وهو يمنحه جائزة اللغة الفرنسية ، ثم فى العام التالى وهو يمنحه جائزة أخرى لتفوقه فى « النحو الفرنساوى » . وهذه عبارة ختم بها تعليماته فى رسالة تاريخها ٢٥ يونيه سنة ١٨٣٠ ترجمها لنا رفاعة : « ... ولا يخفى علىّ اجتهادك ، ولا أجهل ثمرة تحصيلك » . وليست هذه العبارة من قبيل المجاملة ، فقلما وجهها مدير المدرسة المصرية فى باريس إلى غير رفاعة من المبعوثين . وبلغ من تقدير جومار لرفاعة أن رشّحه فيما بعد لعضوية الجمعية الجغرافية الفرنسية .

وخير ما يصور لنا رفاعة « التلميذ » فى باريس ، هذه الشهادة القصيرة التى كتبها مدير « البنسيون » الذى أقام فيه الشيخ ، وتعلّم مدة ثلاث سنوات ونصف . وهو مهندس يدعى « شفالييه » « Chevalier » عهد إليه جومار بالإشراف على رفاعة . والشهادة مترجمة بقلم رفاعة نفسه :

« .. لم أر منه إلّا أسباب الرضى ، سواء فى تعليمه ، أو فى سلوكه المتميز بالحكمة والاحتراس ،وحسن خلقه ، ولين عريكته . وقد قرأ معى اللغة الفرنسية والطبغرافيا فى السنة الأولى ، وقرأ فيما بعدها الجغرافيا والتاريخ والحساب وغير ذلك . ولما لم يكن لديه الاستعداد اللازم لتعلم الرسم فإنه لم يشتغل به إلّا مرّة فى كل أسبوع ، لمجرد الامتثال للأوامر . ولكن صرف جهده ، مع غاية الغيرة ، فى الترجمة التى هى صنعته المختارة له . وأعماله فيها مبينة فى إعلاماتى الشهرية خصوصًا فى التقارير الأولى التى قدمتها لمسيو جومار. وحسب هذا التلميذ مافى هذه الإعلامات والتقارير.

ومما ينبغى التنبيه إليه أن غيرة (مسيو) رفاعة دفعته أن يظلّ ساهرًا فى عمله إلى ساعة متأخرة من الليل مما سبب ضعفًا فى عينه اليسرى حتى احتاج إلى الطبيب الذى نهاه عن المطالعة ليلاً ، ولكنه لم يمتثل خوفًا من تعويق تقدمه . ولما رأى أن من الأفضل للإسراع فى تكملة تعليمه أن يشترى كتبًا أخرى غير ما سمح به « الميرى » وأن يتخذ معلّما آخر غير معلّم « الميرى » ، أنفق جزءًا كبيرًا من مرتبه المخصص لشراء الكتب ، واتخاذ معلّم مكث معه أكثر من سنة ، وكان يدرس عليه فى الحصة التى لا يقرأ معى فيها . وقد رأيت أنه يجب علىّ بمناسبة سفره أن أعطيه هذا الإعلام الموافق لما فى الواقع ونفس الأمر ، وأن أضيف إلى ذلك الإفصاح عما فى ضميرى من كمال اعتقاد فضله ومحبته » .

وأما صورة رفاعة « المؤلف » . ورائد الأدب الحديث ، فنجدها منعكسة على ما كتبه عنه المستشرقون الذين اتصل بهم فى باريس ، وناقشهم فى مباحث اللغة ، وعرض عليهم مسودة كتاب رحلته ، ولا سيما « سيلفستر دى ساسى » « Silvestre de Sacy » و « كوسان دى برسفال » « Caussin de Perceval »

يقول سلفستر دى ساسى : « إن المؤلف جيد النقد سليم الفهم، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به إلا على أهل باريس وبعض المدن الكبيرة ، لأنه لم ير إلّا باريس وبعض المدن . وقد حرص فى باب العلوم على ذكر المعلومات توطئة للتوصل إلى المجهولات ، خصوصًا فى نبذته المتعلقة بعلم الحساب وبهيئة الدنيا . وعبارة هذا الكتاب فى الغالب واضحة ، غير متكلف فيها التنميق كما يليق بمسائل هذا الكتاب ، وليست دائمًا صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ، ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى « تسويده » ، وأنه سيصلحه عند « تبييضه » . وفى التكلم على الشعر ذكر استطرادًا بعض أشعار عربية أجنبية عن موضوع هذا الكتاب على ما يظهر لى ، لكن ذلك ربما أعجب إخوانه من أهل بلاده ... وبالجملة فقد ظهر لى أن مسيو رفاعة أحسن صرف مدة إقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعًا لبلاده . وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس . وله عندى منزلة عظيمة ومحبّة جسيمة » .

ويقول كوسان دى برسفال : « إن هذا التأليف يستحق كثيرًا من المدح ، وهو « مصنوع » على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف . فقد أهدى لهم نبذًا صحيحة من فنون فرنسا وعوايدها وأخلاق أهلها وسياسة دولتها . ولما رأى أن وطنه متأخر عن بلاد أوربا فى العلوم البشرية والفنون النافعة ، أظهر الأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولّد عندهم محبّة تعلّم التمدن الإفرنجى . والترقى فى « صنايع المعاش » . وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك . وبعض العبارات تدلّ على سلامة عقله وخلوّه من العسف والتحامل . وعبارة هذا الكتاب بسيطة ، أى غير متكلف فيها التنميق ، ومع ذلك فهى لطيفة .. والكتاب يدل على رفعة عقل مؤلفه واتساع دائرة معرفته » .

* * *

وفى سنة ١٨٤٤ زار مصر أستاذ من أساتذة « السوربون » و« الكوليج دى فرانس »، هو الشاعر الناثر، والصحافى الناقد، واللغوى المؤرخ « چان چاك أمبير » « Jean Jacques Ampère » فى بعثة رسمية لدراسة الآثار الفرعونية . وكان چان چاك أمبير من أشهر أعلام الثقافة الفرنسية فى ذلك العصر ، يتمتع بمثل شهرة أبيه « أندريه أمبير » صاحب الاختراعات التى خلدت اسمه فى علم

الكهرباء . وخطر لمحمد على أن ينتفع بمعارف الأستاذ الزائر ، فكلفه بأن يمتحن الطلبة فى مدرسة « المهندسخانة » ، ولكن الأديب اعتذر بلباقة قائلا إن أباه لو كان حيًّا لكان أجدر منه بهذه المهمة . على أنه قبل أن يقوم بجولة تفتيشية فى مدرسة الألسن وقلم الترجمة .

ويروى لنا « أمبير » فى صفحة لاذعة الفكاهة ، كيف سأل أحد طلبة « الألسن » أن يعلق على معنى النص الذى قرأه ، وكان نصًّا خطيرًا من نصوص « روسو » أراد أستاذ « السوربون » أن يتسمّع أصداءه البعيدة فى عقلية أفريقية ، فأجابه الفتى الأسمر بعد صمت واضطراب إجابة بلاغية آلية ! غير أن الزائر أخذ يعبّر عن دهشته من استيعاب الفرق الدراسية لقواعد اللغة الفرنسية ، ثم يثنى على عمل المترجمين الذين يقودهم رفاعة « هذا الرجل الممتاز ، ذو العوائد الرقيقة اللطيفة » .

ويتحدث أمبير عن رحلة رفاعة إلى باريس ، ويجتهد فى البحث عن صورة فرنسا فى « تخليص الإبريز » ، متمنيًا ترجمة هذا الكتاب حتى يتاح للقراء الفرنسيين أن يروا أنفسهم فى مرآة شرقية . وكان أمبير ملمًّا بالعربية ، فاستطاع أن يلمس روح التحرر التى دعا بها رفاعة إلى اقتباس الحضارة الحديثة من ناحية ، ونقد بها من ناحية أخرى حياة الفرنسيين فى بلادهم .

ولكن رفاعة رسول الحضارة والتحرر والارتقاء أثار مخاوف

الوالى المستبدّ « عباس باشا » فكان جزاؤه إلغاء مدرسة الألسن والنفى إلى السودان . وفى الخرطوم يلتقى به أديب سويسرى من أهل جنيف يدعى « شارل ديديه » Charles Didier أثناء رحلة طويلة تابع فيها مجرى النيل . وبعد أن سجل « شارل ديديه » جور عباس باشا ، وعرفنا برفاعة فى عهد محمد على « مديرًا جليلاً لمؤسسة أشبه بمدرسة عليا للمعلمين » يقول :

« نفى عباس باشا هذا المدير إلى الخرطوم ، حيث مضى يشتغل - كالقديس دينيس فى كورنثوس - بتعليم الأطفال القراءة ، ليكسب عيشه . لقد كانت السقطة عنيفة ، بيد أن أستاذنا احتملها فى جلد ، وامتثل لأمر الله كما ينبغى أن يمتثل المسلم الطيب . لقد اجتمعت به عدّة مرات . كان رجلا لا بأس بثقافته إذا قورن بالمصريين ، وإن لم يكن غزير العلم فقد كان يتذوق العلم ويحبّ تحصيله . ولما كان من خريجى المدرسة المصرية بباريس ، فقد كان يتكلم الفرنسية . وقد نشر بالعربية كتابًا عن رحلته وإقامته بفرنسا . إن طبعه أميل إلى السخرية منه إلى الإعجاب ، فكثيرًا ما يجد فى الباريسيين مادة للضحك » .

ويختم « ديديه » حديثه هذا بنفس الأمنية التى راودت « أمبير » طالبًا ترجمة « تخليص الإبريز » إلى الفرنسية ، أو على الأقل صفحات منه على سبيل المثال ، ليقف القارئ الغربى على أحاسيس مصرى انتقل فجأة إلى « البولفار ديزيتاليان » .

وأقبل « لويس ديلاتر » « Louis Delatre » ليقوم بتحقيق صحفى عن « مصر فى سنة ١٨٥٨ » ، نشره فى أواخر ذلك العام بمجلة « الشرق والجزائر » . وقد كان رفاعة أوّل شخصية زارها الصحافى فى القاهرة بعد القنصل الفرنسى . وحديثه عنه حديث شائق مفصّل صريح . يبدأ بوصفه فى بيته فيقول :

« يسكن رفاعة بك بيتًا ريفيًّا صغيرًا على طريق شبرا ، يقع على مسيرة عشر دقائق من الأزبكية . وهو رجل قصير القا مة ، فى نحو الخمسين من عمره ، تنبئك عيناه المتوقدتان عن روحه الحيّة ، وقد عاد عليه قصر قامته - كما يلاحظ هو فى سماحة وظرف - بالضرر أكثر من مرة ، فى بلد لا يقدر فيه الرجال بقيمتهم الأدبية ، بل بقيمتهم البدنية وضخامة بطونهم ... ويجلسنى رفاعة بك بجانبه على ديوانه ، ويقدم لى غليونًا والقهوة التقليدية ، ويكلمنى عن أصدقائه فى باريس ، ويمدّنى عن شخصه وعن ماضيه بالمعلومات التى أنقلها . وقبل أن نفترق ، نحدد يومًا لنذهب فيه معًا إلى المدرسة الحربية ، التى حلّت محل مدرسة الألسن » .

وأما حياة رفاعة فيوجزها « ديلاتر » بأسلوب ما قلّ ودل فيقول :

« ينتمى رفاعة إلى إحدى الأسر الإقطاعية التى جردّها محمد على من جميع أملاكها ، وأنزلها من مرتبة السادة إلى مرتبة الأتباع ، ولكن محمد على ، ولو أنه سلبه ثروته فقد أعطاه بدلا منها التعليم

الذى هو أثمن من الذهب . لقد درس رفاعة فى شبابه اللغة العربية والتوحيد بالجامع الأزهر ، ثم أتم دراسته بباريس ، فكان يسمع محاضرات السوربون والكوليج دى فرانس ، واتصل اتصالاً وثيقًا بالأساتذة جومار وسيلفستر دى ساسى وكوسان دى برسفال وجارسان دى تاسى ورينو وبغيرهم من كبار المستشرقين . وعندما رجع رفاعة بك إلى مصر ، كلف بتدريس عدة مواد بمدرسة الطب . وبعد انقضاء سنتين عين مديرًا لمدرسة الألسن ومفتشًا بمدرسة الأمراء وأثناء هذا كله كان يخصص أوقات فراغه لترجمة أفضل كتبنا العلمية إلى اللغة العربية لينتفع بها التلاميذ . ويبلغ عدد المؤلفات التى ترجمها نحو ثلاثين كتابًا طبعت فى مطبعة بولاق التى أسسها محمد على . وأهم كتبه الموضوعة هو كتاب رحلته إلى فرنسا، وفيه يحكم على أخلاقنا وعاداتنا دون تحامل ، ويروى ثورة يوليه ويشرحها بنظرات جدّ صائبة . وفى سنة ١٨٥٢ ، أمر عباس باشا بإغلاق جميع المدارس ، وأرسل رفاعة منفيًّا إلى السودان ، غير أنهم خلعوا على هذا العمل الهمجى مظهرًا زائفًا ، وأطلقوا عليه كلمة «بعثة » . وبقى هناك حتى تولى الحكم سعيد باشا فأعاد المدارس، واستدعى الأساتذة . وكان بعض أولئك التعساء ، وقد حرموا من المرتب الذى كان موردهم الوحيد ، قد راحوا يزاولون أعمالاً يدوية كسبًا لعيشهم ، فاشتغل بعضهم بالحياكة ، وبعضهم إسكافية ، وبعضهم خدمًا . وينبغى أن نعترف بأن هذا المثل لم يكن

مما يشجع المصريين على الانخراط فى سلك الآداب » .

ثم يقصّ ديلاتر زيارته للمدرسة فيقول :

« وذات صباح جميل ، أنبئت بأن رفاعه بك ينتظرنى ، على صهوة جواده ، عند باب الفندق . فامتطيت حمارًا وانطلقنا . وصعدنا السفح الذى يؤدى إلى القلعة ، ووصلنا أمام بناء كبير مطلى باللون الأبيض . كان ذلك مقرّ المدرسة . ويقودنى رفاعة بك إلى فصل تلو فصل . وفى جميعها يسود نظام كامل . وأسأل التلاميذ فى الفرنسية والإنجليزية والألمانية ، فيجيبون على أسئلتى بطريقة مرضية جدا . ثم أملى عليهم بضع جمل بهذه اللغات المختلفة ، فيكتبونها دون أدنى خطأ . ويبدو لى أن هذه المدرسة ستأتى بثمارها ، وأن خريجيها يستطيعون أن يؤدّوا خدمات نافعة لبلادهم . ويرجع ازدهار المدرسة الجديدة إلى مثابرة رفاعة بك وحده . فإنها لا تغيب لحظة عن خاطره ، وهو لا يني عن شحذ همّة الأساتذة والتلاميذ . ففى المدارس ، كما فى المصانع يتوقف كل شىء على الإدارة الحازمة والحكيمة . وبعد انتهاء جولتنا ، جلسنا نستريح على أرائك قاعة المجلس .. » .

ويستخلص الصحافى من مشاهداته وتحقيقه هذا الحكم : « لو كان فى حوزة مصر خمسة رجال أو ستة مثل رفاعة بك ، لكسبت الحضارة قضيتها . ولكن رفاعة وحده يحسده زملاؤه « العلماء » ويكرهونه ولن يوجد من يصلح ليحلّ محله . إن الحضارة الأوربية

تخيفهم لأنها تعتمد على حرية النقد » .

هكذا يشهد « لويس ديلاتر » لرفاعة بأنه بطل التحرر العقلى فى بلد مازال يصارع غياهب العصور الوسطى . فما بال الفيلسوف « رينان » "Renan" يتهمة بالجمود والرجعية !؟ لقد أعلن « رينان » ثورته الشهيرة على الأديان ، إذ كان يرى فى الإيمان بعقائدها حجرًا على التفكير ، فهاجم المسيحية هجومًا عنيفًا ، وهاجم الإسلام فى محاضرة ألقاها بالسوربون سنة ١٨٨٣ وأراد أن يبين ما زعمه من نفور المسلم من العلوم – « من علم الطبيعة لأن فيه منافسة لله ، ومن علم التاريخ لأنه إذا طبق على عصور ما قبل الإسلام قد يحيى الضلال القديم » إلخ . وخيل إليه أنه لن يجد مثلاً يضربه خيرًا من مثل « الشيخ رفاعة » الذى أقام عدة سنوات فى باريس ، إمامًا للمدرسة المصرية ، والذى ألف بعد عودته إلى مصر كتابًا مليئا بأغرب الملاحظات على المجتمع الفرنسى ، ويحاول رينان أن يدين لدى رفاعة « فكرة ثابتة » هى أن العلم الأوربى ، الذى يقرّ مبدأ استمرار قوانين الطبيعة ، ما هو إلاّ بدعة من أوّله إلى آخره ! » ..

ما أقسى هذا الرأى فى رفاعة المجدد ، وما أبعده عن الحقيقة ! ولو قد قرأ « رينان » تخليص الإبريز للمس فيه نقيض ما يزعم ولأنصف رفاعة. ومن المؤسف أن « جمال الدين الأفغانى » الذى كان إذ ذاك فى باريس وتصدّى للردّ على «رينان » لم يصحح حكمه

هذا الجائر على إمام نهضتنا . وأكبر الظن أن جمال الدين كان فى شغل شاغل من مناورات السياسة فلم يقرأ « تخليص الإبريز » موضوع الاتهام - على حين كان الكتاب فى متناول يده بمدرسة اللغات الشرقية فى باريس ! وقد حدث هذا بعد انقضاء عشرين سنة على وفاة رفاعة ، ولكن لا عذر لرينان على كلّ حال ، فقد كان فى مقدوره أن يتصل برفاعة شخصيًا عندما زار مصر سنة ١٨٦٤ .

* * *

إن لرفاعة الطهطاوى فى كتب معاصرية صورتين متكاملتين ، نرى الأولى فى مرآة الغرب - من جومار إلى رينان - وهى خصوصًا صورة « التلميذ » ، ونرى الثانية فى مرآة الشرق - أى فى صفحات صالح مجدى وعلى مبارك - وهى خصوصًا صورة « الأستاذ » . ولابد للباحث عن شخصية هذا الرائد من ضم الصورتين فى إطار واحد .

٧

أدب جديد

قبل أن نحاول تحديد أثر الطهطاوى فى أدب القرن التاسع عشر[١] أودّ أن ألقى سؤالاً عامًّا : ما هو أقدم نص أدبى من تراث القرن الماضى يستسيغ المثقف المصرى قراءته - إذا افترضنا أن هناك مثقفين يقرءون مؤلفات ذلك العهد قراءة متعة لا تخصص ؟

لاشك أن أطرف تلك النصوص الغابرة وأقربها إلى الشعور المعاصر والعقلية المعاصرة هى « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، أوّل كتاب نشره رفاعة ، فقد طبع فى القرن العشرين أربع طبعات وقدمته الصحافة لهذا الجيل فى عشرات من المقالات الشائقة . ولعلّ موضوع الرحلة هنا موضوع رمزى يدل على انتقال الأدب ذاته إلى مرحلة جديدة ، بيننا وبينها صلة حياة .

---

(١) ألقى هذا البحث فى ندوة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى التى عقدتها كلية الألسن بالقاهرة (١٨ - ٢١ ديسمبر ١٩٧٦) ، بعنوان « أثر رفاعة الطهطاوى فى أدب القرن التاسع عشر » . ونشرته مجلة « البحث العلمى » التى يصدرها المعهد الجامعى للبحث العلمى بالرباط ، العدد ٢٨ ، يوليو - ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٣٦٥ - ٣٨٠ .

أجل ، قلّبوا ما سبق « تخليص الإبريز » فى حوليات الأدب المصرى من نثر وشعر ، تجدوا رمادًا كثيفًا متراكمًا ، اللهم إلّا جذوات خافته قد تتوهج تحته أحيانًا فى صفحات الجبرتى . وصفحات الجبرتى حاشدة بذكر أعلام الأدب فى القرنين السابقين ، فهو يترجم لهم ويعدد مآثرهم ويستعرض مصنفاتهم ، ولكن فى ذلك كله لا يكاد يقدم لنا سوى نموذج واحد من العلماء يتلخص فى أن فلانًا أخذ عن الشيخ فلان وأجاد كذا وكذا من علوم الدين وشرح أو لخص أو ذيّل متنًا من المتون المتداولة فى الفقه أو الحديث أو التفسير أو النحو ، وتصدّر للتدريس بمسجد كذا أو للقضاء أو الإفتاء ، وربما دبج الرسائل أو نظم شعرًا فى المديح أو الزهد أو الرثاء . قائمة الموضوعات محدودة ، معروفة ، ثابتة . عناوين المتون وشروحها متشابهة ، معادة مسطحة . والفكر قاصر عن طرح مسائل جديدة من فرط دورانه فى حلقة من المناقشات المغلقة . أما الأساليب فقوالب متحجرة ، تستبعد بجمودها دبيب الحياة وتصدّ نفح الخيال . وليس من ينكر نشاط العلماء الضخم فى العصر العثمانى ، ولكنه نشاط يتمثل فى التكرار لا فى البحث المتعمق الخصب ، وانشغال ذهنى يهدف إلى الاستظهار ، ويؤدّى إلى ما يشبه الاجترار العقلى ، لا إلى معاناة الإنجاب أو قدح الأصالة الخلّاقة .

ويوشك هذا الركود على الانجلاء إذ نلمح على بعض الوجوه بين معاصرى الجبرتى شيئاً من نبض الحياة ، وكأنها بداية لعودة

الروح . فى صوت الجبرتى نفسه نبرات الوعى القومى ، وهى نبرات تعلو بوضوح طوال تأريخه للحملة الفرنسية على مصر . أجل ، لقد أيقظت طلقات مدافع بونابرت شعبًا نائماً ، ونبهّته إلى وجود عالم خارجى لابد من النهوض لمواجهته . ومجابهة الغير أنجع وسيلة لمجابهة النفس وإثبات الشخصية .

هذه الظاهرة تلوح كذلك لدى صديقين من أصدقاء الجبرتى هما الشاعر الظريف إسماعيل الخشاب ، والشيخ الأديب حسن العطار . وحسبنا أن نتعرف جانب الأصالة لدى الشيخ حسن العطار ، فهو الذى تتلمذ عليه رفاعة الطهطاوى وتأثر به فى مطلع شبابه .

حضر رفاعة فى الأزهر دروس نفر من الشيوخ لم ينفضوا بعد غبار الركود العثمانى ، كالفضالى وحسن القويسنى والدمهوجى . ونلاحظ أنه لم يوطد صلته بهم . وإنما اجتذبته حلقة الشيخ العطار . ولم يلبث الشيخ العطار أن اصطفى ذلك الفتى الصعيدى وآثره بودّه ورعايته لما آنسه فيه من الذكاء وحبّ المعرفة . وتجاوب المزاجان . يقول على مبارك :

« وكان له - أى لرفاعة - منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطار ، فكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغريبة التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر » .

وفى هذه العبارة التى تجمع بين الأستاذ وتلميذه تبرز أمامنا السمة

التاريخية التى تميز بها الشيخ العطار من زملائه فى الأزهر ، ومن أهل عصره عامة ، إلا وهى نزعته إلى مطالعة «الكتب الغريبة». ما عساها أن تكون تلك الكتب ؟ وما وجه الغرابة فيها ؟ .

إذا استعرضنا حصيلة الشيخ العطار الأدبية ، وجدنا مؤلفاته تنتمى أوّلا إلى التيار التقليدى ، لاسيما حواشيه على كتب التوحيد والأصول والنحو والبلاغة ، تضاف إليها محاولة شخصية فى الإنشاء الأدبى ، غير أنها لا تكاد تعدو الحرص على أناقة التعبير وتحليته بالمحسنات البديعية . إنما تبدو رقة إحساس حسن العطار فى رسائله الاخوانية وفى أشعاره . وكان ذوقه الشعرى مرهفًا ، يستهويه الشعر الأندلسى ، فجمع ديوان ابن سهل وبوّبه . وكان من ناحية أخرى مولعًا بعلم الجغرافيا ، فرفاعة يذكر تعليقه على كتاب « تقويم البلدان » لأبى الفداء ، ولابّد قد استمع لأحاديثه الممتعة عن كثير من المدن التى زارها بنفسه ، فقد جال العطار فى فلسطين وتركيا وأقام فى دمشق . هذا فضلًا عن اهتمامه بالتاريخ اهتمامًا يشهد به الجبرتى . ولعل تلك الثقافة المنوعة هى التى تصفها بالغرابة عين الناظر من داخل الأزهر .

ومما لاشك فيه أن اتصال حسن العطار بالفرنسيين فى مصر ، ووقوفه – رغم جهله باللغة الفرنسية – على كتبهم التى تعالج شتى موضوعات الدنيا قد أيّد نزعته إلى العبّ من الموارد البعيدة . ولا أدلّ على رغبته فى الانطلاق إلى آفاق الثقافة العربية الواسعة من

ذلك الاختيار الجغرافى العريض الذى أشرنا إليه ، فهو يمدّ بصره من أندلس ابن سهل غربًا إلى أبى الفدا فى الشام شرقًا . وتلك فى الواقع ثورة على الانطوائية التى أصابت الأزهر . ويشير على مبارك إشارة صريحة إلى هذا التفاعل الذى زاد من إرهاص الشيخ العطار بالمستقبل ، ومن إيمانه بالنهضة والتقدم ، إذ يقول فى ترجمته :

« واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول إن بلادنا لابدّ أن تتغير أحوالها ويتجدّد بها من المعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة » .

هكذا استخلص حسن العطار المغزى الحضارى من اتصال الثقافات بعضها ببعض . تجاوز الحذر السلبى إلى الحوار البناء . لذا جاءت دعوته إلى التفتح على العالم الخارجى دعوة إلى إحياء التراث العربى فى الوقت ذاته . وتتجلى هذه العلاقة الإيجابية فى السطور الجريئة التالية التى كتبها العطار فى حاشيته على « جمع الجوامع » :

« إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية ، لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم ، والكتب التى ألفت فيها ، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع . وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل

الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية ، ثم هم مع ذلك ما أخلوا تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات » .

من هذا الباب الصغير الذى فتحه حسن العطار خارج الأزهر ، دلف رفاعة الطهطاوى إلى دنيا الأدب . وكان من الطبيعى أن يبدأ الطالب الأزهرى المجدّ - على أسلوب العلماء - بنظم أرجوزة فى التوحيد ، كما وضع خاتمة لمتن النحو المعروف بقطر الندى وبلّ الصدى . ولكن ذوق الأديب لم يلبث أن تغلب على علم الأزهرى ، فها هو ذا رفاعة ينشىء لمتعته الخاصة شيئاً يسميه بالمقامة وينبغى ألّا ننسى أن مقامات الحريرى كانت أعلى مراتب الفن الذى تصبو إليه أنظار المتأدبين منذ العصر العباسى الثانى ، حينما اقتصر مفهوم الأدب على الجمال الشكلى ، وبراعة التعبير اللغوى . وقد وجد العرب فى المقامة لذّتهم الأدبية الكبرى ، جيلاً بعد جيل . ولعلّ ما اختلط فيها من أطراف السرد والحوار والشعر قد أغناهم ، وقعد بهم عن تنمية غيرها من الفنون ، كالقصة مثلاً . ولقد ازداد شغفهم بالمقامة وفناؤهم فيها عندما ساد الركود وضاقت دائرة الثقافة ، فانصرفت القرائح عن التفكير الجدّى إلى التلهّى بألاعيب الألفاظ .

أول إنتاج رفاعة الأدبى مقامة من هذا النوع ، مقامة واهية ، « صنعها » تزجية للفراغ وهو على ظهر السفينة التى رست - فى

طريقها إلى فرنسا – خمسة أيام كاملة بميناء سينا دون أن يؤذن لركابها بالنزول إلى المدينة . ولدلالة هذه المقامة على ذوق العصر ، وعلى حدود مفهوم الأدب إذ ذاك نقرؤها كما وردت فى « تخليص الإبريز » . يقول رفاعة :

« والظاهر أن مدّة مرورنا بها كانت عيدا ، حيث إننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا ، حتى أن ضربهم النواقيس مطرب جدا .

وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى ، فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة ، مضمونها ثلاثة معان :

الأول : المجادلة فى أنه لا مانع من أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف ، وأنشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة ، وأنشأت فيه قولى :

أصبو إلى كلّ ذى جمال ولست من صبوتى أخاف
وليس بى فى الهوى ارتياب وإنما شيمى العفاف

الثانى : سكر المحب من معانى خمر عين محبوبه ، واستغناؤه عن الراح براحته ، وأنشأت فى هذا المعنى قولى :

قد قلت لما بدا والكأس فى يده وجوهر الخمر فيها شبه خدّيه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

الثالث : فى تأثر النفس بضرب الناقوس ، إذا كان من يضرب

الناقوس ظريفًا يحسن ذلك . وقد أنشدت فى هذا المعنى قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له
من علم الظبى ضربًا بالنواقيس ؟
وقلت للنفس أىّ الضرب يؤلمكى
ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

وذيلتها ببعض أبيات مجنسة والبحث فى معناها ، ونوع تجانيسها وبالجواب عن بعض الغاز نحوية .. إلى آخره » .

ويظّل رفاعة وهو فى باريس كلفًا أشدّ الكلف بالمقامة ، ولو أنه استكشف ألوانًا جديدة من الأدب لدى الفرنسيين . ويتجلى حنينه إلى المقامة فى ثنائه المطنب على المستشرق سيلفستر دى ساسى الذى التقى به ، والذى نشر وترجم وشرح المقامات العربية ، لا سيما مقامات الحريرى .

على أن السنوات الخمس التى قضاها رفاعة الطهطاوى فى عاصمة فرنسا أتاحت له أن يمعن النظر فى معالم الأدب الغربى المختلفة . ولن نكرر هنا ما فصله فى رحلته من قوائم الكتب التى قرأها والموضوعات التى استوعبها . حسبنا أن نعرض بإيجاز كيف أدخل هذا الرجل إلى الأدب العربى أهم الهياكل الفنية التى أصبحت دعائم هذا الأدب فى العصر الحديث ، أعنى المسرح والقصة والمقالة الصحفية ، فضلاً عن تجديده شباب الشعر وإطلاقه

سراح النثر وإضرامه شعلة الترجمة .

ولنبدأ بالمسرح . فقد فطن رفاعة إلى أهميته منذ وطئت قدماه أرض مرسيليا ، ثم أكثر من التردّد على قاعات التمثيل فى باريس . لم يتحرّج الأزهرى ولم يتزمت ، بل تنبّه إلى جدّية هذا الفن ، وأدرك رسالته الثقافية والأخلاقية . وبرغم إملاق اللغة العربية بين يديه من الألفاظ والمصطلحات اللازمة لتسمية ما يضمه المسرح ، لايحجم رفاعة عن وصف قاعة التمثيل ، ومراحل « اللعب » كما يقول ، ويشبه « اللاعبين واللاعبات » تارة بالعلماء وتارة بالعوالم . إن هذه الصفحة الساذجة لوثيقة فريدة يؤرخ بها دخول المسرح إلى الأدب العربى الحديث :

« فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى التياتر - بكسر التاء المشددة وسكون التاء الثانية ، والسبكتاكل - وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع . وفى الحقيقة أن هذه الألعاب هى جدّ فى صورة هزل ، فإن الإنسان يأخذ منها عبرًا عجيبة وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ومدح الأولى وذمّ الثانية حتى أن الفرنساوية يقولون إنها تؤدب أخلاق الإنسان وتهذبها ، فهى وإن كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها من المبكيات . ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية ما معناه باللغة العربية : قد تصلح العوايد باللعب .

وصورة هذه التياترات أنها بيوت عظيمة لها قبّة عظيمة ، وفيها

عدة أدوار كل دور له أود موضوعه حول القبة من داخله ، وفى جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الأود بحيث أن سائر ما يقع فيه يراه من هو فى داخل البيت ، وهو منور بالنجفات العظيمة . وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية ، وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب وسائر ما يصنع من الأشياء التى تظهر وسائر النساء والرجال المعدة للعب .

ثم إنهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، فإذا أرادوا تقليد سلطان مثلاً فى سائر ما وقع منه وضعوا ذلك المقعد على شكل سراية وصوروا ذاته وأنشدوا أشعاره وهلمّ جرا . ومدّة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ، ثم يرفعونها ويبتدئون باللعب .

ثم إن النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر . واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الأدبية والأشعار . ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الأشعار وما يبديه من التوريات فى اللعب وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب . ومن العجائب أنهم فى اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة ، ويتعمقون فى ذلك وقت اللعب حتى يظن أنهم من العلماء ، بل الأولاد الصغار التى تلعب تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها . ثم إنهم يبتدئون اللعب بآلات الموسيقى

ثم يلعبون ما يريدون لعبه .

واللعبة التى تظهر تكتب فى ورقة ، وتلصق فى حيطان المدينة ، وتكتب فى التذاكر اليومية ، ليعرفها الخاصّ والعام ، وفى الليلة يلعبون لعبات ، وبعد فراغ كل لعبة ترخى الستارة .

فإذا أرادوا مثلاً لعب شاه العجم ألبسوا لاعًبا لبس ملك العجم ، وأحضروه وأجلسوه عَلى كرسى ، وهكذا . وهذه السبكتاكلات يصوّرون فيها سائر ما يوجد حتى أنهم قد يصوّرون فرق البحر لموسى عليه السلام ، فيصوّرون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبهًا كليًّا . وقد رأيت مرّة فى الليل أنهم ختموا التياتر بتصوير شمس وتسييرها وتنوير التياتر بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف حتى كأن الناس فى الصباح ، ولهم أشياء أغرب من هذا . وبالجملة فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل » .

ولم يكتب رفاعة للمسرح ، بل لم يفرغ لترجمة ما عرفه من مسرحيات راسين إلى العربية . ولكنه وجّه أحد تلاميذه النجباء – عثمان جلال – إلى ترجمة أشهر روائع المسرح الفرنسى فى القرن السابع عشر ، بشعبتيه المأساة والملهاة . فترجم ثلاثًا من مآسى راسين ونشرها بعنون : « الروايات المفيدة فى علم التراجيدة » (استير – إسكندر الأكبر – أفغانية) ، كما ترجم أربًعا من كوميديات موليير ونشرها فى مجموعة « الأربع روايات من نخب

التياترات » . وجدير بالذكر أن عثمان جلال قد عمد إلى تصير البيئة التى تعرضها تلك المسرحيات ، وإلى تصير الشخصيات ، مع تحوير أسمائها كالشيخ متلوف مقابل طرطوف ، وتلك محاولة ملهمة لتأصيل المسرح فى مصر وربطه بعواطف الجمهور .

ويرجع لرفاعة الطهطاوى كذلك أكبر الفضل فى إقامة صرح الصحافة العربية . ومن المعروف أن بونابرت أدخل المطبعة إلى مصر فى فجر القرن التاسع عشر . ولكن رجال الحملة الفرنسية لم يطبعوا فى القاهرة من الصحف سوى اثنتين ، صدرتا باللغة الفرنسية للجمهور الفرنسى وهما : La Décade égyptienne & Le Courrier de l'Egypte وأما جريدة « التنبيه » العربية التى خطّط الجنرال مينو لنشرها وأزمع إسناد تحريرها لإسماعيل الخشاب فلم تر النور . أى أن رفاعة الطهطاوى لم يعرف ما هى الصحافة قبل رحيله من مصر فى مطلع الربع الثانى من القرن التاسع عشر . ثم ظهرت « الوقائع المصرية » فى القاهرة – وهى أوّل صحيفة بالحروف العربية – سنة ١٨٢٨ ، أثناء إقامته بباريس . فى باريس إذن استكشف الرحالة المصرى ما يسميه « بالجرنالات » ، بل وأصبح على حدّ تعبيره « متولعًا بها غاية التولّع » . يقول :

« وقرأت كثيرًا فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية ، وفى كازيطات السياسة اليومية التى تذكر كل يوم ما يصل خبره من

الأخبار الداخلية والخارجية المسماة « البوليتقة » . وكنت متولعًا بها غاية التولع . وبها استعنت على فهم اللغة الفرنسية . وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسياسية » .

ويعود رفاعة إلى الحديث عن تلك « الورقات اليومية » فى تعليقه على مبدأ حرية الرأى فى الدستور الفرنسى ، فيقول :

« ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلاً عظيمًا ، أو رديئًا ، وكان من الأمور المهمة كتبه أهل الجورنال ليكون معلوما للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة . وكذلك إذا كان الإنسان مظلومًا من إنسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصته المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ، ولا تبديل . وتصل إلى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر » .

لا عجب إذن أن يتولى هذا الخبير بأمر الصحافة بعد أوبته إلى الوطن رياسة تحرير « الوقائع المصرية » ١٨٤٢ فيثبت فيها الروح الصحفية الحقة . كانت مواد هذه الجريدة حتى ذلك الحين تكتب بالتركية أوّلا ثم تترجم إلى عربية ركيكة ، وينشر النص التركى علي يمين الصفحة والعربى على يسارها ، فصحّح رفاعة هذا الوضع : جعل كتابة المواد باللغة العربية أوّلاً ، ولا بأس من ترجمتها بعد ذلك إلى التركية ، وخصص للعربية ناحية اليمين ونقل التركية

ناحية اليسار . وينم هذا التعديل الشكلى عن تعديل موضوعى أعمق فقد راح رفاعة يقدم بدلا من الأخبار التافهة والثناء الأجوف على الوالى موضوعات نافعة وحيوية للقارئ المصرى ، كموضوع الحاكم والرعية مثلاً - وتذكرون أن رفاعة تأثر فى باريس بقراءة كتاب « العقد الاجتماعى » لروسو . هذا إلى جانب مختارات قيمة من التراث العربى الحافز على التفكير كمقدمة ابن خلدون . وسوف ينمى رفاعة هذا الاتجاه الأدبى فى الصحافة ويخصص له مجلة مستقلة سنة ١٨٧٠ هى « روضة المدارس » التى تتضمن عدا الأخبار الثقافية ، ترجمات لكتب علمية وأدبية ، ومقالات وقصائد مبتكرة بأقلام صالح مجدى وعبد الله أبو السعود وعبد الله فكرى وعثمان جلال وغيرهم من تلاميذ الشيخ رفاعة ، وهم الذين سيصبحون أعلام الكتابة الصحفية من بعده .

ومن الحق أن رفاعة كان طامحًا يرمى إلى إخراج « الوقائع المصرية » على منوال جريدة الـ Le Moniteur الفرنسية ، وأن ينشر « روضة المدارس » على نمط مجلتين أدبيتين أدمن قراءتهما فى باريس هما :

Le Revue encyclopédique, Le Journal asiatique

ولقد أفلح على كل حال بميوله الشخصية وخبرته وجهوده فى إضافة هذا الميدان الجديد إلى الأدب العربى ، ميدان الصحافة بأكمله . إن رفاعة الطهطاوى أبو الصحافة الإعلامية

وأبو الصحافة الثقافية جميعًا .

وثمة ميدان جديد من ميادين الأدب العربى كان رفاعة طليعة روّاده ، ألا وهو ميدان القصّة . وقد يندهش اليوم قراء « قنديل أم هاشم » ليحيى حقى ، أو « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، أو « أديب » لطه حسين إذا علموا أن السلسلة الخفية التى تربط بين هذه القصص إنما تمتد إليهم من القرن التاسع عشر ، حيث يمسك بطرفها الأوّل رفاعة الطهطاوى . ذلك أنهم ينسون الحلقات الوسيطة فى تلك السلسلة ، وأهمها حلقتان يمثل إحداهما كتاب « علم الدين » الذى استوحى فيه على مبارك « تخليص الإبريز » وجعل موضوعه شيخًا أزهريًا يزور أوربا مع ابنه ، ويمثل الأخرى كتاب المويلحى « حديث عيسى بن هشام » الذى يبحث أبطاله عن سرّ فساد المجتمع المصرى فلا يجدونه إلّا فى تغلغل الحضارة الغربية ، ولذلك يقومون برحلة إلى باريس للتحقق من أمر تلك الحضارة فى مهدها ، وتقييمها بالنسبة للحياة المصرية ، وهذه « الرحلة الثانية » وهى عنوان الجزء الثانى من « حديث عيسى بن هشام » ومفتاحه ، صورة متطوّرة من رحلة رفاعة الطهطاوى . وقد فصّلنا فى دراستنا عن الرحالة المصريين أثناء القرن التاسع عشر كيف نشأت القصة الحديثة لدينا من أدب الرحلة .[1]

---

(١) Anouar LOUCA : Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle. Paris, Didier, 1970.

على أن رفاعة قد أسهم إسهامًا واعيًا فى إفساح مجال من الأدب العربى لهذا الفن الجديد ، فنّ القصة ، عندما ترجم عن الفرنسية « مغامرات تليماك » لفنلون . وليست تلك المغامرات رواية ترفيهية رخيصة مبتذلة . فمؤلفها من أعلام الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر ، كان رئيسًا للأساقفة ، وزعيمًا من زعماء الإصلاح فى عصره ، ألّف كتابًا رائدًا فى « تربية البنات » ، وعين مربيًا لولى عهد فرنسا ، ثم انتخب عضوًا بالأكاديمية الفرنسية . وقد كتب قصة تليماك لا ليعرف من خلالها الأمير اليافع بأساطير اليونان فحسب ، بل ليبصّره بمسئوليات الملك وواجبات الحاكم نحو الرعية . واستعار فنلون موضوع قصّته من ملحمة « الأوديسة » لهومير . فتخيل مغامرات الفتى تليماك حين أبحر من أرض إلى أرض يبحث عن أبيه الغائب « أو ليس » حتى عاد إلى وطنه فوجده . ولقد فطن رفاعة إلى قيمة ما تحويه هذه القصة من دروس سياسية ، فترجمها وهو منفىّ فى السودان يتأمل اعتداء السلطان عليه وما ينبغى من مبادئ لتهذيب الوالى والحدّ من طغيانه ، ولعلّ خطر هذه الترجمة هو الذى يشرح ظهورها فى بيروت ، لا فى القاهرة ، وبعد انقضاء خمسة عشر عامًا من إتمامها . وقارئ « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » يستطيع أن يلمس كيف تدخل رفاعة فى النصّ للتعبير عن آرائه وكيف اتخذ من القصة سلاحًا أدبيًا نفاذًا .

ويدفعنا الحديث عن الأديب « الملتزم » فى ترجمة هذه القصة إلى الحديث عن رفاعة مترجمًا بوجه عام . وإذ لا يتسع الوقت لإيفاء شيخ المترجمين حقه باستعراض الكتب العديدة التى ترجمها فى مختلف أبواب المعرفة - وقد حاول إحصاءها وتصنيفها المرحومان جاك تاجر وجمال الدين الشيال - فإننا نكتفى هنا بما ورد من ذكر هذا المجهود العملاقى على لسان رفاعة نفسه فى الديباجة التى قدم بها لتليماك :

« أما بعد ، فيقول المرتجى أن يكون لوطنه خير نافع ، رفاعة بدوى رافع ، ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس : قد تقلدت بوظيفة تربية التلاميذ مدة مديدة ، وسنين عديدة ، نظارة وتعليمًا ، وتعديلًا وتقويمًا ، وترتيبا وتنظيمًا . وتخرّج من نظارات تعليمى من المتفننين رجال ، لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسبع مجال ، وفى صناعة النثر والنظم أبهر بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال . عرّبت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمّة وصححت لهم مترجمات الكتب المهمّة . وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها .. وسارت بها الركبان ، فى ساير البلدان ... وكان زمنى إلى ذلك مصروفًا ، وديدنى بذلك معروفا .. وفى مدّة نحو الثلاثين سنة لم يحصل لهمتى فتور ولا قصور » .

أجل ، وكان غرض رفاعة من إنشاء مدرسة الألسن على مثال مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم إنشاء قلم الترجمة ، هو أن

يزود الثقافة العربية فى سنوات قليلة بما أنتجته قرائح الغرب فى قرون طويلة .

واصطدم رفاعة فى نقل المعانى الدقيقة ومصطلحات العلم الحديث بجمود اللغة العربية منذ عصر العباسيين ، وخلوّها من مقابل للكلمات الفرنسية . لقد انطوت لغة الضاد على نفسها وتخلّفت عن الركب ، وصارت عاجزة عن تسمية محاصيل الحضارة الأخيرة . ولسّد ذلك النقص المعوّق وضع رفاعة خطة حازمة منذ أيام دراسته فى باريس ، عندما قرر ترجمة كتاب موسوعى فى التعريف بعوائد الأمم وتقاليد المجتمعات الإنسانية المختلفة ، جعل عنوانه « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » . يشتمل هذا الكتاب على مائة صفحة ، وقد قدم له رفاعة بمائة صفحة أخرى عَنْوَنَها بكلمة « سابقة » ، وضمنها شرح الكلمات الغريبة التى وردت فى الكتاب مرتبة على حروف المعجم . إنه ليريد تطبيق هذا المشروع اللغوى تطبيقا منهجيا جامًعا ، فيقول فى التمهيد لقاموسه هذا الأوّل :

« ولما كانت هذه الألفاظ فى الأغلب أعجمية ، فلم ترتب إلى الآن فى كتب اللغة العربية ، وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها ، عربناها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب ، حتى أنه يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة فى لغتنا ، كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية . ولو وضع المترجمون نظير

ذلك فى كل كتاب ترجم لا تنتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك .. فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب ، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب » .

هكذا أخرج رفاعة لغة العرب من عزلتها الثقافية المزمنة ، وأوصلها بتيار الفكر الغربى ، من خلال ترجمة ما يقرب من ألف كتاب ، نقل بها هو وتلاميذه خلاصة العلوم والمعارف الحديثة ، فأصبح للغة قدرتها على التعبير عن مقتضيات حياة العصر .

وفى هذا السبيل كان رفاعة مضطرًّا إلى التشبث بالكلمة التى تؤدّى المعنى دون سواه ، وتبرز غايته المقصودة ، وتصف الشىء الجديد على القارئ وصفًا مباشرًا محددًا لا لبس فيه ولا خلط . وساقته جدّة المادة ، ومسئولية إيجاد التعبير الصادق ، إلى معاملة الألفاظ باحترام شديد يناقض ما يجرى عليه المتلاعبون بها للتظرف وتنميق الجملة . هنا ينتهى عهد الجناس والسجع والبهلوانية ، ويبدأ عهد البساطة والسلاسة والتحرر من القيود البديعية . لقد قاد رفاعة الطهطاوى حقًّا ثورة النثر العربى المعاصر .

ولكن أهمية هذه القيادة التاريخية لثورة النثر كادت تحجب عن الأبصار دور رفاعة فى تجديد الشعر أيضًا . صحيح أن رفاعة لم يكن شاعرًا كبيرًا ، وأنه كان ذواقة أكثر منه منشدًا . غير أن خبرته

الفريدة التى مكنته أن يشهد فى فرنسا حركة الشعر الرومانتيكى قد ظهرت آثارها فى نظمه . ولدينا المثل على أسلوبه القديم فى قصيدته النونية التى مدح بها مصر « أم الدنيا » أثناء السنة الأولى من إقامته بباريس . وتلك قصيدة تقليدية نحتها من قافية واحدة وصبّها فى بحر واحد . مطلعها :

ناح الحمام على غصون البان فأباح شيمة مغرم ولهـان

وفيها يقول متجشمًا عناء التورية :

زمن علىّ به لمصر – فديتها – حق وثيق عاطل النكران
قالوا تعطر روضها فأجبتهم عطارها حسن شذاه معانى
حبر له شهدت أكابر عصره بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره لأجبت بالتصديق والإذعان
هذا لعمرى إن فيها سادة قد زينوا بالحسن والإحسان

عن هذا التكلف التقليدى سيتحول رفاعة حين يتيح له إتقان اللغة الفرنسية أن يطلع على روائع الشعر الفرنسى . وكان يعلمه اللغة الفرنسية أستاذ شاعر ، هاجر من مصر شابًّا ، واسمه « يوسف أجوب » ، فترجم له رفاعة فى أبيات عربية رشيقة منظومته La Lyre brisée وعنونها « نظم العقود فى كسر العود » . ويلفت نظرنا فى هذه الترجمة الشعرية أن رفاعة قد أضرب فيها عن التزام وحدة البحر ووحدة القافية ، وعمد إلى تنويع القوافى والبحور ، على طريقة الموشح الأندلسى . أو ليس فى ذلك دليل

آخر على أن الأدب الغربى كان حافزاً لعودة الأديب العربى إلى مناطق مهجورة من تراثه وإحيائها ؟ مهما يكن من أمر هذا الإخصاب ، فإن رفاعة قد أضاف إلى الشعر العربى الحديث رقة وموسيقى . ولن أستشهد على ذلك إلّا بقوله فى افتتاح قناة السويس :

وعشق البحر للبحر كعشق الدر للنحر
عرائس سفننا تجرى ومن نهوى يواصلنا
لقد عزت منازلنا علينا . من ينازلنا ؟

وعلى أجنحة هذا الشعر الرقيق وذلك النثر الطليق ، أدخل رفاعة إلى أدب القرن التاسع عشر موضوعات جديدة . فإلى جانب الوطنيات ، حيّا المخترعات الحديثة ، وقبل أن يتغنى شوقى بالغواصة والطيارة تغنى هو بالقطار ووصف الأمنبوس . إنه أوّل من عرّف مصر والعالم العربى بالدستور وحقوق الإنسان ، بالديمقراطية والتمثيل النيابى ، بتفاصيل العلوم « المعاشية » التى تختلف عن علوم الأزهر الشرعية ، بسفور المرأة ومكانها الصحيح فى المجتمع ، وانتهج فى ذلك التفكير المنطقى وتحكيم العقل ، وبثّ مبدأ التقدم ، فأرسى أسس الثقافة والسياسة والتربية فى حياتنا المعاصرة .

هنا ننتقل من الشكل إلى الموضوع . من إطار القصة أو المقال الصحفى أو المسرح أو المقطوعة الشعرية إلى مضمون ذلك الإطار . كان الموضوع راكدًا فى الأدب العربى قبل رفاعة

الطهطاوى . لذا اقتصر همّ الأديب فى العصر العثمانى على العبث بالألفاظ . ومع رفاعة الطهطاوى دخل الموضوع سطور الكتابة ، أى جاءت الفكرة الفعّالة . ولعلّ أصدق وصف للموضوع هو أنه يقدم تعريفًا لعلاقة ما . فإن ما نقرؤه فى تعليق صحفى مثلاً ، أو ما نتخيله فى موقف قصصى أو مسرحى ، أو فى أبيات من الغزل أو الوطنيات ، إنما يعرض علينا علاقة بين طرفين ، كالعلاقة بين الفرد والمجتمع ، أو بين المجتمع والحاكم ، بين الحق والواجب ، أو بين الذكر والأنثى ، أو بين جيل وجيل .. وتسرى الثقافة فى الأذهان انطلاقًا من هذه القوة الدافعة التى تنتج عن قدر معين من التوتّر لابدّ من حدوثه بين طرفى الموازنة المعقودة . فلا موازنة بدون توتّر . وفى التوتر تكمن الطاقة الخلاقة التى تنتقل من قريحة الكاتب إلى عقل القارئ فتثيره ، أى تدعوه إلى الإجابة على سؤال مطروح ، والفصل فى قضية .

إذا حلّلنا أثر الأديب فى ثقافة عصره هذا التحليل ، أمكننا أن نلمس أثر رفاعة فى أدب القرن التاسع عشر . قبل رفاعة الطهطاوى وحسن العطار كان الفكر العربى فى عزلة ، فلم يكن هناك سبيل إلى أية موازنة مثيرة . وقبل أن يغادر رفاعة الطهطاوى مصر ، لم يكن يأبه كثيرًا لصفته المصرية . كان يحس أنه فى مكانه الطبيعى ، فهو مصرى كجميع هؤلاء الذين يأكلون كما يأكل ويلبسون كما يلبس ويتكلمون العربية كما يتكلم وينفقون الأيام

كما اعتادوا فى أمور ذات قيم معروفة مألوفة . كانت وطنيته ساكنة سكون البديهيات ، لا تبعث على التفكير ، ولكنها تحوّلت من ركود سلبى إلى وعى نشيط ، حينما غابت عنه وجوه الأهل وأرض الوطن ، وباتت صورًا يتوق إليها فى غربته ، وينزع وجدانه ، ويستدعيها إلى ذاكرته حنينه المتزايد . ويتناول رفاعة قلمه ليصف باريس التى يقيم فيها فلا تفارقه أطياف مصر . وهذا كتاب رحلته لا تنقطع فيه الموازنة بين ملامح البلدين فإن مؤلفه يتمنى فى كل عبارة أن ينقل إلى ضفاف النيل تلك النظم التى أعجبته على ضفاف السين . أجل إن « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » كتاب فى وصف مصر قبل أن يكون كتابًا فى وصف فرنسا .

وفى باريس ، شهد رفاعة نتائج المعركة العلمية التى انتصر فيها شامبليون بعد أن كشف أسرار الهيروغليفية ، وعاصر قيام شامبليون بتنظيم قسم الآثار المصرية فى اللوفر (١٨٢٧) . هناك ألحّت على الصعيدى المغترب عواطف القربى التى تصله بهذه الآثار ، ففهم - للمرة الأولى فى حياتنا منذ القرون الوسطى - قيمة هذه الآثار من الناحية الوطنية ومن الناحية الجمالية . وها هوذا يحتج معلقًا على إنعام محمد على ، على حكومة فرنسا بإحدى مسلّاتنا ، فيكتب :

« وأقول حيث أن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوربا ، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من

أنواع الزينة والصناعة . وسلبه عنها شيئًا بعد شيء يعدّ عند أرباب العقول من اختلاس حلىّ الغير للتحلي به ، فهو أشبه بالغصب » .

هذا مثل من أبلغ الأمثلة على التوتّر بين طرفى الموزانة الكبرى التى فرضها واقع العصر على رفاعة . وكان تعبير الأديب بداية لفعل المصلح ، أى تأهبًا للنهوض بتبعة جديدة ما كانت تخطر على بال الجبرتى فى الجيل السابق ، وهو المؤرخ المتخصص . فلا يكاد رفاعة يعود من بعثته حتى يقدّم لمحمد على مشروعًا جريئًا لحماية الآثار ، هو الذى صدر فى « الوقائع المصرية » سنة ١٨٣٥ ، ونص على أن تسلم لمدير مدرسة الألسن جميع الآثار التى يجدها الأفراد ، فكان أن تأسس أوّل متحف مصرى بالقاهرة فى فناء مدرسة الألسن .

وفى مدرسة الألسن أصبح التاريخ مادّة علمية . وقد لفت الدكتور جمال الدين الشيال نظرنا إلى أهمية هذا التجديد : « ذلك أن التاريخ اعترف به كعلم لأوّل مرّة فى تاريخ التعليم فى مصر الإسلامية ، وجعل لأوّل مرة مادة من مواد الدراسة فى مدرسة الألسن ، وعين له مدرس خاص لتدريسه ، ولسنا نعرف أن التاريخ كان علماً يدرس فى المساجد أو المدارس فى مصر أو غيرها من أجزاء العالم الإسلامى ..

حقيقة كان بعض المؤرخين يقرأ كتبه التاريخية لتلاميذه أويجيزهم لرواية هذه الكتب عنه ، ولكن هذه الجهود كلها كانت جهودًا

شخصية تسير فى نطاق الهواية الفردية الحرة ، بعيدًا عن معاهد العلم ومدارسه ، ولم نعثر على نص أو إشارة تفيد اعتراف مدرسة من هذه المدارس بالتاريخ كعلم أو تضعه بين مناهجها ، ولم نسمع عن أستاذ تفرغ فى مدرسة من هذه المدارس أو عين لتدريس التاريخ »[1]

ودعا ذلك النقص رفاعة إلى أن يسدّه . فوضع خطة لتأليف كتاب شامل فى هذا العلم ، يضمّ تاريخ مصر متكاملاً منذ أقدم العصور ، وقد أتمّ منه جزأين . ويقول الدكتور جمال الدين الشيال :

« لم يبدأ بالفتح العربى أو بظهور الإسلام أو ببدء الخليقة كما كان يفعل سابقوه جميعا من المؤرخين فى العصر الإسلامى ، بل بدأ بتاريخ مصر القديم ، وخصص الجزء الأول لتاريخ مصر فى عصور الفراعنة والبطالمة والرومان ، ووقف عند الفتح العربى ، وسماه : « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل » لأنه قدّمه للخديو إسماعيل ، وقد طبع هذا الجزء فى بولاق سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨) .

---

(١) و (٢) د . جمال الدين الشيال : « رفاعة المؤرخ » ، ص ١١٩ - ١٢٧ من كتاب « مهرجان رفاعة الطهطاوى - ديسمبر ١٩٥٨ » مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - ١٩ - القاهرة ، دار النشر للجامعات المصرية ، ١٩٦٠ .

وهذا الجزء يعتبر بدءاً لمرحلة جديدة من مراحل فهم التاريخ المصرى ، فقد كان المؤرخون المصريون فى العصر الإسلامى إذا عالجوا هذا التاريخ بخسوه حقّه ، ونقصوا من قدره لأنهم كانوا يجهلون حقائقه ، ولا يعرفون عنه إلّا قدرًا ضئيلًا من الخرافات والأباطيل ، ولأن هذا العصر فى نظرهم كان يمثل الوثنية القديمة التى كانت تعبد الأصنام من دون الله وتعترف بتعدّد الآلهة »[٢] .

إننا لنشهد عودة الروح مع رفاعة المؤرخ حين نقرأ من مقدمة كتابه هذه الصفحة الواعية التى تربط فى منظور قومى واحد تاريخنا القديم والوسيط والحديث ، بل وتتطلع إلى مشارف مستقبل جدير بأمجاد الماضى العريق :

« ولا يخفى على ضمائر أولى البصائر ، وخواطر أهل الفضل الباهر ، أن مصر نازعت قدماء الأمم فى الأقدمية ، فسلّموا لها أنهم دونها فى مرتبة الأهمية ، وإن لم تسبقها أمة فى ميدان التمدنية ، ولا فى حومة تقنين القوانين وتشريع أحكام الأحكام المدنية ، ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملّة ، ولا انكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملكة عظيمة ولا دولة . فما اختصت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفىء ، وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى ، فكأنما نورها شىء ما كان ، ولا لمع ضوؤها فى زمن من الأزمان ، وأما مصر فأغرب شىء من بقاء شمس سعدها ، وارتقاء كوكب مجدها ، أنها بقيت سبعين قرنًا حافظة لمرتبتها

العليا ، لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا ، ولها الأرجحية فى النفوذ والتأثير ، وفى معيار العلوم فضلها شهير .

فقد كانت فى أيام الفراعنة أم أمم الدنيا ، وكانت شوكة سلاحها قوية ، وهيبتها فى القلوب متمكنة عليّة . وفى أيام الإسكندر ، ومن بعده من البطالسة ، وأزمان دولة الرومانيين القاهرة العابسة ، كانت مصر أيضا رحيبة الدولة ، مهيبة الصولة ، لما انتقش فى سجايا قلوب الأمم من علوّ فخارها ، وارتسم فى مرايا الملل من رفعة منارها ، فكانت إهابتها بالقوّة المعنوية يقدر إهابتها أيام الفراعنة بالقوّة الحسّية . أو ليس أن حكماء الإسكندرية وعلماءها وفلاسفتها اشتهروا بالعلوم العقلية ، لا سيما علم الأخلاق والعوائد ، وكثرت آراؤهم ومذاهبهم ، وأخذ عنهم الصادر والوارد ، والمتردد والوافد ، عموم المنافع والفوائد ، فتشعّبت منها العلوم فى سائر معالم البلاد ، فتغيرت أحوال البلاد تغايير حثيثة ، ونشأ عنها صورة حوادث الأزمان الحديثة .

وكذلك فى القرون الوسطى المعلومة ، التى افتتاحها فتوح الإسلام لمصر على حالة مفهومة ، تجدّد فى مصر مالا مزيد عليه من التقدمات والأهمية ، مما لا يكاد يوجد فى غيرها من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، إذ كانت قطب رحى ديار الإسلام ، ومركز دائرة شريعة خير الأنام ، فقد انتصر سلاطينها على ملوك

الإفرنج ، وغلبوا الجمّ الغفير ، وهزموا الجند الكثير ..

وفى ابتداء هذا القرن الذى نحن فيه ، لا تخفى حوادثه الشهيرة على التنبيه ، فقد تغلّب فيه عليها الفرنساوية ، ورجوا باستيلائهم عليها بلوغ الأمنية ، ويأبى الله إلّا ما أراده ، حيث أعدّها لغيرهم وأنجز مراده ، فكانت من نصيب صاحب عزيمة ولا عزيمة الإسكندر ، وربّ شكيمة ولا شكيمة كسرى وقيصر ، جنتمكان محمد الاسم على الشان ، فإنه أحيا مصر حياة طيبة ، وأبرز فيها إلى عالم الشهادة الأمور المغيبة ، حتى وصلت إلى حفيده إسماعيل فمكّن من أواوينها أصول الكياسة والرياسة ، ودوّن فى دواوينها قوانين التدبير والسياسة ، وقوّى عزم الشرائع والأحكام ، وأيّد ملك مصر بتأسيس قواعد الجند المصرى على أقوى تأسيس وإحكام ، وأخذت العلوم والفنون فى الارتقاء إلى درجة الكمال ، وتوفرت فيها وسائل تحسين الحال وتنعيم البال ، كتنظيم مجالس الملة ، وتعظيم حقوق الأهالى وإعزازهم بعد المذلّة . وعسى بكثرة غرائب الرغائب ، ورغائب الغرائب ، أن يأتى مستقبلها بالعجائب ..

فمن هنا يعلم أن ديار مصر فى سائر الأوقات والحالات لها الأهمية الكبرى ، والمدخلية العظمى ، فى سائر الحوادث الخارجية وفى جميع المهمات ، ولها الامتياز الأوفر الأوفى ، قديما وحديثا كما لا يخفى » ..

وهكذا التأمت شخصية مصر الحضارية وتميّزت فى وعى الجيل الذى ربّاه رفاعه والأجيال التالية .

إن أثر رفاعة الطهطاوى فى أدب القرن التاسع عشر لا يقتصر إذن على إفلاحه فى استيراد الأشكال الفنية الجديدة ، فقد كانت تلك الأشكال وسيلته للخوض فى الموضوعات الحيوية ، أى لإحداث توتّر فكرى يدفع إلى التحرك ، وتقدم الإنسان من طور إلى طور . وما فصول « تخليص الإبريز » وتليماك « ومناهج الألباب » و« المرشد الأمين » و« الأنوار » سوى مجموعة من القضايا تهيئ الرأى وتستفزّه . وهى على تشعّبها تدور حول سؤال جوهرى واحد وجهته للمجتمع المصرى الأعزل تحدّيات العصر الحديث : سؤال الوجود فى هذه الدنيا ، أم العدم ؟ فهم رفاعة ذلك السؤال الخطير ، ولم يتهرّب فى كهوف الماضى من الإجابة عليه ، بل انبرى لتدارك ما فات بلاده من أدوات البناء وعدّة الحضارة ، فأحاط بها وصنّفها ، وطوّع لاستقبالها وتأصيلها - بمعاناة الترجمة والتأليف - قوالب النثر والشعر ومعجم اللغة العربية وأجناسها الأدبية .

هذا ما نطلق عليه اسم النهضة .

وإذا أردنا قياس حركة النهضة قياسًا دقيقا ، فإنها حركة تمتد فى أدب القرن التاسع عشر - على مدى خمسين سنة - بين هو المقامة

الجوفاء التى صنعها الفتى رفاعة فى ميناء مسينا وبين جدّ القضايا المصيرية التى عالجها الشيخ رفاعة فى « مناهج الألباب » قبيل وفاته . رحمه الله وأحسن جزاءه .

٨

« الأيام »

بين رفاعة الطهطاوى وطه حسين*

بينهما قرن من الزمان بتمامه : توفى رفاعة الطهطاوى سنة ١٨٧٣ ، وتوفى طه حسين سنة ١٩٧٣ . ولكنهما صنوان : نشأة فى صعيد مصر ، ثقافة فى أروقة الأزهر ، ثم رحلة إلى الغرب - وإلى باريس بالذات - وأخيرا زعامة الإصلاح بمنهج المعلم وتجديد المفكر وقلم الأديب . تكررت الظاهرة ، فتأكد التعبير . كأنهما صورتان طبق أصل واحد ، هو مصر - مصر التى نهضت من غيبوبة لتعيش فى العصر الحديث تجربة وجودية .

لذا يراودنا اليوم أن نقيّم تلك التجربة ، فى محاولة تستهوينا لفكّ رموز ما اصطلحنا على تسميته بعصر النهضة ، وللتعريف بما استوعبناه وكيف استوعبناه . أمامنا إذن أن نقيس ما يمتد بين طرفى التجربة - عبر قرن كامل - من أوجه التشابه ، وأطوار

---

* ألقى هذا البحث بعنوان « الأيام والغرب من رفاعة الطهطاوى إلى طه حسين » فى الندوة الدولية لذكرى طه حسين العاشرة التى أقامها المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد من ٢٥ إلى ٣٠ أبريل ١٩٨٣ .

التفاعل ، وتعاقب الآثار . مهمة شاملة تقتضى لا أن نحيط بسيرة كلٍّ من هذين العَلَمين فحسب ، بل وأن نحصى بدقة أعمالها فى شتى ميادين الإصلاح التى اقتحماها : ميدان التربية والوعى القومى والسياسة ، ميدان الأدب وما استحدثا فيه من فنون القصة والمسرح والصحافة والترجمة ، ميدان الثقافة العامة المتفتحة على علوم الخارج ولغاته مع الحرص على إحياء التراث العربى ، وميدان النقد بمعناه الواسع حيث غرس كل منهما لدى الجيل الذى رباه أصول التذوّق العقلى والفنى . وتلك موازنة بين عملاقين شائقة غزيرة ، خليقة بأن تكشف لنا فى تفاصيلها المتضافرة التطور الذى اجتزناه من حقبة إلى حقبة ، وأن تسمعنا خلال نبضات متلاحقة دبيبًا على أرضنا هو الذى نتوسّم فيه من مكاننا حركة النهضة . ولاشك فى أن طرح الموضوع على هذا النحو من شأنه أن يفضى بنا إلى مشارف مغزى عميق ، وأن يلقى على تساؤلات الحاضر المتعثّر أنوار جواب وضّاح فى معنى الأصالة . ولكننا أشفقنا من الخوض هكذا فى برنامج عريض ضخم لابدّ لاستيفائه من طرق أبواب عديدة ، وحشد وقائع متباينة ، وشرح نصوص تلمّ بكافة الأغراض ، مع مقارنتها ، وبيان ما يصبّ فى سطورها من روافد شخصية وجماعية ، شرقية وغربية .. إلى آخر ما ينبغى على الباحث فى تاريخ الفكر والأدب من دراسات تحليلية وتركيبية تضيق عنها جلستنا على كل حال .

ولهذا عمدنا إلى انتهاج منهج آخر غايته الإيجاز . آثرنا أن نمسك بالعقد من واسطته . تحرّينا لدى رفاعة الطهطاوى وطه حسين نقطة التحول ، وإذا بها نقطة التلاقى بينهما على مدى قرن كامل . فإنهما ينطلقان من مفهوم مركزىّ واحد ، عبّرا عنه أبلغ تعبير .

أجل ، كلاهما كتب كتاب الأيام .

أما « أيام » طه حسين فمعروفة ، بل وأصبحت بانتشارها وترجمتها إلى أهم اللغات العالمية أشهر الكتب فى عصرنا . وأما « أيام » رفاعة فنقرؤها فى مذكراته ، التى شغف بها جيلنا فالتهم ثلاث طبعات من « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » حيث يروى الأزهرى الباريسى الأول تجربة أشبه بقصة أهل الكهف ، منذ خرج من عالمه المصرى المنعزل ، الساكن سكون البديهيات ، إلى العالم الغربى المختلف عما اعتاده ودرج عليه .

ويبرز مفهوم الأيام فى الصفحات الأولى من « تخليص الإبريز » ، حين يصف رفاعة جوّ باريس فنشعر بأنه رحالة غريب غير متأقلم . يقول :

« وتغير مزاج الهواء والزمن فى باريس أمر عجيب ، فإنه قد يتغير فى اليوم الواحد أو مع ما بعده حال الزمن ، مثلاً يكون فى الصباح صحو عجيب لا يظن الإنسان تغيّره فلا يمضى نصف ساعة إلّا ويذهب بالكلية ويخلفه المطر الشديد . وقد يكون حرّ يوم من الأيام أربعًا وعشرين درجة ولا يصل اليوم الآتى إلى اثنتى عشرة

وهكذا . فقلّ أن يأمن الإنسان تغير الوقت بهذه البلاد . فمزاجها كمزاج أهلها كما سيأتى . ومعلوم أنه ينبغى أن يتحفظ الإنسان من ضرر هذا التغير ، وإن كان هواء باريس فى الجملة طيبًا مناسبًا للصحة . ومع أن حرّها لا يصل إلى حرّ القاهرة فى الغالب فهو غير مألوف أبدًا ، ولعل ذلك للانتقال من شدّة البرد إلى شدة الحر »[1] .

وقبل أن ينتقل رفاعة إلى الحديث عن أهل باريس وتقلّب مزاجهم ، يفضى لنا فى تصوير ذلك المناخ بإحساس المصرى الذى يعانيه ، فيقول :

« وانظر إلى زمن تلك المدينة فإنه دائما معتم فى سائر أيام الشتاء وغالب أيام الحرّ ، فإذا تنزّه الإنسان ساعة تنكّد ساعة أخرى وذهب حظّه بالرعد والبرق وانهطال المطر والصواعق »[2] .

ونلاحظ أن رفاعة يستخدم كلمة « الزمن » وكلمة « الوقت » للدلالة على الجوّ . لاشك أنه يفعل ذلك بتأثير من اللغة الفرنسية التى تطلق على الجو كلمة "Le temps" . وكان فى مقدور رفاعة أن يجد مقابلًا عربيًّا للكلمة الفرنسية بدلًا من ترجمتها حرفيا . غير أنه

---

(١) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، نشره د . مهدى علام ، د . أحمد أحمد بدوى ، د . أنور لوقا – القاهرة ، وزارة الثقافة ، مطبعة الحلبى ، ١٩٥٨ ، ص ٤٤ – ٤٥ . (تحيل إلى ترقيم صفحات الطبعة الثانية – القاهرة ١٢٦٥ / ١٨٤٩ – آخر طبعة ظهرت فى حياة رفاعة الطهطاوى ، وقد أثبتناه فى طبعتنا) .

(٢) تخليص الإبريز ، ص ٤٥ .

يعنى ما يقول ، ويتبنى تلك التسمية ، ويطبق هذا المفهوم الزمنى على المناخ . بحيث يحيل المناخ . إلى مفهوم الوقت ، ساعة ساعة ، أو يومًا يوما . فهو يسجل فى الصباح « نصف ساعة » من الصحو ثم المطر ، وذلك - حسب عبارته - هو « تغير الوقت » و« حال الزمن » . والذى يراه عجيباً فى الغرب هو تغير « الزمن » تغيرًا تؤكده سرعة التقلّب من ناحية وشدّة التقلّب من ناحية أخرى . بين الصحو والمطر أو بين درجات الحرارة هناك تناقض سريع الحدوث وعنيف الوقع . ولما كان الزمن مقترنًا فى ذهن رفاعة بمعنى الاتصال أو السكون أوالتشابه المستمر فقد فطن إلى تميزه فى الغرب بظاهرة التغيرّ ، ومضى يلحّ خلال وصفه المبسط على ربط منطوق الزمن بمنطوق التغير . لقد أقنعته الطبيعة من حوله بهذا الترادف .

ومن الطريف أن رفاعة يحتفظ بهذه الرابطة المعنوية الجديدة عندما يستطرد إلى الحديث عن جوّ مصر ، فهو يستخدم لفظ الزمن ودلالته إذ يقترح - كما يقول - « تطرية الزمن » فى « وقت الحر » بمصر عن طريق رشّ الشوارع بعربات مخصّصة لذلك . وهذا نصّ كلامه :

« وأما مصر فإنها سليمة من مكاره برد باريس ، كما أنها خالية أيضًا عن الأمور المحتاج إليها فى وقت الحرّ مثل الاستعانة على تطرية الزمن ، فإن أهل باريس مثلا سهل عندهم رشّ ميدان متسع من الأرض وقت الحر ، فإنهم يصنعون دنًا عظيمًا ذا عجلات

ويمشون العجلة بالخيل ، ولهذا الدن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة ، تدفع الماء بقوّة عظيمة ، وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية ، والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشّها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرّها »[1] .

هنا نجد الترابط واضحًا بين مفهوم الزمن ومفهوم الفعالية : فقوّة تدفّق الماء ، وسرعة العجلة ، تؤدّيان إلى رشّ ميدان من ميادين باريس فى ربع ساعة مقابل كدح عدة رجال لمدة تتجاوز الساعة فى القاهرة بغية الوصول إلى نفس النتيجة .

للوقت الذى يمر إذن قيمة أخرى . الزمن هو ساعات الصحو أو الغيم أو المطر التى يتألف منها اليوم ، الزمن هو درجات الحرارة أو البرودة التى تتميز بها الأيام . وفى الزمن يندرج مجهود الإنسان لتكييف حياته مع أعراض الزمن نفسه . لم تعد فكرة الزمن مفهومًا فلسفيًّا مجردًا ، وإنما هى دلالة على قياس حياة واقعية ، حياة الفرد الذى يتنزه فيستمتع وجوديا بسطوع الشمس أو « يتنكّد » وجوديًّا بهطول المطر . لم تعد كلمة « الزمن » مرادفة لمعنى « الدهر » الذى يندّ عن متناول البشر ، بل هى تجسيد للعلاقة التى انعقدت بين الإنسان والتنظيم الاجتماعى والعلمى والهندسى لعمله وإنتاجه .

لقد اعتدنا أن ننظر إلى رفاعه كرحالة ينتقل فى المكان - من

---

(١) تخليص الإبريز ، ص ٥٠ .

مصر إلى باريس إلى مصر – ولكنه رجل ينتقل كذلك فى الزمان من عصر إلى عصر . ولنقُلْ إن إنتقاله إلى بيئة جديدة كان انتقالاً إلى زمن جديد .

سافر رفاعه وهو لايعرف من التاريخ إلّا المجال الذى أتيح له أن يحيط به فى الأزهر ، والذى حصرته تقاليد الأزهر فى حدود معينة . فالعصر الذهبى ، والمثل الأعلى ، وأفضل العهود وأمجدها هو عصر الدعوة الأولى ، عصر النبّوة يليه عصر الخلافة ، وفى ذلك يقول رفاعه :

« ومما قام مقام آلات السياحة قبل ابتداعها ، وناب عن أدوات الملاحة قبل اختراعها ، الأنوار المحمدية والغيرة الإسلامية ، بل والمعارف الوافرة فى العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية فى زمن الخلفاء العباسية »[1]

وتلك نظرة إلى الزمن يتسامى فيها الماضى ، فتنجذب نحوه الأفئدة ، ويشتدّ الحنين ، وتلوذ به العزائم والآمال من حاضر ومن مستقبل لن ترقى منجزاتها إلى مرتبة آثار السلف وامتيازهم على كل حال . ويردّد رفاعة هذا المبدأ قائلا : « ومن المقرر فى الأذهان وفى خارج الأعيان أن الفضل للمتقدّم . أو ليس أن المتأخّر يغترف من فضالته ، ويهتدى بدلالته ؟ »[2]

---

(١) تخليص الإبريز ، ص ١٤ .

(٢) تخليص الإبريز ، ص ٧ .

غير أنه سافر إمامًا لبعثة فى طلب العلم . وهو يفرد بابًا كاملاً من « تخليص الإبريز » للتعريف بتخصّصات أعضائها ، يستهله بهذه العبارة : « ولنذكر لك هنا الصنايع المطلوبة لتعرف أهميتها ولزومها فى أى دولة من الدول ، وهذه الفنون إما واهية فى مصر أو مفقودة بالكلية »[1]

والقائمة طويلة نوجزها هنا مع الإبقاء على ألفاظ رفاعة : « علم تدبير الأمور الملكية » يعنى « الحقوق الثلاثة التى يعتبرها الإفرنج وتسمى بالنواميس وهى الحقوق الطبيعية والحقوق البشرية والحقوق الوضعية وعلم أحوال البدان ومصالحها ومايليق بها » – هكذا يشرح الدبلوماسية – « وعلم الاقتصاد فى المصاريف ، وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات والخازندارية وحفظ بيت المال » . « علم تدبير العسكرية » و « القبطانية والأمور البحرية » . « فن المياه وهو صناعة القناطر والجسور والأرصفة والفساقى » . « علم الميكانيقا وهى آلات الهندسة وجرّ الأثقال » . « فن سبك المعادن » . « علم الكيميا وصناعة الورق .. وليس المراد بالكيميا حجر الفلاسفة كما يظنه بعض الناس فإن هذا لاتعرفه الإفرنج ولا تعتقده أصلا » . « فن الطب وفروعه فن التشريح والجراحة وتدبير الصحة » . علم الفلاحة ، تاريخ الطبيعيات ، صناعة النقاشة وفن الطباعة . وأخيرًا فن الترجمة الذى سيتمرس به رفاعة

(١) تخليص الإبريز ، ص ١٠ .

ويصفه بأنه « من الفنون الصعبة خصوصًا ترجمة الكتب العلمية فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات العلوم المراد ترجمتها . فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه وإليه والفن المترجم فيه » . ويختتم القائمة مخاطبًا القارئ :

« فإذا نظرت رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا . ومن جهل شيئًا فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء . وكلما تكبّر الإنسان عن تعلّمه شيئًا مات بحسرته »[1] .

رفض الحاضر إذن هو الموت . وهذا أخطر تحذير من التخلف عن الركب . ولكي يشرح رفاعة لقارئه أوّلاً أين توجد باريس ، نراه يربط المكان بالزمان ، يستعرض قارات الأرض الخمس وعواصمها ، ويقيّم فضل كل منها بقدر معالم العصر الاسلامى فيها ، فيقول - على طريقة الجغرافيين القدامى وكتب « الفضائل » :

« أقسام الدنيا الخمسة يصحّ تفضيل بعضها على بعض يعنى تفضيل جزء بتمامه على الآخر بتمامه بحسب مزية الإسلام وتعلقاته فحينئذ تكون آسيا أفضل الجميع ، ثم تليها أفريقية لعمارها بالإسلام والأولياء والصلحاء ، خصوصًا باشتمالها على مصر القاهرة . ثم تليها بلاد أوروبا لقوّة الإسلام ووجود الإمام الأعظم

(١) تخليص الإبريز ، ص ١٢ .

إمام الحرمين الشريفين سلطان الإسلام فيها ، ثم بلاد الجزائر البحرية لعمارها بالإسلام أيضا مع عدم تبحرّها فى العلوم كما هو الظاهر . فأدنى الأقسام بلاد أمريكه حيث لا وجود للإسلام بها أبدًا . هذا مايظهر لى والله أعلم بالصواب »[1]

وهنا يستدرك استدراكا جوهريًّا فيضيف :

« وهذا كله بالنظر للإسلام والأمور الشرعية والشرف الذاتى ، فإن المراد بالشرف مايعمّ الشرعى وغيره فلا يقال إن أغلب ذلك من باب المزيّه وهى وحدها لاتستدعى أفضلية .

ولا ينكر منصف أن بلاد الإفرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية ، وأعلاها فى التبحرّ فى ذلك بلاد الإنكليز والفرنسيس والنمسا فإن حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كأرسطاطاليس وأفلاطون وبقراط وأمثالهم ، وأتقنوا الرياضيات والطبيعيات والإلهيات وما وراء الطبيعيات أشدّ إتقان ، وفلسفتهم أخلص من فلسفة المتقدمين لما أنهم يقيمون الأدلة على وجود الله تعالى وبقاء الأرواح والثواب والعقاب » .

والملاحظة الأخيرة عن الإفرنج تنطوى على أن المحدثين أفضل من القدماء . فهل ينطبق هذا التطور على غير الإفرنج ؟

لم يفت رفاعة أن يبسط لقارئه قصّة تحضّر الإنسان ،

---

(١) تخليص الإبريز ، ص ١٩ .

وموجزها - مع احتفاظنا بألفاظ رفاعة : « الأصل فى الإنسان الساذجية والخلوص عن الزينة والوجود على أصل الفطرة لايعرف إلّا الأمور الوجدانية . ثم طرأ على بعض الناس عدة معارف لم يسبق بها وإنما كشفت له بالصدفة والاتفاق أو بالإلهام والإيحاء وحكم الشرع أو العقل بنفعها فاتبعت وأبقيت . مثلاً كان فى أوائل الزمن يجهل بعض الناس تنضيج المطعومات بالنيران لجهل النار بالكلية عندهم ويقتصرون على الغذاء بالفواكه أو بالأشياء المنضجة بالشمس أو أكل الأشياء النيئة كما هو باق فى بعض البلاد المتوحشة إلى الآن ، ثم حصل اتفاقًا أن بعضهم رأى خروج شرارة نار من الصوّان بمصادمة حديدة أو نحوها ففعل مثل ذلك وقدّم وأخرج النار وعرف خاصيتها .

وكانت الناس فى أوّل الأمر تجهل ركوب البحر ثم بإلهام إلهى أو باتفاق بشرى عرفوا أن من خواص الخشب السبح على وجه الماء ، فصنعوا السفينة ، ثم تبحروا فى السفن ، وعمروها ، ونوّعوها أنواعًا ، فكانت أولاً صغيرة للتجارات ، ثم ترفعوا فيها حتى صلحت للجهاد والحرب وقس على ذلك ..

فكلما تقادم الزمن فى الصعود رأيت تأخر الناس فى الصنايع البشرية والعلوم المدنية . وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن فى الهبوط رأيت فى الغالب ترقيهم وتقدمهم فى ذلك . وبهذا الترقى وقياس درجاته وحساب البعد عن الحالة الأصلية والقرب منها انقسم سائر

الخلق إلى عدة مراتب :

المرتبة الأولى : الهمل المتوحشين .

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخشنين .

المرتبة الثالثة : مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن »[1]

إذن لقد اختلف التقييم . ورجحت لدى البشرية بأجمعها كفّة الجديد على القديم . كان المتقدمون - فى لغة الأزهر - هم أهل الماضى ، والمتأخرون هم أهل الحاضر والمستقبل . فانعكس معنى كل من اللفظين . أى انعكس محور الزمن . إن هذه السطور من « خطبة » تخليص الإبريز لوثيقة فكرية . لايكاد رفاعة يعبّر فيها عن حركة الزمن نحو الماضى بالصعود ، وعن حركة الزمن نحو الحاضر بالهبوط ، حتى يتبين نقيض ذلك ويرى فى الصعود تأخرًا ، وفى النزول والهبوط تقدمًا : « فكلما تقادم الزمن فى الصعود رأيت تأخّر الناس .. وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن فى الهبوط رأيت فى الغالب ترقيهم وتقدمهم » . لقد فطن إلى أن الأيام دارت دورة قلبت تيار التاريخ .

وفى باريس يتعرف رفاعة مراكز النشاط الحضارى المعاصرة ، ويشتدّ سعيه ليلحق بالركب السائر المتقدم . كل ماحوله يتحرك .

---

(١) تخليص الإبريز ، ص ٦ .

وحسبنا أن نقتبس من كلامه عن أهل باريس أنهم « ليسوا أسراء التقليد أصلاً .. وكل صاحب فنّ من الفنون يحبّ أن يبتدع فى فنّه شيئًا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيرُه .. ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة وحبّ التغيير والتبديل .. ومن طباعهم المهارة والخفّة ، فإن صاحب المقام قد تجده يجرى فى السكة كالصغير » .

ينخرط رفاعة فى سلك هذه الحركة الدائبة . ويتعمق تعليلها فيتمثل رابطة طبيعية بين جوّ باريس - أو زمنها - المتغير وبين جرى الناس ، وتوثّبهم ، وإبداعهم المطّرد بشحذ المهارة ، وقدح الذكاء طليقًا من أسر التقليد . ومهما يكن من إرهاف تصوره ، فإنه يجد للواقع اندفاعًا لم يكن يعهده ، وتيرةً مسارعة تناقض رتابة العيش فى مصر . هنا التيّقظ والتنبّه والمبادرة وحثّ الخُطا دائمًا . هنا تدور آلات المصانع بلا توقف ، ويضرب الناس لتصريف أمورهم أدق المواعيد . هنا تظهر صحف يومية ، سيارة ، تكتب وتطبع وتقرأ وتستنفد فى أربع وعشرين ساعة . « والعلوم فى مدينة باريس - كما يقول - تتقدم كل يوم . فهى دائما فى الزيادة . فإنها لاتمضى سنة إلّا ويكشفون شيئًا جديدًا . فإنهم قد يكشفون فى السنة عدّة فنون جديدة ، أو صناعات جديدة ، أو وسايط أو تكميلات »[1] .

---

(١) تخليص الإبريز ، ص ١٣٣ .

وتصبح سرعة وتيرة الحياة فى باريس ضابطًا لأيام رفاعة ، لاسيما وهو مضطر إلى التعجّل لتدارك مافاته ومافات بلاده منذ عصر النهضة الأوربية . « أكبّ كل الإكباب على إدامة النظر واستعمال الفكر والحرص على التحصيل والاستفادة » ، هكذا يقول عنه على مبارك فى الخطط[1] ونحن نعلم أنه كان ينفق جزءًا من مرتبه فى باريس على دروس خصوصية إضافية ، ويسهر للاستذكار فى ضوء مصباحه برغم نصيحة الطبيب الذى نهاه عن ذلك حفاظًا على بصره .

ويضيف على مبارك : « وكان للعالم الشهير مسيو چومار عليه فضل التعهد بالإرشاد والتعليم والمحبة الخصوصية » . ومن الحق أن نتعرف بچومار ، مدير البعثة ، فقد تجاوب رفاعة مع شخصيته الفذّة . هو مهندس جغرافى ، كان من علماء الحملة الفرنسية على مصر ، وآلت إليه مهمةُ نشر الأبحاث الشاملة التى قام بها أولئك العلماء ، فأخرج الكتاب الموسوعىَّ المعروف بوصف مصر . وكان چومار جَذوة مضطرمة من النشاط فى المحافل العلمية ، واللجان التربوية ، والهيئات الثقافية ، لاينى عن التنظيم والتنسيق ، وكتابة التقارير والأبحاث ، ومراسلة المجلات المتخصصة . أشرف هذا الرجل على دراسات رفاعة فى باريس ، وخَطَّط برامجه ، ووجد فيه

---

(١) الخطط الجديدة التوفيقية . - بولاق ١٣٠٥ / ١٨٨٨ ، جـ ١٣ ص ٥٤ .

ضالته المنشودة لنقل المعارف الحديثة إلى اللغة العربية . كما وجد رفاعة فى هذا الأستاذ طراز العالِم المطلوب فى العصر الحديث . ويَذْكُره بالإعجاب فى مقدمة رحلته فيقول : « وشهرة معارف مسيو چومار وحسن تدبيره يوقع فى نفس الإنسان من أوّل وهلة تفضيل القلم على السيف ؛ لأنه يدبّر بقلمه مالا يدبّر غيره بسيفه ألف مرة ، ولا عجب ، فبالأقلام تساس الأقاليم . وهمته فى مصالح العلوم سريعة ، كثيرة التأليف والاشتغال . والغالب أن هذه الخصلة فى سائر علماء الإفرنج . فإن مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل تكسر ، وكالمفتاح الحديد إذا ترك ارتكبه الصدأ . وجناب مسيو چومار يشتغل بالعلوم آناء الليل وأطراف النهار »[1] .

أيام مشحونة ، عامرة بالعمل المتواصل ، آناء الليل وأثناء النهار ، تلك هى الصفة الغالبة فى صورة چومار كما رسمها رفاعة ، وكأنه يصبو إلى إحرازها بدوره . وإنه ليحرزها ، فيملأ مصر علومًا ومعارف ، لابكتاباته وترجماته فحسب ، بل وخلال أفواج الطلبة الذين ربّاهم وأنشأ منهم المدرسين والمترجمين والموظفين ومحرّرى الصحف والكتب وقراءها . وهذا ما يستعرضه فى سيرة ذاتية قصيرة قدّم بها قصة « تليماك » التى ترجمها عن « فنلون » وعنونها « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » - ولايخفى ما فى صدر هذا

---

(١) تخليص الإبريز ، ص ٢١ .

العنوان من وعى بالزمن ودورة الأيام .

« أما بعد ، فيقول المرتجى أن يكون لوطنه خير نافع ، رفاعة بدوى رافع ، ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس : قد تقلّدت بوظيفة تربية التلاميذ مدّة مديدة ، وسنين عديدة ، نظّارة وتعليمًا ، وتعديلاً وتقويمًا ، وترتيبا وتنظيمًا . تخّرج من نظارات تعليمى من المثقفين رجال ، لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال .. عرّبت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمة ، وصحّحت لهم مترجمات الكتب المهمّة .. وكان زمنى إلى ذلك مصروفًا ، وديدنى بذلك معروفا .. وفى مدة نحو الثلاثين سنة لم يحصل لهمتى فتور ولاقصور » .

إن عنصر الزمن هو أبرز ما فى هذه السطور من عناصر ، تمامًا كما رأينا فى التعريف بچومار ، حيث ميّز رفاعة ماكان يتطلع إليه حقًا .

ويستلهم رفاعة روح العصر الحديث فيتغنى فى مصر بحركة « الوابور » . ولاحظوا أن قصيدته ذات قافيتين متلاحقتين لاقافية واحدة تمثل الثبات :

العقل فى الوابور حار ... نبغى الجواب فلا يحير
يجرى على عجل كبار ... فى رسم شكل مستدير
ملك له الوحى ائتمار ... أبدًا بأجنحة يطير
وبراق أسرى فى القفار ... يطوى الفيافى إذ يسير

بركان نار حيث سار فورًا وصار له هدير
أو سائح يهوى السفار لمصالح الدنيا سفير
أو عاشق سلب القرار أو يحسد الطرف القرير ؟
صبّ وفى الأحشاء نار شوقًا إلى القمر المنير
لليل يطوى والنهار وبه ازدهى الزمن الأخير
ما الفعل ينسب للبخار بل صنع خلاق قدير[1]

ولا أدلّ ارتباط مفهوم الحركة بمفهوم العصر الحديث فى دعوة رفاعة من قوله فى الصفحة السابقة لهذه القصيدة : « ومع ميل طباع عامة الناس إلى التكاسل والفتور ، فقد تجبر الأحوال والأوقات العصرية على حركة العمل حتى تصير طبيعية » .

ولقد تقمّص رفاعة تلك الوتيرة الجديدة حتى لفت بأسلوبه فى استخدام الوقت أنظار معاصريه وأدهشم . فهذا تلميذه صالح مجدى يسجل : « وكان قليل النوم ، كثير الانهماك على التآليف والتراجم ، حتى أنه ما كان يعتنى بملابسه »[2] وهذا غريمه على مبارك يشهد : « وكان دأبه فى مدرسة الألسن وفيما اختاره للتلامذة من

---

(١) مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية . فى الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى ، نشر محمد عمارة . – بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ ، جـ ١ ص ٣٤٠ .

(٢) صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن ، سيرة رفاعة رافع الطهطاوى . تحقيق د . جمال الدين الشيال . – القاهرة ، الحلبى ١٩٥٨ ، ص ٦٥ .

الكتب التى أراد ترجمتها منهم وفى تأليفاته وتراجمه ، خصوصًا أنه لايقف فى ذلك فى اليوم والليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية . وله فى الأولى مجاميع لم تطبع . وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية بحيث أمسى جميعهم . فى الإنشاآت نظمًا ونثرًا أطروفة مصرهم وتحفه عصرهم . ومع ذلك كان هو بشخصه لايَفْتُر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف . وكانت مجامع الامتحانات لاتزهو إلا به »

والجملة الأخيرة تصل رفاعة بچومار مرة أخرى . فقد اعتاد هذا العالم الفرنسى الذى أشرف على البعثة المصرية أن يُلقىَ عند امتحان الطلبة خطبة مناسبة للمقام يشيد فيها بالجهود المبذولة ، والآمال المعقودة على الخريجين ، وأشواط التقدم التى قطعوها . ومن خطبة لرفاعة الطهطاوى - على طريقة چومار - فى حفل امتحان مدرسة الألسن سنة ١٨٤٠ :

« بدت مدرسة الألسن كالغُرة فى وجه الأزبكية ، وامتازت بالأعمال السنية . تتبعتْ تلامذتُها فى العلوم البحث عن الأصل والفرع ، وتَبِعَتْ فى الفهوم العقل والشرع .. وظهرت ثمراتهم فى تعريب بعض كتبٍ عظام .. فلله منهم قلم ولسان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . أولئك هم السابقون السابقون .. وقد تعين منهم عدّة ،

ليكونوا للمدرسة عُدّة .. وأخذ كلٌّ يبثّ لتلامذته مما عرفه ، ليفوق الخلف سلفه »[1]

وتفوّق الخلف على السلف عبارة خطيرة تطرح قضية القدماء والمحدثين ، التى سيتصدى طه حسين فى « حديث الأربعاء » للمختصمين فيها ، فيفنّد حجج الطرفين على السواء ، مبيّنًا حقيقة التجديد والأصالة . وإنها لقضية الإنسان مع الزمن ، وقصّة صراع رفاعة ثم طه حسين مع أيامهما . على أن رفاعة – وإن تحرك بحركة الحضارة الغربية ونبض نبضها السريع – لم ينقُل نقلاً غاشمًا عن الغرب ، بل توخّى أن يستخلص الإبريز من التبر ، وأن يفصل الذهب عن التراب ، ليتحف مجتمعه بمعدن المدنية الثمين ، دون اغترار بالمظاهر ودون تحيّز لأفكار مسبقة ، أو كما يقول فى مقدمة تخليص الإبريز : « فما قصّرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة

---

(١) مختارات من كتب رفاعة الطهطاوى . اختارها د . مهدى علام ، د . أحمد أحمد بدوى . د . أنور لوقا ... القاهرة ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ، ١٩٥٨ ، ص ٢٠٤ – « ولا ينبغى لأبناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف تجرّد عن فضائل السلف ، وأنه لا ينصلح الزمان إذ صار عرضة للتلف ، فهذا من قبيل البهتان ، فالفساد لاعتقاد ذلك لافساد الزمان ، كما قال الشاعر :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو فى الزمان بغير عيب ... ولو نطق الزمان بنا هجانا . »

مناهج الألباب ، ص ٥٨٢ .

نزّهتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل » .

ولعل أتم تعبير عن موقفه فى دورة الأيام بين القدماء والمحدثين هو ماكتبه من قمة تجربته الإصلاحية « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » حيث نقرأ :

« ثم إن أحوال المنافع العمومية تختلف بتنقل الأحوال ، وتغيّر العادات ، ولايمكن استيعاب طرق تحسينها ، وأدوات تمكينها ، وإنما يجتهد كلّ إنسان فى الحصول على مابلغه من الوسع فى زمانه ، وما استحسن عرفًا من محسنات عصره وأوانه . ولولا تغير الأحوال والعادات لكان المتقدّم كفى المتأخر تكلفها ، وإنما حظّ المتأخّر أن يعانى نشد الشارد مع حفظه ، وجمع المتفرق بلحظه ، ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه ، وعادات وقته وأوانه ، فيثبت ماكان موافقًا ، وينفى ماكان مشاققا ، ثم يستمدّ خاطره فى استنباط الزوائد واستخراج الفوائد»[1] .

تلك هى إجراءات التجديد ، التى أفرد لها رفاعة فى العام التالى - ١٨٧٠ - رسالته الرصينة « القول السديد فى الاجتهاد والتجديد » . ولا يُصدر رفاعة حكمًا فيصلاً فى مسألة فتح باب الاجتهاد أو انقطاعه ، ولكنه يعتمد على الحديث القائل « يبعث الله

---

(١) ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » ليعّرف المجدّد بأنه ليس بالضرورة فقيها ، وليس بالضرورة فردًا واحدًا ، فالسياسة الشرعية فرع أصله الشريعة ، ويضطلع بتطبيق السياسة ولاة الأمور حسب ماتقتضيه المصلحة العمومية فى زمنهم . « وظيفة ولاة الأمور من أعظم واجبات الدين ، وأهم أمور المتوطنين ، فهم قوام الدين والدنيا ، وعليهم فى حركة الأعمال مدار البركة العليا »[1] وقارئ « مناهج الألباب » يذكر فى هذا الصدد الباب الرابع وعنوانه « فى التشبث بعود المنافع العمومية إلى مصر حسب الإمكان » ، والفصل الثالث منه « فيما دبره المرحوم محمد على من أصول المنافع العمومية الجسيمة ، والوصول بها إلى الحصول على التقدمات الصحيحة ، فى زمن يسير » .

إن مذهب رفاعة فى التجديد ترجمة صادقة للزمن فى تصوره ، وخلاصة لبحثه عن الغرب الذى دخل عصر الثورة الصناعية ، مما جعل حياته منذ رحلته سباقا مع الأيام .

ولايفترق طه حسين عن رفاعة الطهطاوى فى مسيرته الفكرية . وجوديا ووجدانيا ينتقل من ركود الزمن ورتابة الأيام إلى التيقظ والتحرك ، ثم إلى الإيقاظ والتحريك . يوجز فى كتاب « الأيام » . سنواته الأخيرة بالأزهر فيقول :

---

(١) مناهج الألباب ، ص ٥١٦ .

« كان يضيق أشد الضيق بهذا السأم الذى ملأ عليه حياته كلها ، وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها . حياة مطّردة متشابهة لايجدّ فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسى إلى أن ينقضى : درس التوحيد بعد أن تصلّى الفجر ، ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس ، ودرس فى النحو بعد أن يرتفع الضحى ، وبعد أن يصيب الفتى شيئًا من طعام غليظ ، ودرس فى النحو أيضًا بعد أن تصلى الظهر ، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يصيب فيه الفتى شيئا من طعام غليظ مرة أخرى ، حتى إذا صليت المغرب راح إلى درس المنطق يسمعه من هذا الشيخ أو ذاك . وهو فى كل هذه الدروس يسمع كلامًا معادًا ، وأحاديث لاتمسّ قلبه ولا ذوقه ، ولاتغذو عقله ، ولاتضيف إلى علمه علمًا جديدًا . فقد تربّت فى نفسه تلك الملكة كما كان الأزهريون يقولون ، وأصبح قادرًا على أن يفهم مايكرره الشيوخ من غير طائل .

وكان الفتى يفكر فى أن أمامه ثمانية أعوام أخرى ، سيعدّها ثمانين عامًا ، كما عدّ الأعوام الأربعة التى سبقتها »[1] .

ثم عبر البحر إلى فرنسا . « أقبل - كما يقول - إلى هذا البلد الغريب ليدرس ويحصل ويجوز الامتحان ويظفر بالدرجات الجامعية التى لم يظفر بها أحد قبله من مواطنيه »[2] فى فرنسا تغيرت وتيرة

---

(١) الأيام . - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٢ ، جـ ٣ ، ص ٣ - ٤ .

(٢) الأيام ، جـ ٣ ، ص ٨٤ .

الوقت الذى يعيشه . تدفقت المواد الدراسية الجديدة تتقاسم ساعات نهاره ، وتنتزع فكره من أفق إلى أفق دون هوادة .

ويقترن بهذه الحيوية لدى الطالب المجدّ شعوره - كرفاعة - بالتغيرات المتتابعة فى جوّ الغرب ، من مطر إلى صحو ومن برد إلى حرّ ، وإن كانت حواس طه حسين أشدّ تأثرًا بالأصوات ، أى بعصف الرياح وهدير الرعد . ولنسمعه يروى كيف تغير مذاق الأيام فى نفسه تمامًا مع تغير فى الأحوال الجوية :

« وإذا الحياة تبتسم له فجأة فى يوم من أيام الربيع ابتسامة تغيّر حياته كلها تغييرًا . وإذا هو لايعرف الوحدة ، ولايجد الوحشة حين يخلو إلى نفسه إذا أظلم الليل ، وكيف تجد الوحدة أو الوحشة إلى نفسه سبيلاً ، وكيف تبلغه تلك الخواطر التى كانت تؤذيه وتضنيه وتؤرق ليله ، وفى نفسه صوت عذب رقيق يشيع فيه البرّ والحنان ؟ .. كأنه تلك الشمس التى أقبلت فى ذلك اليوم من أيام الربيع فجلت عن المدينة ماكان قد أطبق عليها من ذلك السحاب الذى كان بعضه يركب بعضًا ، والذى كان يقصف ويعصف حتى ملأ المدينة أو كاد يملؤها إشفاقا ورعبًا . وإذا المدينة تصبح كلها إشراقًا ونورًا .

سمع الفتى ذلك الصوت يقرأ عليه شيئًا من شعر راسين ذات يوم . فأحسّ كأنه خلق خلقًا جديدًا . ومنذ تلك الساعة التى سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً .

ولم يعرف الفتى أنه أحب الحياة قط كما أحبها فى الثامن عشر من مايو فى ذلك العام . ولم يعرف أنه أقبل على الدرس كما أقبل عليه منذ ذلك اليوم . ولم يعرف أنه انتفع بالاختلاف إلى الجامعة والقراءة فى الكتب كما جعل ينتفع بهما منذ ذلك اليوم أيضا »[1]

وقارئ هذا الفصل الأساسى من كتاب « الأيام » يلمس الرابطة بين إيقاع الأحوال الجوّية الربيعية فى مناخ الغرب وبين انبعاث الفكر وانبعاث الحياة الوجدانية .

وتفتُّح الأزهرى الثانى فى فرنسا - طه حسين - على ماكان يجهله من مجالات الزمان فى التاريخ[2] ظاهرة ترتبط كذلك بظاهرة انتقال الجو فى أوربا من حال إلى حال ، لاسيما إيذانًا بالربيع . وكأن المطر يعقبه الصحو رمز للقطع ثم الوصل ، ستار ينسدل ثم ينكشف عن رؤية أوضح . ويتجلّى هذا فى الصفحات الرائعة التى استحضر فيها طه حسين تاريخ اليونان عندما وقف على أطلال الأكروپول فى بداية « رحلة الربيع » :

---

(١) الأيام ، جـ ٣ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) « وانظر ما المراد بالتاريخ وبكونه من العلوم العربية ، مع أن أوّل من ألف فيه علماء اليونان ، وأوّل ما ظهر فى هذا الفن كتب أو ميروس فى واقعة تروادة . ولم تؤلف فيه العرب إلّا فى الأزمنة الأخيرة . اللهم إلا أن يكون المراد بالتاريخ طريقة إنشاء تواريخ الحوادث السنوية على أسلوب حساب الجمل ، فيكون أيضًا تسميته علمًا من قبيل التوسع فى تعريف العلم » . تخليص الإبريز ، ص ٦١ .

« وقفت السيارة عند أصل القلعة ، وفى الوقت نفسه أقلعت السماء ، وسكت الغيث ، وأقبلت أشعة هادئة فاترة تنبىء السحاب فى رفق عذب بأن الشمس تريد أن تزور مشرق الحكمة فينقشع السحاب خفيفًا رشيقًا ، وتقبل الشمس فى أناة ووقار وجلال فتغمر القلعة بنورها كأنما تضمها إليها فى حبّ وحنان . ونصعد نحن فى أثناء ذلك وقد استحضرنا عقلنا كله وحسنا كله وشعورنا كله فقطعنا كل ماكان بيننا وبين العالم من صلة وأخلصنا نفوسنا للقلعة نريد أن نلتهمها حبًّا لها وإعجابًا بها وفناءً فيها .

وقضينا فى القلعة ساعتين عشنا فيهما ثلاثة قرون كاملة ، فاعجب إن شئت لثلاث مائة سنة تختصر فى ساعتين ، فهذه خصلة خصّ بها الإنسان تتيح له أن يختصر الزمان إن شاء أن يختصره ، وأن يتجاوز الزمان إن أراد أن يتجاوزه .

ألغينا من الماضى ثلاثة وعشرين قرنًا ، وأهلنا من الماضى قرونًا أخرى لاتحصى سبقت هذا العصر الذى اخترناه ووقفنا عليه هاتين الساعتين . وألغينا من آماد المكان مثل ماألغينا من آماد الزمان ، فتركنا الأرض القريبة والبعيدة ، وتركنا البحر والمحيط ، وتركنا الجو الذى يغمر البر والبحر ، ووقفنا عقلنا وشعورنا وحسنا على هذه القطعة الصغيرة من الأرض فى هذه القطعة الصغيرة من الدهر : وجعلنا نسعى مبطئين مترفهين ، ونقف متأملين متفكرين بين هذه الأطلال اليونانية لانعرف غيرها فخلونا إليها وخلت إلينا ،

وقلنا لها وقالت لنا ، وملأنا منها قلوبنا وانصرفنا عنها وقد ملأت علينا آفاق الأرض والسماء ، فذكرناها وسنذكرها ما امتدت لنا أسباب الحياة ..

وما أكثر ماكنت أجد ! وما أشد اختلاف ماكنت أجد ! فليس بالقليل على الإنسان المحدود أن يعيش فى هذه القرون الثلاثة ، فيشهد نشأة العقل ونموّ الفن وحياة الشعور ويقظة الضمير ، ويرى طريق الحضارة والرقى ترسم للأجيال وتقام فيها الأعلام تدفع إليها الإنسانية دفعا ، ويقال لها هذه هى الطريق التى ستسلكينها راضية أو كارهة ، راغبة أو راهبة ، لا تخرجين منها ولاتتحولين عنها مهما تلقى فيها من الخير والشر ومهما يعترضك فيها من النعيم والبؤس ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحتى تطوى السماء كطى السجل للكتاب .

ففى هذه القرون الثلاثة وفى هذه القطعة الضيقة من الأرض التى يحيط بها الطرف فى أيسر الجهد ويطوف بها الإنسان فى أقصر الوقت ، عرف الانسان أن له عقلاً وشعورًا وضميرًا . وأن له من أجل ذلك حقًا فى أن يكون حرًّا كريمًا وأن عليه من أجل ذلك واجبًا أن يرعى لنظرائه حقهم فى الحرية والكرامة والامتناع على الضيم .

فى هذه القرون الثلاثة من الدهر وفى هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، نشأت الديمقراطية ، فعرف الإنسان أن سلطان الحاكم لايتنزّل من السماء وإنما يخرج من الأرض ، وأن بين الحاكم

والمحكوم عقدًا اجتماعيًّا تصدره القوانين المكتوبة والدساتير التى تنقش فى القلوب أوّلاً ثم تكتب فى الصحف »[1]

من التاريخ اليونانى ينطلق طه حسين إلى الحاضر وإلى المستقبل . تكاملت مراحل البشرية فى وعيه الجديد بالزمن .[2] فكتابه « قادة الفكر » يسرد « تاريخ العقل الإنسانى وما اعترضه من ضروب التطور وألوان الاستحالة والرقى حتى انتهى إلى حيث هو الآن » . خطّ يمتد من شعر هوميروس إلى فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وغزو الإسكندر للشرق ، فغزو الرومان للغرب ، مما أدخل الحضارة إليهما خلال نظم متشابهة ، ورثتها المسيحية فالإسلام ، ثم بعثتها حركة النهضة فانتشرت على صعيد العالم الحديث باختراع الطباعة وسرعة المواصلات . ويحدّد الرائد مكاننا من هذا الموكب فى استطلاعه القيّم « مستقبل الثقافة فى مصر » ، عقب إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٣٦ ، معلنًا أن « مصر تبدأ عهدًا جديدًا من حياتها ، وإن كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها فيه أن تنهض بواجبات خطيرة وتبعات ثقال » . وهنا يُبرز طه حسين من ثنايا التاريخ تلك الصلة التى أراد رفاعة أن يوثقها فى زمنه بين بلاده وبلاد الإفرنج . « فالعقل المصرى منذ

---

(١) رحلة الربيع والصيف . – بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٥٧ ، ص ٥ – ٧ .

(٢) A. Louca, "Taha Hussein et l'Occident", in Cultures, Les Presses de l'Unesco et La Baconnière, vol. II, no. 2, 1975, pp. 118-142.

عصوره الأولى إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط » .

وما الأخذ بحضارة الغرب - لدى طه حسين ورفاعة على السواء - إلّا منهج للخروج من التخلّف الزمنى ، واستعادة القوة ، والعيش الكريم فى واقع العصر . ولم يكن مجرّد كلام تصريح المستشار الفنى لوزارة المعارف : « ونحن نريد الاستقلال العلمى والفنى والأدبى ، هذا الذى يمكننا من أن نهيىء شبابًا قادرين على حماية الوطن ، أرضه وثروته من جهة ، وعلى إشعار الأجنبى بأننا مثله وأنداده من جهة أخرى »[1]

ولقد استغرق صنع المستقبل نشاط كلٍّ من الرائدين ، بعد أن انتظمتهما سلسلة الزمن المتماسكة الحلقات . فى الغرب رأى رفاعة أن العالم هو من يكتشف جديدًا ، أى من ينصرف إلى المستقبل ، وليس من ينغمس فى المعلوم ويكدّس الشروح والحواشى : « ومن جملة مايعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم .. فليس لكتبها شروح ولاحواش إلا نادرا .. فالمتون وحدها من أوّل وهلة ، كافية فى إفهام مدلولها . فإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان ، تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده ، من غير محاكة الألفاظ ، فيصرف سائر همته فى البحث

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر . - القاهرة ١٩٣٨ ، جـ ١ ص ٤٤ .

عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم وعن سائر ما يمكن إنتاجه منها . وأما غير ذلك فهو ضياع »[1] .

اختصار الوقت غاية ووسيلة . وعى بحركة التاريخ مسَّ الرائدين ، فجعلهما يبثان حركته من حولهما ، لا فى حفز البحث العلمى فقط ، وابتداع برامج الدراسات التى خلا منها الأزهر فحسب ، بل وفى دفع عجلة الأدب بإنماء فنون تتميز بالحركة . فالرواية – من تعريب « تليماك » إلى « أديب » – مبنية على تحرّك الزمن بالأحداث ، والمسرحية – منذ وصفها الأوّل فى تخليص الإبريز إلى مجموعات طه حسين فى تحليل روائعها – أدب يعهد بالكلمة إلى الحركة التمثيلية المباشرة ، فضلاً عن الصحافة السيارة المندفعة المحمومة ، وحركة الترجمة وهى أشبه بعملية نقل دم مستمرة .

ولقد أدّت معالجة هذه الفنون النابضة بالحركة وإضافتها إلى المأثور من فنون الأدب العربى ، إلى إحياء عارم لشباب اللغة ومقدرتها على التعبير . فقد كان أقصى مايرمى إليه الأديب فى استخدام اللغة حتى نهاية العصر العثمانى هو البلاغة اللفظية ، والمحسنات البديعية . ولم يكن بدّ لرفاعة – بحكم انتقاله فى المكان – من أن يتحول عن تلك الغاية الجوفاء عندما أراد أن

---

(١) تخليص الإبريز ، ص ١٣١ .

يصف لقارئه ما اطلع عليه من تفاصيل العيش فى الغرب ، وأن يشرح له المبادئ الحضارية التى أسس عليها المجتمع المعاصر نظمه ومعاملاته . لم يكن له بدّ من التبسيط والتدقيق ، أى الخروج من مزالق السجع والجناس التى تجرف المعانى جرفا وراء جرس الألفاظ وتضحى بالمدلول المقصود ، وكأن اللغة عاجزة عن الإعلام . فعمد كما يقول فى « تخليص الإبريز » إلى « ارتكاب السهولة » : « وقد حاولت فى تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز ، وارتكاب السهولة فى التعبير ، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه » . قبل ذلك كانت المقامة الضحلة هى المثل الجمالى الأعلى يتبارى الأدباء فى صياغة ألغازها أو فكها ، دون رغبة فى تثقيف العامة[1] لم يكن الأدب للجمهور . إن الجمهور القارئ ، والرأى العام ، والثقافة ، والإعلام ، مفاهيم حديثة أدركها رفاعة فى الغرب ونقلها إلى واقع مواطنيه ، فكان المفكر والأديب الملتزم . و« أديب » طه حسين ، الذى يجتذبه الغرب ، ممعن فى هذا الاتجاه . وتذكرون فاتحة الرواية : « زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بينه وبين الناس .. فهو لايحسّ لنفسه وإنما يحسّ للناس ، وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس ، وهو لايفكر لنفسه وإنما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لايعيش لنفسه وإنما يعيش للناس » .

---

(١) راجع الفصل السابع من هذا الكتاب .

ولاشك أن طه حسين بطرح سؤال « من هو الأديب ؟ » قد أراد أن يعرف من جديد غرض الأدب ، أى وظيفته فى العصر الحديث ، والأشكال التى يتخذها بالتالى لأداء هذه الوظيفة .

« أديب » إذن عمل فنّى ينقد الإنشاء الزخرفى اللاهى ، ويلوى رأس الأدب صوب معمعة العصر الحاضر . والنقد لم يعد موازنات بلاغية . إن البعد النقدى عند طه حسين يصدر عن تصوّر الزمن ، تمامًا ككتاب الأيام . لقد فجر الناقد - أستاذًا وعميدًا - فى عصور الأدب العربى طاقة الفكر الحديث . ودارت أشهر معاركه - معركة الشعر الجاهلى - على مضمون الزمن ، فهى حملة شنّها على تجميد حقبة معينة من الزمن فى عقولٍ يحيا أصحابها فى القرن العشرين . قصد أن يسلّط أشعة النقد المعاصر لا على الأدب المعاصر فحسب ، مجزوءًا يتيمًا ، بل أن يسلطها أيضًا على الماضى حتى جذوره ، لكى يبرأ المثقفون من الانفصام ، ويتّحد فى ضمائرهم ماضٍ لهم وحاضر متجانسان، يغمرهما نفس النور. وفى ذلك بناء الشخصية السوّية.

وإذا قلنا إن منهج الناقد فى تناول الشعر الجاهلى هو منهج « الأيام » أى استجواب الزمن ، فنحن لانفترض تلك الأصالة فرضًا نظريًّا ، وإنما نرى بزوغها موضوعيًّا من تحليل النصّين ومن واقع تسلسل الكتابين فى ذهن المؤلف . فلم يكن من قبيل المصادفة أن ينشر طه حسين فصول « الأيام » متتابعة فى مجلة « الهلال » سنة ١٩٢٦ ، فورًا بعد أزمة الشعر الجاهلى . ولعل خير من لاحظ

الرابطة بين ظهور الكتابين هو الدكتور عبد الحميد يونس ، وإن قصرها على رابطة نفسية بين فعل وردّ فعل ، على حين نلمس فيها تأكيد مرجع منهجى مؤسس . يستخلص د . عبد الحميد يونس وظيفتين لهذه الترجمة الذاتية : « أولاهما تعبير عن الذات فى مرحلة التكوين وهى أهم مراحل العمر ، وثانيتهما أنها تعبير عن موقف نفسى خاص استتبع بالضرورة تداعى صور الطفولة وبواكير الصبا ، فانتزعها من أعماق الذاكرة ، وصوّرها بما يناسب الموقف النفسى ، وهو الإكبار من شأن الفكر الإنسانى والإلحاح على حريته والاستخفاف - بل الاستعلاء - على المحافظة والسلفية والجمود » . ثم يضيف شهادة خاصة : « ولقد ظللت أفسّر كتاب « الأيام » على أساس اقترانه بمحنة الشعر الجاهلى ، وكنت أعدّ ذلك اجتهادًا منّى يستلزم الظنّ ، أو الترجيح فى أحسن الأحوال ، حتى إذا طلبت إلى الدكتور طه حسين أن يكتب بنفسه مقدمة خاصة للطبعة البارزة منه وجدته يسجل هذه الحقيقة ، وهى أنه كان استجابة للهموم الثقال التى كان يحس بها وقتذاك إبان الاضطهاد الذى وقع عليه من أجل تحرير الفكر باصطناع الشكّ فى الروايات القديمة التى جعلها المحافظون فى مكان المسلمات والمقدسات والبديهيات »[1] .

---

(١) د . عبد الحميد يونس : « طه حسين بين ضمير الغائب وضمير المتكلم » . فى مجلد « طه حسين كما يعرفه كتّاب عصره » - القاهرة ، دار الهلال ، ص ٦٣ - ٧٠ .

على أن طه حسين لاينبذ القديم كما اتهمه بذلك خصومه ، بل إنه أحرص منهم على التراث ، يريد إحياءه لاتحنيطه . نقرأ فى أوّل فصول « حديث الأربعاء » :

« والذين يظنون أن الحضارة الحديثة قد حملت إلى عقولنا خيرًا خالصًا يخطئون . فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًّا غير قليل ، لم يأت منها هى ، وإنما أتى من أننا لم نفهمها على وجهها ، ولم نتعمق أسرارها ودقائقها ، وإنما أخذنا منها بالظواهر ، وقنعنا منها بالهين اليسير . فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضًا .. إنها لاتنكر القديم ولاتنفر منه ، ولاتصرف عنه ، وإنما تحببه وترغب فيه ، وتحث عليه ، لأنها تقوم على أساس منه متين . ولولا القديم ماكان الحديث » ويستطرد طه حسين ثائرًا على من يمسخون المعنى الصحيح لكلمة التجديد : « فليس التجديد فى إماته القديم ، وإنما الجديد فى إحياء القديم ، وأخذ مايصلح منه للبقاء . وأكاد أتخذ الميل إلى إماته القديم أو إحيائه فى الأدب مقياسًا للدين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها . فالذين تلهيهم هذه الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يذوقوا الحضارة الحديثة . ولم ينتفعوا بها ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا منها صورًا وأشكالا ، وقلّدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل . والذين تلفتهم الحضارة إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم ، وتملأ

نفوسهم إيمانًا بألّا حياة لمصر إلّا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى ، وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عنايتها بما يمسّ حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا ، وهم الذين ذاقوا وهم القادرون على أن ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين » .

هنا نجد التوازن الذى سبق إلى التعبير عنه رفاعة الطهطاوى فى نهاية مطافه بين الاجتهاد والتجديد حين كتب فى « مناهج الألباب » :

« ولما كانت الديار المصرية فائقة فى المآثر ، جاهلية وإسلامًا ، ولها أسبقية التمدّن قديمًا وحديثًا ، والآن تنافس الممالك الأخرى فى الفنون والصنائع ، وسائر أنواع المنافع ، لها الآن أن تزاحم فى ميادين صحيح الفخار ، وتصون درجة السلف التامة الاعتبار »[1]

هذا هو تفاعل الأيام فى قلب طه حسين وقلب رفاعة الطهطاوى وتفاعلها فى عقليهما . وذلك هو استقبال مصر للنهضة من خلال تجربتها الشاملة عبر المكان والزمان . فمجرى الأيام - التى يتألف منها عهد النهضة عندنا - إنما يتمثل فى أمرين أجمعت مدرسة الطهطاوى ومدرسة طه حسين على تمييزهما ، وأدائهما معًا كحركة مزدوجة : متابعة فى السير ، وانتقال من نقطة إلى نقطة . أى

---

(١) مناهج الألباب ، ص ٢٦٠ .

مواصلة إنماء الشخصية العريقة نموًّا متكاملاً ، بإحياء التراث حياة تلائم بعثه حقًا فى العصر الحديث ، مع التقدم فعلاً من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل .

وليس أوضح من تحليل طه حسين فى « حديث الأربعاء » :

« الحياة الإنسانية كما قلنا غير مرة ، تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى .

فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه ، مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون إلى أن نشعر بأن حياتنا الآن هى إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهى أثر قوىّ من آثارها ، ونتيجة لازمة من نتائجها .

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا ، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهى تغاير من وجوه .

وإذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطوّر والحاجة إليه ، مترددون فى ميولنا وأهوائنا وآرائنا . فمنّا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه ، حتى تصبح غايته الحقيقية ألاّ يكون إلا ابن أمسه ، وإلاّ حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التى لانعرف لها أوّلاً ولا آخرًا ، وهى سلسلة الحياة . ومنّا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ،

فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر إلّا فى شىء واحد : هو أن يعدو ، وأن يعدو ماستطاع إلى الأمام . دون أن يقف فيفكر فى حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه .

ويشتدّ الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين فى نصره ، وأشباع الجديد الغلاة فى التشيّع له : يشتدّ هذا الخلاف ويعظم ، حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطوّر ولابقاء ، وإنما هى محققه لهذين الأصلين تحقيقًا طبيعيًّا غير متكلّف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم ، فتتوسط بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الأمة . والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث »[1] .

لقد جاهد طه حسين كما جاهد رفاعة ضدّ « التحامل والتفاضل » وأحلّا محلّهما إزاء الغرب والحداثة - إذا شئتم أن نستأنف نفس القافية - قيم « التعادل والتكامل » .

ويطيب لى أخيرًا ، ونحن على أرض الأندلس ، أن أستشهد

---

(١) حديث الأربعاء . - القاهرة ، دار المعارف ، طبعة ١١ ، ١٩٧٤ . جـ ٢ ، ص ٣ - ٤ .

بمطلع قصيدة شوقى التى أحيا بها هنا سينية البحترى :

أاختلاف النهار والليل يُنسى ؟ اذكرا لى الصبا وأيام أُنسى

إن عبقرية الشاعر من عبقرية اللغة ، ففى كلمة « الاختلاف » يكمن هذان المعنيان : التباين والتتابع ، النغاير والتعاقب ، القطع والوصل . وتلك حكمة الأيام فى مسيرتها ، وحكمة العلوم الإنسانية كما تتفرع حاليًا فى الفكر الغربى انطلاقًا من مفهوم « الاختلاف » – La différence الذى أذاعه العالم السويسرى « دى سوسير » ، مؤسس الألسنية(Ferdinand de SAUS-SURE) .

سلام على منشىء مدرسة الألسن بالقاهرة . وسلام من معهد مدريد المصرى على مؤسسه الذى جدّد به التراث العربى للعالم بأجمعه ، وخلّد مغزى سفارة الشرق إلى الغرب متعلّما ومعلّمًا .

٩

مرحلة المرآة*

جرى العرف فى لغة المثقفين على ربط مفهوم الحداثة بمفهوم الزمان . وقسّم المؤرخون أطوار الأمم عبر الزمان فقالوا: العصر القديم – العصر الوسيط – العصر الحديث . أى أنهم صدروا عن تعريف زمنى للحداثة بأنها نقيض ماسبق فى الماضى القريب أو البعيد .

ولايخفى مافى هذا التعريف من قصور ، فطن إليه النقاد والعلماء . فى القرن الماضى راجت نظريات التطور – لانظرية « دارون » فى علم الأحياء فحسب بل نظرية مؤسس علم الاجتماع الحديث « أوجوست كونت » الذى رتّب فى ثلاث مراحل أحقاب ارتقاء الفكر البشرى من الأساطير إلى الميتافيزيقا إلى العلم الوضعى . ولكن تدقيق الأبحاث اللاحقة – وقد تفرعت الآن وتشعبت علوم الأحياء والاجتماع – أظهر بعض ماينطوى عليه

* ألقى هذا البحث بعنوان « منطلق الحداثة : مكان أم زمان ؟ » فى الندوة العلمية التى عقدها مهرجان القاهرة الأوّل للإبداع العربى . (٢٤ – ٣٠ مارس ١٩٨٤) .

ذلك التعميم النظرى من أخطاء . كذلك تخاصم أسلافنا - على اختلاف عصورهم - فى معركة هى هى ، معركة القدماء والمحدثين . فمن العبث أن نطرح الموضوع على أسلوبهم ، وأن نثير اليوم مناظرات خطابية تمّ الفصل فيها ، وأن نستنزف فى تكرار عقيم طاقة محسوبة علينا إذا أردنا الإبداع .

ولعلّ أصدق تعريف للحداثة هو مانستنبطه من تجارب الذين تقمّصوا حولنا تلك الظاهرة بحياتهم وأعمالهم . فهم أخبر بمعاناة أطوارها ، وبظروف انبثاق تيارها . ولديهم الجواب عن سؤالنا : منطلق الحداثة مكان أم زمان ؟ وأقتصر فى هذا الحديث على اختيار مَثَل واحد من بين روّادنا ، لوضوحه ، ولقرب عهدنا به ، ولإجماع الآراء على مرادفة اسمه لمفهوم الحداثة ، ألا وهو رفاعة الطهطاوى .

ولن أتناول من ملحمة رفاعة إلّا برهة قصيرة عاشها ذلك الرائد فى بداية تجربته الإبداعية ، وسجلها تسجيلاً عفويًا . وهلة فذّة تبلورت فيها نقطة الانطلاق . فها هوذا يصل إلى مرسيليا (سنة ١٨٢٦) وينزل من السفينة التى حملته إلى بلاد « الإفرنج » . وبعد الحجر الصحى فى الميناء ، يخرج إلى شوارع المدينة مع رفاقه أعضاء البعثة الدراسية - ولاننسى أنه إمامهم . فما الذى صادفه فى تلك الجولة الأولى ؟ ماذا لفت نظره ؟ وكيف تفاعل ؟ يقول فى « تخليص الإبريز » :

« وكان أوّل ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب (.....)

وحين دخولى بهذه القهوة ومكثى بها ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة لما أن بها كثيرًا من الناس فإذا بدا جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج وظهر تعدّدهم مشيًا وقعودًا وقيامًا فيظن أن هذه القهوة طريق ، وما عرفت أنها قهوة مسدودة إلّا بسبب أنى رأيت عدة صورنا فى المرآة فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج . فعادة المرآة عندنا أن تثنى صورة الإنسان كما قال بعضهم فى هذا الشأن :

أبرقع منظر المرآة عنه ... مخافة أن تُثنِّيه لعينى
أقاسى ماأقاسى وهو فذّ ... فكيف إذا تجلى فرقدَيْن

وعادتها عند الإفرنج بسبب تعددها على الجدران ، وعظم صورتها أن تعدّد الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والأركان ، ومن كلامى :

يغيب عنى فلا يبقى له أثر ... سوى بقلبى ولم يسمع له خبر
فحين يلقى على المرآة صورته ... يلوح فيها بدور كلها صور

وقال شيخنا العطار لم أر الطف تخيّلًا فى هذا المعنى من قول ابن سهل :

ألقى بمرآة فكرى شمس صورته
فعكسها شبّ فى أحشائى اللهبا

قال الحريرى فى مليح بيده مرآة :

رأى حسن صورته فى المرآة فأصبح صبًّا بها مدنفا
وصيرّ يعقوب اسمًا له يشير بأن قد رأى يوسفا

وسيأتى كمال الكلام على ذلك كله فى ذكر مدينة باريس » (ص ٣٥ - ٣٦)

حدث عابر ، وسطور غزيرة المضمون ! فما الذى جرى لرفاعة حتى أجرى قلمه بهذا كله ؟ كان الفتى الصعيدى الأزهرى - وهو يخطو خطاه الأولى على أرض الإفرنج - فى أدق حالات الإرهاف والإرهاص ، مستطلعًا بكل مشاعره ، مشدودًا إلى الخارج ، على حين تتحفّز فى لاوعية جميع الخواطر التى عبأها شبابه وحشدتها ثقافته . عقله إذ ذاك لا يستقصى مايدور فى وجدانه ، وإن كان يساوره الشعور بأنه يجتاز معبرًا . لذا حرص فى كتاب رحلته على رواية هذه الواقعة التى تبدو لنا أمرًا تافهًا أو عاديًّا ، غير أنها فى تقديره مغامرة شائقة وحدث وجودىّ هام . ولنتمثل غرابة مادهاه : فهو لايكاد يلقى نظرة على العالم الخارجى الجديد - فى أعمّ مظاهره - حتى يصبح المشهد قبالته مشهد الذات ، ومواجهة لوجهه الخاص .

لقد دخل قهوة مائجة بالناس وهو يتوقع أن يستكشف الطرائف والعجائب . يستهويه المجهول ، ويصرفه المشهد الجديد عن نفسه . وفجأة ينحسر كلّ مايراه ؛ إذ تطالعه صورته وهى ترتسم أمامه . صورته هو فى هذا الإطار المختلط الذى يبصره من حوله . وتستأثر تلك المفاجأة بانتباهه . يمعن النظر فيتبين أنه جالس فى صدارة المحل ، بل إنه المركز الهندسى الذى يتشكل امتدادًا منه كل المكان . وهو يتعرّف نفسه لأنه يتعرف الحركة التى يقوم بها ولا يقوم بها جاره . أى أنه يتثبت فورًا فى ذلك الوسط الذى يكتنفه من قدرته المستقلة على التحرك الذاتى . لذا يتهلّل ويتعلّل . تحيته للمرآة تحيّة لنفسه . فرحة اللقاء بعد فراق مرهوب . ويستعرض كذلك صور رفاقه ويستجمعها . يميّز الملامح . أى تتجلّى له أوجه شبه أبرزتها أوجه الاختلاف . لقد اطمأن ، فتحدث وأفاض . وأطنب فى الإشادة بفعل المرآة . وإنه ليحتفى بها - نثرًا وشعرًا - لأنها أتحفته بصورته الحبيبة إليه ، وضاعفتها - أى أثبتتها بالمطابقة وأكبرتها بالانتشار .

شعوره بنفسه شعور مكانىّ على كل حال . وفى اللغة العربية يرتبط لفظ « التمكن » - أى القدرة والاستطاعة - بلفظ المكان . « تمكن » رفاعة إذن وهو شاخص إلى المرآة . أتم استكشاف الأبعاد التى يحتلها فى المكان بجسمه وقسماته الصعيدية وزيّه الأزهرى ، ورأى من حوله مواطنيه والإفرنج فى لوحة

واحدة ، وذلك خلال سلسلة هندسية من التنسيقات البصرية تقتضيها شبكة العلاقات التى تؤلف الصورة فى المرآة .

بين أيدينا شهادة مباشرة بردّ الفعل ثقافيا ونفسانيا واجتماعيًّا عند ملتقى حضارىّ أحدثه الانتقال فى المكان . وتتضح لنا قيمة هذه الوثيقة إذا ألممنا بأبحاث علم التحليل النفسى الحديث التى أجراها العالم الفرنسى « جاك لاكان » – بعد نيف وقرن من تجربة رفاعة فى مرسيليا . وبالطبع لم يعرض « لاكان » لرفاعة أو لأىّ رحالة ينتقل من مكان إلى مكان ، وإنما درس مايسميه « بمرحلة المرآة » فى حياة الطفل الناشىء واستخلص ضرورة مرور الإنسان فى طفولته بذلك الطور الذى يؤهله إلى الوعى بالذات وتملك شخصية مستقلة . تتبّع « لاكان » – بمراقبة الأطفال أمام المرآة – مايجتازه الناشئ من مدارج النضج النفسانى منذ منتصف عامه الأوّل حتى مَنتصف عامه الثانى ، أى فى نهاية فترةالرضاعة وقبيل الانفطام . ورصد أثناء تلك الفترة انطلاقًا فى المكان ، حدّده بسلسلة من الأطوار ، أتوخى غاية التبسيط فى إيجازها كما يلى :

أولا : يظنّ الطفل الناظر إلى المرآة أن أمامه شخصا مجهولا .

ثانيا : يفطن إلى أنه يرى صورة لاواقعًا ملموسًا .

ثالثا : يدرك أنه صاحب تلك الصورة .

ونحن نجد فى حديث رفاعة مايشبه ذلك التدرج . ونقرأ فى فصول « تخليص الابريز » – الذى استغرقت كتابته خمس

سنين – فصول التئام شخصيته الحضارية .

فى هذا النص التمهيدى الخلاب ، ماأروع وما أصفى رؤياه عندما تصدّى لرؤية الإفرنج فى بلادهم ! سرت فى كيانه فورًا شحنة عاطفية . هزّة وجودية اعترته وهو على عتبة العالم المجهول . واندلعت فى خاطره لمحة كالبرق جَلَت محور سعيه ، وبيّنت موقفه الجديد . أسفر برنامجه ، وتلقاه كاملاً فى لحظة فريدة .

ضمن رواد المقهى الذى دخله ، لايلاحظ أولا إلا تكاثر الناس ، ويظل فى البداية بينهم ومثلهم شخصًا مجهولاً . أجل ، فقد حضر وجانب من شخصيته مجهول لديه ، مُدْغَم ، بديهى ، قد انطوى عليه فى التصاقه بالواقع المحلّى حتى سفره من مصر . وابتعاده الآن عن ذلك الواقع يمكنه من أن ينظر إليه ، وأن يراه صورة مرسومة يلمّ فى خارجه بأطرافها ، ويتفحصها تفحّصًا موضوعيًّا . وأما إدراكه فى ختام هذا الشريط الفكرى السريع أنه صاحب تلك الصورة فذلك انتقال من المدلول إلى الدال ، من الموضوعية إلى الشخصية الواعية ، أى إلى المبادرة والتصرف والتعبير عن النفس التى ثاب إليها .

هكذا يتسلّم « الإمام » زمام الأمور فى عهد جديد ، ويشعر بما اكتسبته وظيفته من أعباء جديدة . ذلك أن المسئولية تمتدّ عنده الآن على اتساع المجال الذى دلف إليه ، وفتحه بالانفتاح عليه . فهى اضطلاع بالعلاقات التى يستوجبها التعامل مع سائر مايضمّه هذا

المكان المشترك . ويقتضيه التفاهم مع العالم ومع نفسه أن يستخدم لغة شاملة ، تجمع بينهما . سوف يتسمّع رفاعة تجاوُب رموز تلك اللغة الشاملة فى جرس لغته الأصلية وفى تصوراتها . فلا بدّ له من شقّ طريق فى بلاد الإفرنج هذه بدايته . عليه أن يتحرك هنا خلال ازدحام الناس فى القهوة ، وأن يرشد رفاقه ، بانيا توازنه على الترابط الذى استكشفه بين مركز ثقْله ومراكز من يتحركون من حوله .

تجارب تصوُّر المكان إذن ليست توهمات سلبية . ولا أدلّ على شدة انفعال رفاعة فى تجربته تلك من تعبيره بالشعر عن حاله .

وقد يبدو لنا استشهاده بأبيات قديمة ونسجه على منوالها من قبيل التظرف واللهو . ولكن صنعة الأديب قناع . ولا بأس على العاطفة من استعارة المصطلحات المتداولة ، ومن الانسياب فى القوالب المألوفة – لاسيما وقد بات الجمال فى ذوق المتأخرين من جيل رفاعة هو التقليد ، وأصبح المأثور لديهم أثيرًا . فلنستمع إلى الهمس وراء المجهور :

هنا سبعة أبيات لأربعة شعراء . نبع التراث يتدفق . كأن رفاعة يلوذ بماضيه .

وأوّل مايرد إلى خاطره بيت يعبرّ عن خوفه من الاندفاع نحو العالم الخارجى . خوف يغريه بالانطواء ، بإسدال ستار على المرآة أمامه ، وحجب الرؤية عن بصره . إنه يردّد مع شاعر نكرة :

أبـرقـع منـظر المـرآة عنـه
مخـافـة أن تُـثـنِّـيـه لـعـيـنى

والقول ينطبق انطباقًا مباشرًا على رفاعة ، فهو الذى يواجه المرآة ؛ وهو الذى يخشى ثنائية صورته ، ويأبى أن ينفصم عن شخصيته . إنه لن يطيق ازدواج شكله ، مهما قطع فى سياحته من أجواز الفضاء :

أقـاسى مـا أقـاسى وهـو فـذّ
فـكيـف إذا تجـلّى فـرقـديْـن !

ويمعن رفاعة فى فراره إلى الداخل . ينزلق على عمود الشعر حتى أغوار الأدب العربى . يغوص من يومه إلى أمسه إلى الماضى السحيق . فهو يذكر أستاذًا معاصرًا يطمئن إليه - شيخه العطار - ثم يستدعى ابن سهل والحريرى . ويسمّى يوسف وأباه يعقوب . وتنصبّ لواعجه فى بيتين يرتجلهما فإذا هو ينشد على أرض الإفرنج إنشاد الواقفين على الأطلال والدمن ، أى أنه يبلغ قاع العصر الجاهلى ، ويرجّع أصداء التراث من أقدم مكامنه ، إذ يقول « ومن كلامى » :

يغيب عنى فـلا يبقى لـه أثـر
سـوى بقلبى ولم يسمع لـه خبر

ونعلم جميعًا أن غياب المحبوب واقتفاء أثره فى الصحراء ، والتحسّر على دياره ، من أعرق أغراض الشعر العربى ، ولكن رفاعة يبوح طىّ تلك المصطلحات - فى صدق اللاوعى - بانتمائه الحضارى ، ويؤكد عمق جذوره فى الأرض التى نبت عليها .

رحلته إذن وصْل لاقطع ، وجود يريد صاحبه أن يمتدّ ويستمر . فكيف عساه يتولّى حمل هذا العبء ؟ ألن يعوقه الحنين إلى الأمس عن السير قُدما فى رحاب الغد المفتوح ؟

هنا تتفتق أصالة رفاعة . فسوف يتمكن - بفضل وعيه الجديد - من إبداع مايتجاوز به ذلك التناقض بين الشدّ والجذب . وهذا ما ينبئنا به بيته الثانى :

فحين يلقى على المرآة صورته
يلوح فيها بدور كلها صور

لاجدال فى إيجابية هذا البيت . شخص يلقى على المرآة صورته فتلوح بدورًا ، أى تتعدد وتتألق جوانب شخصيته ، أى تزداد ثراء وتزداد جمالا . ويلحّ رفاعة على وصف البدور بأنها « كلها صور » . وتلك خطوة هامة فى نظر علم النفس ؛ لأن الانتقال هنا من الواقع إلى الصورة هو الانتقال من عالم محدود مقصور ، جامد جمود المادة ، إلى عالم تنطلق فيه عناصر الواقع من عقالها وتصبح رموزًا لهذا الواقع . والرموز مرنة ، طيّعة للتحرك فى الأذهان، تدور فتحدث

تشكيلات متعددة مختلفة ، وتبيح لثنايا الواقع الخافية أن تتجلّى وتتلألأ . والرموز تمدّ فيما بينها خيوطًا من العلاقات ، فتنسج نسجًا جديدًا يطرحه الفكر على الفكر . هذا النسق الرمزى هو نسق الإبداع ، بما يؤوى من أصالة وجدة .

إن التعامل بالرمز المجرد - بدلاً من تكتيل الواقع - هو الذى يتيح صياغة المعادلات واستيفاء حلولها . والمعادلات رياضة ذهنية خلاقة ، كما نعهدها فى علم الجبر الذى أتقنه العرب . قد تكون عناصر المعادلة موجودة غير أنها ساكنة ، لامقابلة بينها ، ولانتيجة بالتالى تستحدثها . أما التجديد فينشأ من تقريب طرفى المعادلة ، فتؤدى إلى نتيجة لم تكن معروفة عند اقتصار المعلومات على طرف واحد من طرفيها . كان رفاعة متين العلم بطرف المعادلة العربى الأزهرى ، فكان يعتقد « أن الأعجام لاتفهم لغة العرب » ، وأن اللغة العربية هى المكرمة بالعلم ، تمتاز بقواعدها ، وتمثل مباحثها أفضل ثقافة . كتب فى « تخليص الإبريز » (ص ٦١) :

« نقول نحن : علوم العربية ونريد بها الاثنى عشر علمًا المجموعة فى قول شيخنا العطار :

نحـو وصرف عـروض بعده لغـة
ثم اشتقـاق قريض الشعـر إنشاء
كـذا المعـانى بيـان الخط قـافيـة
تـاريخ هـذا لعلم العرب إحصـاء

وبعضهم زاد البديع وآخر استحسن زيادة التجويد وبالجملة فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح إذ حصْرها وتقسيمها فى ذلك جعلى لاحصرى ، والظاهر أن هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية » .

غير أن رفاعة يتعلم اللغة الفرنسية ، فيقارن بينها وبين لغته ، وحينئذ يقول :

« ثم إن اللغة الفرنساوية كغيرها من اللغات الإفرنجية لها اصطلاح خاص بها وعليه ينبنى نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبيانها وخطها وإنشاؤها ومعانيها ، وهذا مايسمى اغرماتيقى فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فنّ يجمع قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك ، نعم اللغة العربية أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأحلاها على السمع .

فحينئذ العالم باللغة اللاطينية يعرف سائر مايتعلق بها فله إدراك فى النحو فى حدّ ذاته وفى غيره كالصرف ، فمن الجهل أن يقال أنه لايعرف شيئًا بدليل جهله باللغة العربية . وإذا تبحّر الإنسان فى لغة من اللغات كان عالما باللغة الأخرى بالقوّة ، يعنى أنه لو ترجم له مافى اللغة الأخرى وعبّر له عنه كان قابلًا لتلقّيه ومقابلته بلغته ، بل ربما كان يعرفه من قبل ويعرف زيادة عليه ، ويبحث فيه ويبطل منه

مالا يقبله العقل . كيف والعلم هو الملكة » . (ص ٦١)

هنا وصل رفاعة إلى نتيجة المعادلة حين قابل بين علوم العربية ومباحث اللغة الفرنسية ، وانتهى إلى أن العلم غير مقصور على لغة بذاتها ، وإنما هو الملكة أى الذكاء . وهذا انفتاح على المعرفة من حيث هى معرفة ، أى على كلّ إمكانيات التجديد الفكرى .

وكما ناقش الفتى المصرى نفسه وهو يتعلّم الفرنسية ، ناقش فى باريس فرنسيًّا تعلّم العربية ، هو المستشرق سلفستر دساسى . وحديث رفاعة عن هذا المستشرق خير دليل على تأثير المكان فى توليد الفكر الأصيل :

« ومع مايتراءى أن الأعجام لاتفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لا أصل له ومما يدلك على ذلك أنى اجتمعت فى باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير فى بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات المشرقية خصوصًا اللغة العربية والفارسية يسمى البارون سلوستر دى ساسى وهو من أكابر باريس وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرانسا وغيرها وقد انتشرت تراجمه فى باريس وشاع فضله فى اللغة العربية حتى أنه لخص شرحًا للمقامات الحريرية وسمّاه مختار الشروح وقد تعلم اللغة العربية على ماقيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه لابواسطة معلّم إلاّ فى مبدء أمره ولم يحضر مثل الشيخ خالد فضلاً عن حضور المغنى مع أنه يمكنه قراءة المغنى كيف وقد درّس البيضاوى عدة مرّات غير أنه

حين يقرأ ينطق كالعجم ولايمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب فإذا أراد شرح عبارة أغرب فى الألفاظ التى يتعذر عليه تصحيح نطقها ولنذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى لتعرف نفسه فى التأليف » . (ص ٦٢)

وبعد أن يستشهد رفاعة بثلاث صفحات من نثر سلفستر دساسى ، يقول :

« وبالجملة فمعرفته خصوصًا فى اللغة العربية مشهورة مع أنه لايمكنه أن يتكلم بالعربى إلّا بغاية الصعوبة . وقد رأيت له فى بعض كتب توقفات عظيمة وإيرادات جليلة ومناقضات قوية . وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة فى سائر اللغات . وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات . ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب فى النحو سماه « التحفة السنية فى علم العربية » فإنه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق له أبدًا » .

لم يكن بدّ لرفاعة من أن ينتقل إلى باريس حتى يرى من خلال أعمال سلفستر دساسى إمكانية التجديد فى دراسة النحو العربى . ويخطر له إذ ذاك أن يفيد تلاميذ المدارس المصرية من هذا التفكير الحديث فيؤلف لهم بدوره : «التحفة المكتبية فى تقريب العربية». وتطابق العنوانين فى بداية العبارة ونهايتها ، مع تطابق السجعة ، ينم عن تطابق الغرض .

وأطرف من ذلك أن شخصية « سلفستر دساسى » تغرى رفاعة بالبحث عن نظير لها فى التراث العربى . فهو لايكاد يفرغ من تقديم هذا المستشرق لقراء « تخليص الإبريز » حتى يقول :

« واتساع دائرة هذا الحبر فى معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ماقيل فى حق الفارابى فيلسوف الإسلام من أنه كان يحسن سبعين لسانا . ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير فنقول هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركى الفارابى الحكيم الفيلسوف ، فيلسوف الإسلام الماهر الباهر » إلخ (ص ٦٦) .

هكذا اهتم رفاعة بالفارابى لأنه تعرّف بسلفستر دساسى . ردّته المرآة إلى صورته . وبالمثل عاد إلى ابن خلدون لأنه طالع مونتسكيو ، فقد قرن بينهما فى هذه الفقرة من تقريره عن دراساته بباريس :

« وقرأت أيضا مع مسيو شواليه جزأيْن من كتاب يسمّى روح الشرائع مؤلفه شهير بين الفرنساوية ويقال له منتسكيو وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين . ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا منتسكيو الشرق أى منتسكيو الإسلام » (ص ١٦٠) .

ولم يستكشف رفاعة بانتقاله إلى باريس قيمًا من تراثه العربى

كادت تندثر فى بيئته فحسب ، فأحياها وأذكاها ، بل فطن إلى أعماق حضارية فى نفسه كان يجهل قيمتها الجوهرية فى تكوين شخصيته . ذلك أنه شهد مولد علم جديد ، لعلّه أصبح مقصوده وقاصده دون أن يدرى ، هو علم المصريات . فقد فكّ شامبليون أسرار الهيروغليفية ، وافتتح على ضفاف السين – أثناء إقامة رفاعة فى باريس (١٨٢٧) – قسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر . هنا ألحت على ابن طهطا المغترب ذكريات الأرض العريقة . ووجد نفسه أمام تلك الآثار ، وكأنه أمام مرآة يتحقق فيها من صورته . ولأوّل مرة منذ العصور الوسطى أدرك مصرىّ صلته الوثقى بهذه الحضارة ، وتقلّدها ، وانبرى لتصحيح مايسميه « بأوهام » المؤرخين الذين حجبوها عنه بروايات الأصنام والسحرة . يقول رفاعة :

« فانظر إلى بناء أهل مصر للبرابى وأهرام الجيزة فإنما بنوها لتكون آثارًا ينظر بعدهم إليها من رآها ، ولنذكر لك آراء الإفرنج فيها وما ظهر لهم بعد البحث التام حتى تقابله بما يذكره المؤرخون فيها من الأوهام » . (ص ٢١٠) .

وتدفعه وطنيته الناضجة إلى جرأة الاحتجاج على محمد علىّ عندما أنعم الباشا على حكومة فرنسا بالمسلة التى نصبت فى ميدان الكونكورد ، فيكتب :

« وأقول حيث إن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلّم على منوال بلاد أوربا فهى أولى وأحقّ بما تركه لها سلفها من أنواع

الزينة والصناعة . وسلبه عنها شيئًا بعد شيء يعدّ عند أرباب العقول من اختلاس حلى الغير للتحلى به ، فهو أشبه بالغصب . وإثبات هذا لايحتاج إلى برهان ، لما أنه واضح البيان » (ص ٢١١) .

وكلنا نعرف بعد ذلك ماقامت به مدرسة رفاعة الطهطاوى فى التاريخ ، وفى إحياء التراث ، وفى تأصيل العصرية التى سمّاها بالتمدن . إنه برنامج متكامل – من الفكر إلى الواقع ومن الواقع إلى الفكر – شرحة رفاعة فى كتابه الثمين : « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » (سنة ١٨٧٠) .

تلك خلاصة تفاعله الحضارى بالانتقال عبر المكان . إن رسالة الحداثة عند رفاعة هى مواجهة حضارة معاصرية ، مواجهة الندّ للندّ ، بشخصية سوية . وإن لم يتّسع المقام هنا لاستعراض أوجه الحداثة فى منجزات رفاعة الطهطاوى على امتداد ميادين الحياة الشاملة التى خاضها مفكرًا ومترجمًا وأديبا ، ميادين اللغة والشعر والصحافة والقصة والمسرح والمتحف ، ميادين الإصلاح الاجتماعى والقانونى والسياسى والعلمى ، وتربية البنات والبنين للمشاركة فى استئناف بناء الحضارة على أرض الوطن ، فلن يغيب عنّا أن منطلق الحداثة لديه خلال هذا كله كان انتقالا فى المكان .

والتحرك فى المكان من أهم عوامل النهضة دائما . فتاريخ القرن الخامس عشر فى أوربا – وهو عصر النهضة الذى طلع بمفهوم

الحداثة - يروى لنا كيف أدّى تدفّق العلماء اليونانيين بمخطوطاتهم على إيطاليا ، هربًا من الأتراك عقب سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، إلى وصل أهل الغرب بمصادر ثقافية جددّت تفكيرهم ، وكان الزمان قد عزلهم عنها وحجبها فى الشرق . لذا أصبحت جامعات إيطاليا وندواتها فى عصر النهضة قبلة الدارسين ، يرتحلون إليها من مختلف عواصم أوربا ثم يعودون إلى أوطانهم حاملين بذور الحداثة فى العلوم والفنون وأساليب العيش .

عند هذا الحدّ أتوقف لأطرح سؤالاً يلازمنى فى مراكز البحث العلمى والجامعى التى طالت رحلتى إليها ولاسيما بين فرنسا وسويسرا :

أين نحن من الحداثة ؟

إن مصر والعالم العربى بوجه عام فى عزلة . أجل ، لقد ألغيت المسافات . تكفلت بذلك الطيارات والأقمار الصناعية والإذاعات والصحف ومكاتب السياحة والفنادق . ولكن على أى المستويات ؟ إننا فى مصر وفى العالم العربى - على مستوى المعرفة - نكاد نجهل الفكر الحديث الذى يمسّ وجودنا المعاصر ، بل الذى أبدعه أبناء مصر وأبناء العالم العربى فى الخارج ، خلال تجارب استكشاف متعمقة الرؤية ، هى امتداد بلاشك لتجربة رفاعة الطهطاوى . للأوضاع السياسية يدٌ فى تلك العزلة ، وللأوضاع الاقتصادية يد كذلك ، غير أننى ألمس حاجزًا أوّليًّا هو حاجز اللغة . هل ترجمنا

إلى العربية ماقدّمه مبعوثونا إلى معاهد الغرب والشرق من رسائل جامعية ، فيها حصيلة التفاعل بين تراثنا وبين أحدث نظريات العلوم ؟ بل إن من بين متخصصينا من أصبحوا أعلامًا فى مجالات تخصصهم ، وحججًا يرجع إليها الباحثون فى مختلف أنحاء العالم . وحسبى أن أذكر - على سبيل المثال لا الحصر - أسماء مصطفى صفوان المصرى ، تلميذ عالم التحليل النفسى الفرنسى « جاك لاكان » وخليفته ، ومحمد أركون الجزائرى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة باريس وإدوارد سعيد الفلسطينى الذى هزّ أوساط المستشرقين بكتابه عن الاستشراق ، وجورج شحادة اللبنانى الذى جدّد فى المسرح بأعمال له دخلت كتب تاريخ الأدب الفرنسى المعاصر . هؤلاء بعض صنّاع الحداثة عندنا ، رغم تعبيرهم عنها بالفرنسية أو الإنجليزية ، عدا الناطقين بلساننا ممن استعاروا الأسبانية أو الألمانية أو الروسية ، وغيرها من لغات المخابر العلمية ولغات الفنون الجميلة .

هذه بضاعتنا تردّ إلينا وتثريناً يوم نترجمها إلى العربية ، فى رحلة الإياب ، مادام منطلق الحداثة نقلة فى المكان .

١٠
الواقع أنجب الرواية*

رواية « أديب » تتجاوز فنيّة القصة لتطرح قضية الأدب عامة ، كما يتجاوز مؤلفها صفة الروائى ليحمل بحق لقب « عميد الأدب العربى » .

فمنذ سطورها الأولى يتساءل طه حسين : من هو الأديب ؟ ماهى خصائصه ؟ كيف يعبّر عن نفسه وكيف يتفاعل مع المجتمع؟ وتلك دعوة منهجية إلى إعادة النظر فى مكان الأدب من العصر الحديث ، ووثيقة بتحول الذوق عن عوائد الإنشاء ، واختناقات التكلّف ، أى عن آفة المحسنات اللفظية التى أدمنها المتأدبون حتى الجيل السابق فعزلتهم فى سطحية الزخارف عن معمعة الحياة . « أديب » خروج بأثبت الخُطا من تفاويف الدخان الأخيرة ومحاولة هادفة للتنفس العميق . إن عنونة القصة بكلمة « أديب » إيجاز لسيرة البطل ومغامرته العقلية من ناحية ، وتعريف من ناحية

* ألقى هذا البحث بعنوان « ما قبل أديب » فى الندوة العلمية التى نظمتها جامعة المنيا بمناسبة « مهرجان طه حسين العاشر » من ١ إلى ٤ أبريل ١٩٨٤ .

أخرى بوظيفة الأدب وقد تطور ، وبشكل - تجريبى هنا - لعلّه أعرض الأشكال التى يتخذها الأدب فى طوره الجديد لأداء وظيفته الجديدة .

هذا ماتعلنه فاتحة الرواية . ولاننسى - إذا نظرنا إلى الشكل - أنها أوّل تجربة روائية يقدم عليها طه حسين ، وقد كان حتى ذلك الحين ناقدًا وباحثًا وأستاذًا جامعيا لم يفرغ لفن السرد الروائى إلّا فى الجزء الأوّل من سيرته الذاتية . ولاننسى - إذا نظرنا إلى الموضوع - أن نشر « أديب » قد سبق بعام واحد تأليف « مستقبل الثقافة فى مصر » ، حيث يتبلور وعى المفكر ، إزاء إبرام المعاهدة المصرية الإنجليزية عام ١٩٣٦ واتفاق « مونتريه » الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية ، فيخططّ لإصلاح التعليم على أساس « أن مصر تبدأ عهدًا جديدًا من حياتها ، وإن كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها فيه أن تنهض بواجبات خطيرة وتبعات ثقال » .

أجل ، إن موضوع « أديب » هو أخطر مواجهة وأصدقها بين مثقف مصرى فى صدر القرن العشرين وبين الحضارة الأوربية . مواجهة عارية ، مُعْتَورة . ولم يكن بدّ لتشخيص تلك المواجهة والالمام بأبعادها ومستوياتها من استخدام الشكل الروائى . فهو الذى يتسع للكلام عن المجتمع والأفراد ، عن القيم والعلاقات ، يولد المواقف ، ويعرض بالتفصيل مشكلة تتعقد خلال وقائع نتتبعها حتى يئول البطل والمعنى إلى مآل . والمجتمع يمتدّ فى « أديب » من

قرى الصعيد ومدنه ، إلى أحياء القاهرة وجامعتيها ، إلى أوضاع الأسرة وحقوق المرأة ، إلى معيشة الطلبة فى فرنسا حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

ومن حسنات الشكل الروائى الحديث أنه يفسح صدره لأغراض الأدب القديم ويستوعبها . ففى أديب وقوف على الأطلال ، وصفحات من أدب الرسائل ، وأخرى من أدب الرحلات . على أن الرواية تؤصّل هذه الأغراض فى واقع العصر .

فليس الوقوف على الأطلال - فى الفصل السابع - فريضة بلاغية يؤديها شاعر لذكرى حبيب ومنزل منفرد ، وإنما هى وقوف على أطلال جماعية . أطلال معمل السكر أولا ، فالبطل يقول :

« أطيل الوقوف وأطيل النظر عن يمين وشمال ، وأطيل النظر من أمام ومن وراء حتى يخيل إلىّ وإلى من كان يرانى من الناس أنى أبله قد فقدت الصواب . ثم لا أملك نفسى ، وإذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة ، وإذا أنا أسمع ، وياشر ماأسمع ! إنى قد قد بلغت المدينة وإن القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وإن معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ، ماذا أسمع ! معمل السكر قد هدم ، وماذا بقى إذن فى المدينة ؟ أو ماذا جئت أرى فى المدينة ! ماتت القناة ! وهدم معمل السكر ، وغيرت المعالم ! وانتقل أكثر من كنا نعرف فى المدينة من الناس .

ياللحزن والأسى ! ياللوعة والحسرة ! يا لليأس والقنوط ! أيبلغ

العنف بالزمان أن يمحو هذا المقدار الضخم من حياة الناس فى أعوام قصار . لقد جدّ جيل وجيل فى إقامة معمل السكر وإقامة ماحوله من الدور ، بل من القرى . لقد عاش جيل وجيل بهذا المعمل ولهذا المعمل . لقد عاش جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة . فكل هذا الجهد ، وكل هذا العناء . وكل هذه الحياة . وكل هذه الذكرى ، وكل ماكان على شاطئ القناة وحول معمل السكر من جدّ وهزل ومن لذّة وألم ، ومن حبّ وبغض ، ومن أمل ويأس ، ومن مكر ونصح ، ومن خداع وإخلاص . كل هذا يذهب فى أعوام قصار لاتكاد تبلغ عدد أصابع اليد لواحدة . كأن شيئًا من هذا لم يكن »[1] .

ثم وقوف على أطلال الكتّاب يعيدنا إلى مجتمع شعبى بأغلبيته الفقيرة وقلته المترفة وسلطاته وثقافته :

« نعم هدم الكتّاب هدمًا ، وما أعرف أن شيئًا مما رأيت أو شيئًا مما لم أر ، ترك فى نفسى من الآثار المؤلمة والندوب التى ستبقى مابقيت مثل ماتركه فيها منظر الكتّاب المتهدم . فما تزال معالم الكتّاب باقية ، على نحو ماكانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء . فالكتاب الآن طلل تمحوه الأيام شيئًا فشيئًا وتبقى من آثاره إلى الآن بقية مؤذية حقًا . لقد ماتت القناة عن شماله وسويت

---

(١) أديب ، الطبعة السابعة ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٧١ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

الطريق عن يمينه . ونزع منها ذلك الخطّ الحديدى الضئيل الذى كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب إلى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والحصى ، إذا كان الفيضان ، لردم هذا المستنقع العظيم الذى كان يؤذى المدينة فى كل عام .

نزع هذا الخطّ وسويت هذه الطريق وقلّت الحركة عن يمين الكتّاب وشماله . وعملت معاول الهدم فى الكتّاب نفسه وفيما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور ، فالمنظرة التى كانت أمام الكتّاب والتى كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتّاب ، وأصبحت طللاً مثله . والبيت الذى كان يقوم وراء الكتّاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتّاب وانتشرت هذه الأطلال فى هذا الفضاء انتثارًا محزنًا موئسًا ، ولكن مكان الكتّاب بينها يثير فى النفوس أسًى غريبًا ولوعة محرقة حقًا . إن أرضه مازالت مرصوفة بهذه الأحجار التى كان يغسلها التلاميذ مساء الأربعاء من كل أسبوع بعد أن يقرءوا الحزب ، وإن عتبته مازالت قائمة ، ولم تمح جدرانه كلها محوًا ، وإنما بقى منها شىء يرتفع هنا وينخفض هناك ، وتستطيع أن تتبين مواضع المقاعد الخشبية التى كانت مسندة إلى هذه الجدران والتى كان يجلس سيدنا على أحدها عن يمينك إذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن شمالك إذا دخلت ، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط

بينها الفقراء وأبناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر ، ولاتكاد تجدّد إلّا حين تستحيل إلى قشّ لايكاد يتصل . وحين يجود بعض الأغنياء بما يقوم مقامها »[1]

وأما الرسائل فى « أديب » فلا تستأنف تقاليد الدواوين ، وصنعة الكتاب من عبد الحميد إلى القاضى الفاضل . ولعلها تنتمى إلى الإخوانيات ، ولكنها تعدو الشذرة إلى التلاحم العضوى ، ولاتتجه إلى الخارج بقدر ماتصل الإنسان داخليا بإنسانيته . إن الرسائل فى « أديب » وثائق تحليل نفسى للأشخاص فى أحرج مواقفهم ، كالرسالة التى تحتل الفصل الحادى عشر ، وهى التى كتبها « أديب » إلى زوجته حميدة بعد أن طلّقها ، ولن تقرأها حميدة لأنها أمّية . وفيها يقول :

« وأنا أعلم أنك لن تصدقينى ولن تؤمنى لى ولن تقبلى شيئًا مما أقول – ولكنى أقسم مع ذلك ماطلقتك عن قلى ولا فارقتك عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك . وإنى أقسم ماأحببتك قط كما

---

(١) ص ٦٠ – ٦١ . ويتطرق البطل فى الفصل الخامس (ص ٣٨) إلى نقد أدبى مباشر يستشهد فيه بامرئ القيس وبغرض الوقوف على الأطلال ، ويستخلص : « إنما هى عندك ألفاظ تقع فى أذنيك كما يقع غيرها من ألفاظ ، تفهم الظاهر من معانيها ، فإن أعجزك الفهم سألت كتابًا من كتب اللغة فلا ينبئك إلا بظاهر معانيها ، لا تكاد هذه الألفاظ تتجاوز أذنيك إلى عقلك فضلًا عن أن تتجاوزها إلى قلبك وإلى ضميرك فتثير فيها عاطفة أو هوًى أو ميلًا ، وتدعوك إلى أن تقدر الحياة كما ينبغى أن تقدر الحياة » .

أحبك الآن ، وما آثرتك قط كما أوثرك الآن ، وما عرفت سلطانك علىّ ويدك عندى كما عرفتها الآن . بلى أقسم إنى لأحسّ كأنما أشطر قلبى شطرين ، فأحفظ شطره فى صدرى وأرسل بشطره الآخر إلى مكان بعيد فى أعماق الريف حيث لايتاح لى أن ألقاه . بل أقسم ماطلقتك إلاّ حبًّا فيك وإيثارًا لك وضنًّا بك على ما أكره . ولأكن صادقًا كل الصدق ، فإن الضعف والعجز والخور ، كل هذه العيوب هى التى تدفعنى إلى أن أفارقك أشدّ ما أكون لك حبًّا وأعظم ماأكون عليك حرصًا . لم أستطع أن أوثرك على أوربا فأبقى معك ، ولم أستطع أن أطمئن إلى أنى سأكون وفيًّا إذا عبرت البحر فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج . ولست أريد هذا الوفاء الخلقى الذى يتصل بالنفس ، فأنا واثق بأنى قادر عليه ، بل أنا واثق بأنه سيعذبنى وسيكلفنى آلامًا وأسقامًا . إنما أريد الوفاء الكامل الشامل الذى يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله والجسم أيضًا . أريد هذا الوفاء الذى لايبيح شركة ولا توهما للشركة ولا تفكيرًا فيها »[1] .

وأما الرحلة ، فنعلم أنها من أعرق فروع الأدب الجغرافى العربى ، وماأثراه من ابن حوقل إلى ابن بطوطة وإلى أسفار السندباد فى ألف ليلة . يقول « أديب » : « سأعبر البحر الملح العريض إلى بلاد نائية لاتحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات ،

---

(١) ص ١١٢ - ١١٣ .

وإنما تحسب بالأيام »[1] ولكن تصوّر الرحلة فى هذه الرواية لايقف عند السياحة ، لايرمى إلى استكشاف البر والبحر ، بل يمعن إلى ماوراء المغامرة والمبادرة ليمثل وطأة قدر محتوم . الرحلة هنا قوة جارفة تدفع البطل إلى سلسلة من التضحيات آخرها الجنون المأساوى . والبطل منذ البداية لايرى مفرًّا من الرحلة سوى الموت :

« ياسيدى إنك تضيع وقتك ووقتى فلن تقنعنى بالعدول عن الرحيل »[2] « وأنا أعلم حق العلم أنى .. إن صرفت عن هذه الرحلة بعد أن مدّت لى أسبابها وهيئت لى وسائلها ميت من غير شك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة . سأقتل نفسى إن ملكنى الغضب ، وسيقتلنى الحزن واليأس إن أتيح لى الصبر والاحتمال »[3] .

موت ماثل فى الفجيعة المتربصة . لذا يطلّ شبح الفراق القاصم ، ويخيم الحداد على مشهد وداع البطل لأبويه وقريته قبيل سفره . « كانت غريبة هذه الدموع التى كانت تنحدر من عينى أمّى ، لايعرف الناس أهى دموع الغيظ والحنق أم هى دموع الوجد والحنين . وكانت غريبة هذه الألفاظ التى كانت تنطلق متصلة ..

---

(١) ص ٤٤ .

(٢) ص ٨٣ .

(٣) ص ٧٩ - ٨٠ .

على لسان أبى ، لايعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه وجحوده وقسوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزنا لأن ابنه قد سافر إلى بلد مجهول وهو لايعرف متى يعود ولاكيف يعود »[1] .

وحين تحمل السفينة البطل على أمواج البحر ، يشعر أنه انقاد نهائيا لحركتها ، لايستطيع أن يقاومها ليعود من حيث أتى ، فهى تجسيم عنيد لإرادة القضاء الخفى : « إنما حياتنا كهذه السفينة تمضى بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد . مهما نلحّ ومهما نَصِح ، ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردّها إلى وراء ، ولن نتّقى الانتهاء إلى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء . فلأمضِ إذن إلى حيث تريد السفينة أن تنتهى بى »[2]

وتسيطر حتمية الرحلة على موضوع هذا الكتاب فترتبط فنيًّا بين عناصره ، وتضفى عليه وحدته . وإذا كانت الرحلة فى « أديب » قوس الدائرة ومركزها ، لولب المقال ومغزاه ، فإنها - كما لاحظنا فى الوقوف على الأطلال - ليست رحلة فردية ، بل رحلة مصير مجتمع بأسره كُتب عليه الاتصال بالغرب . إنها غاية بطل القصة ، وغاية مؤلفها ، وهما إذ ذاك موظف وطالب . وتلهفا على تحقيقها يستبدل كلاهما بكلمة « الرحلة » لفظ « الهجرة » الذى ينطوى فى

---

(١) ص ٥٧ .

(٢) ص ١٣١ .

الفقرة التالية على شحنة وجودية عارمة :

« كان يريد أن ينفق حياته موظفًا يثقف نفسه ثقافة جديدة كل يوم ويلتمس لذته فى القراءة والكتابة والحديث . فأصبح أشد الناس بغضا لديوانه ، وزهدًا فى عمله ، ورغبة فى أن يهجر مصر ويعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى ، وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخًا من شيوخ الأزهر مجددًا فى التفكير والحياة على نحو ماكان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده ، أستعين على ذلك بما أسمع فى الجامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد فى الصحف ، وما أتلقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشدّ انصرافًا عن الأزهر ، ونفورًا من دروسه وشيوخه ، وحرصًا على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه ، ولم يكن لصاحبى ولا لى إذا التقينا حديث إلّا هذه الهجرة وأسبابها وإلّا هذه الأحلام العريضة البعيدة التى لاحدّ لها ، والتى تستأثر بنفوس الشباب حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة » [1] .

ونثوب فى مثل هذه العبارات إلى مزيج المادة الأدبية عند طه حسين . فمع استحواذ الرغبة فى الانطلاق على الشابين إلى حدّ

---

(١) ص ٤١ - ٤٢ .

الهوس ، نفتقد فى هذه الفقرة الإعلامية خيال الروائى ، ونحسب أننا نقرأ جزءا من تقرير عن الحياة الفكرية فى المجتمع المصرى أثناء السنوات الأولى من القرن العشرين ، أيام الشيخ محمد عبده - الذى ينتمى إلى التاريخ لا إلى القصص . أين الخط الفاصل إذن بين الواقع والرواية ؟

لعلّ فن الروائى هنا هو التدرج فى السياق من المعقول إلى اللامعقول ، هو التمادى بالواقع إلى أقصى مشارف الرحلة البشرية . فقد تتبع شخصية ملهوفة تجرى إلى غايتها دون أن تلوى على شىء ، ورافقها حتى آخر الطريق ، هناك حيث يغيب الإنسان عن صوابه ، ويهبط إلى عالم لايستطيع امرؤ أن يلحق فيه بصاحبه . ومن أروع القصص فى الأدب العالمى مايسبر نفس الانسان ليطوف فى أعماقها ، منذ باتت الرحلة غرضًا دفينًا يضمره اللاوعى . فلقد فطر الناس على البحث عن الفردوس - فردوس منشود أو فردوس مفقود . وفى تطور « أديب » تتداخل الشطآن المتباعدة وتنفتح قصة اتصال الشرق والغرب على آفاق تتجاوز الشرق والغرب ، لتحتضن لانهائية الانسانية فى طموحها . لذا يتحول الواقع بقلم الروائى إلى رمز ، كما يستبطن الرمز أعراض الواقع ، حتى نبلغ أبعد مايتلألأ فى أشعة المعنى . أليست شخصية حميدة - التى طلقها « أديب » مرغما - هى شخصية مصر الريفية الزراعية الوديعة المطيعة ، على حين ترمز شخصية « ألين » الباريسة إلى

حضارة الغرب ؟ وتَمزُّق « أديب » ، أليس تهويلا للتناقض الحضارى الظاهر فى عصره ؟ .

ومهما يكن من أمر التحليل والتأويل ، فالأحداث مؤرخة ، وبطلها أو ضحيتها رجل معروف ، من أهل الصعيد ، واسمه جلال شعيب رحمه الله . على أن خلط الخيال القصصى بالسيرة الذاتية وبالكثير من حذافير الواقع ليس سمة مميزة لتصنيع الرواية عند طه حسين وحده ، بل تلك ظاهرة متواترة فى تاريخنا منذ قرن ونصف قرن تدلنا على حقيقة التفاعل بين أحوال المجتمع المصرى وأشكال التعبير الأدبى .

ولنقتصر على أدب الرحلة . فنحن إذا توخينا أن نرصد موضوع « الرحلة » فى كتب القرن الماضى ، تعذّر علينا أن نفرق بين ماهو تاريخ خالص وبين ماهو فكر وفن . بل يتضح لنا ارتباط الرحلة الواقعية ارتباطا مباشرًا وثيقا مطّردًا بنشأة فن الرواية ونموّه لدينا . وما السرّ فى أن يتحول الرحالة إذ ذاك إلى روائى ، والروائى إلى رحالة ؟ قبل « أديب » نشر المويلحى « الرحلة الثانية » ، وهى رحلة إلى باريس ختم بها « حديث عيسى بن هشام » . وقبل المويلحى نشر على مبارك رواية « علم الدين » ، وهى قصة رحلة إلى فرنسا أيضًا ، صاغها فى قالب مسامرات بغية أن يرفه بطلاوتها عن تلاميذ ا لمدارس الجديدة ماكان يتجشمه الجيل السابق فى قراءة النّص الجدى لرحلة رفاعة الطهطاوى « تخليص الإبريز فى تلخيص

باريز » . تلك سلالة قصصية واحدة ، نودّ أن نسجلها صعودًا من أب لجدّ .

ولنبدأ بجيل المويلحى الذى كان يهيم بأدب المقامة ، على حين تؤزّه فى حياته اليومية تناقضات مجتمع أخذت نظمه وقيمه فى التغير . جَرْس المقامات فى الأسماع ، وتساؤلات مصيرية تعتمل فى الصدور وفى العقول . جَمَع المويلحى بين هذه وتلك . أدخل قضايا العصر إلى قلب المقامة . ولم تكن المقامة كما نظنها اليوم فكاهة عابثة ، وهزلاً بارعا تعفيه من الابتذال قوافى الشعر ، بل كان للمقامة شرفها وجدّها ، فالشيخ محمد عبده نفسه عكف على شرح مقامات الهمذانى ، ونشرها ، وحث على دراستها . وتلك شهادة بجدارة هذا الاطار التراثى وكفاءته لاحتواء مضمون خطير .

وتعلمون كيف استعار المويلحى من الهمذانى - بلا تصرف - شخصية راويته عيسى بن هشام ، ثم أضاف إليها شخصية « الباشا » الذى ينتمى إلى عهد محمد على أى إلى الماضى ، والذى لاينقطع سوء تفاهمه مع المجتمع الجديد ، مما يطلق لسان « الصديق » - وهو الشخصية الثالثة - بالتعليق المنطقى على كل مشكلة لإبرازها . ليس لهذه الشخصيات أىّ بعد إنسانى ، وإنما وظيفتها جدليّة . توزيع الأدوار بسيط ، غايته توضيح المواقف المتأزمة ومناقشة ماطرأ على أوضاع المجتمع من تبدل : فلدينا وجهة نظر « الباشا » التقليدى الساذج ، وعيسى المحايد ، و« الصديق »

المفَنِّد الناقد . وبعد أن يقوم الثلاثة - كما نقول اليوم - بتحقيق صحفى يغطى كافة جوانب القضية من الشرطة إلى النيابة إلى المحاكم إلى الطب والأطباء والأعيان والتجار والمطعم والمرقص والعرس والملهى والمتحف ، نقرأ خلاصة رأيهم فى الفصل الأخير وعنوانه « المدنية الغربية » :

« طلع الصديق علينا مع الشمس . للموعد الذى كان بيننا من أمس . فسألنا كيف أصبحنا ، وهل نعمنا واسترحنا . فأخبرته بما كان ، من اتصال السهر إلى الآن . وما كانت تجرى عليه المسامرة ، وتدور به المذاكرة . وجملتها أن الباشا لايزال يدهش مما يراه فى رحلته . ولم يكن له أثر فى أيام دولته . ويستخبرنى عن سرعة هذا الانتقال من حال إلى حال . وما الأسباب والعلل فى انتشار هذا الفساد والخلل . فذكرت له بعض ماحضرنى منها ، وماعلمته عنها . وإنك لخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح . وتخبرنا بما عندك من السبب الصحيح .

(الصديق) - السبب الصحيح فى ذلك هو دخول المدنية الغربية بغتة فى البلاد الشرقية وتقليدُ الشرقيين للغربيين فى جميع أحوال معايشهم كالعميان لايستنيرون ببحث ولا يأخذون بقياس ولايتبصرون بحسن نظر ولا يلتفتون إلى ماهنالك من تنافر الطباع وتباين الأذواق واختلاف الأقاليم والعادات ، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف ، والحسنَ من القبيح .

(الباشا) - ألا ليت شعرى كيف يمكننى الوصول إلى البحث والنظر فى أصول المدنية الغربية ظاهرها وباطنها وأن أقف على خافيها وباديها فى أرضها وديارها . ولكن بعدت الشقة وعزّ المطلب .

(عيسى بن هشام) - لاتستبعد أيها الأمير حصول الغرض ونيل المطلب فى يومٍ من الأيام فإنه لايزال يدور فى خاطرى أن أرحل معك رحلة إلى البلاد الغربية نجتنى منها ثمرات العلم والبحث » .

ويحقق المويلحى أمنية أبطاله عندما يزيرهم معه المعرض الدولى الذى أقيم بباريس عام ١٩٠٠ احتفالا بحلول القرن العشرين . « قال عيسى بن هشام .. فقد يسّر الله لنا الرحلة إلى الديار الأوربية ، لنشهد مظاهر المدنية الغربية . وبلغنا من سفرنا المدى فألقينا فى باريس العصا » ولاينتهى الفصل الأوّل من هذه « الرحلة الثانية » إلاّ وقد التقى أصحابنا بفرنسى فيلسوف مستشرق ، يفهم لغتهم العربية وحضارتهم . فكان خير دليل لهم فى جولتهم خلال أجنحة المعرض العالمى ، يشرح لهم مايرون من ثمرات الصناعة والاقتصاد ، ولايكتمهم ماينطوى عليه ذلك التطوّر من استغلال لطبقات من العمال ومن الأمم . وفى رفقة هذا المستشرق يتعرفون بعد ذلك بمختلف أوساط المجتمع الفرنسى . ومعه يقضون سهرات الشتاء حول المدفأة يتدارسون ويتناقشون . ويضع المؤلف على لسان هذا الرجل ، ويسميه « الحكيم » مغزى

الكتاب كله ؛ إذ يختمه بهذه السطور :

« وأقمنا عاكفين على الحديث والسمر . بما وعيناه عن هذه المدنية من كل خبر وأثر . وكان « الصديق » بيننا كعهده يرسل علينا القول إرسالا . ويذهب فى حدّة انتقاده يميناً وشمالا .

ويذكر من أسواء المدنية مايهول السمع . ويذرف الدمع . حتى استفزّ « الحكيم » للردّ عليه . وتهوين ماذهب إليه :

(الحكيم) للصديق – لقد أسرفت أيها « الصديق » فى القول وغاليت فى الوصف وإن كان فى بعضه الجانب الصحيح والحق الصريح ، ولكن لهذه المدنية الكثير من المحاسن كما أن لها الكثير من المساوئ ، فلا تغمطوها حقّها ولاتبخسوها قدرها ، وخذوا منها معشر الشرقيين ماينفعكم ويلتئم بكم ، واتركوا مايضرّكم وينافى طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها ، وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوّة تصُدّ عنكم أذى الطامعين ، وشَرَهَ المستعمرين ، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق ، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم فأنتم بها فى غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ، وتمتعوا فى رخاء بلادكم ، وسعة أرزاقكم ، واحمدوا الله على ماآتاكم » .

على ازدواجية هذه المناظرة بنى المويلحى « حديث عيسى بن هشام » . فليس لدينا بناء روائى ، وإن تعدّدت الفصول . فصول متفرقة ، مخلخلة العقدة ، يعوزها إحكام النظم فى سلك واحد.

فالمويلحى يستعرض جوانب متنوعة من المجتمع ، يسجل لقطات عامة ، حول شخصيات نمطية تتجاور ولا تتفاعل . لا رابطة عضوية بين الحوادث أو بين الشخصيات ، وإنما ملاحظات متناثرة ، وكأنها رسوم كاريكاتورية متتالية ، تعكس فى سخريتها جفاف الحجج المنطقية . لذا نستطيع أن نقرأ كل فصل على حدة كما نقرأ مقامة قديمة . بل نستطيع أن نغيّر ترتيب الفصول إذا أردنا . ونحن نظلم « حديث عيسى بن هشام » عندما نحاسبه محاسبة الرواية . فهو مجموعة من المقالات نشرها محمد المويلحى فى جريدة « مصباح الشرق » التى أنشأها والده ، واحتفظت كل مقالة منها باستقلالها الدورى . لعلّ بعض الفصول يمتاز - كالقصة القصيرة - بعقدة خاصة ووحدة فنية محلية ، ولكنّ ذلك قليل . وقد أصاب الدكتور شكرى عياد إذ لم يعتبر هذا الكتاب رواية ، وإنما أحاله إلى مواد بحثه القيم عن تأصيل القصة القصيرة فى مصر .[1]

كتاب المويلحى حديث قبل كل شىء ، كما تنص على ذلك أولى كلمات العنوان . حديث يتشعب بالضرورة إلى حوار لمعالجة مضمون الرحلة وهو المقابلة والمناظرة . وهكذا تنبسط القصة بين أيدينا نسيجًا من خيوط « المذاكرة والمسامرة » ، حسب تعبير

---

(١) « القصة القصيرة فى مصر . دراسة فى تأصيل فن أدبى » . محاضرات ألقاها د . شكرى محمد عياد بمعهد البحوث والدراسات العربية . جامعة الدول العربية . القاهرة ١٩٦٨ .

المؤلف . ولفظة « المسامرة » هنا ذات شأن ، لأنها تسمية المنهج السردى الذى كان رائجا فى تلك الحقبة . فالمسامرة هى الوحدة التى شكل منها على مبارك - عندما كان المويلحى فى الخامسة والعشرين من عمره - قصة « علم الدين » . ومَنْ يطيق اليوم قراءة « علم الدين » ؟ لقد كتبها الوزير الأديب - أو استكتبها - فى ألف وخمسمائة صفحة ، وزّعها على أربعة أجزاء ، وقسّمها إلى مائة وخمس وعشرين « مسامرة » . وإذا كانت « مسامرات » على مبارك استطرادات ثقافية مطوّلة قصد بها المربى أن يقدّم للتلاميذ فى أسلوب مشوّق دائرة معارف يلمون فيها بالجغرافيا والتاريخ وعلوم الأحياء وبأطراف من التراث الاسلامى ومن حضارة الغرب الحديثة ، فإن مقدمته تؤكد لنا - حيث نلمس اقتران موضوع الرحلة بشكل المسامرة - أن حديث « عيسى بن هشام » فى جوهره استئناف لعلم الدين . وتلك حقيقة لن يحجبها عنّا تمسّح المويلحى بالمقامة . يقول على مبارك :

« رأيت النفوس كثيرًا ماتميل إلى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة ، فقد تعرض عنها فى كثير من الأحيان لاسيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفى أوقات عدم خلوّ البال ، فحدانى هذا أيام نظارتى لديوان المعارف إلى عمل كتاب أضمنه كثيرًا من الفوائد فى أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها ، ويجد فيها رغبته فيما كان من هذا

القبيل ، فيجد فى طريقه تلك الفوائد يناها عفوًا بلا عناء حرصًا على تعميم الفائدة وبث المنفعة .. فجاء كتابًا جامعًا اشتمل على غرر الفوائد المتفرقة فى كثير من الكتب العربية والإفرنجية فى العلوم الشرعية ، والفنون الصناعية وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر .. مفرغًا فى قالب سياحة شيخ عالم مصرى وسم بعلم الدين مع رجل إنكليزى كلاهما هيان بن بيان نظمهما سمط الحديث لتأتى المقارنة بين الأحوال المشرقية والأوربية »[1]

والرواية فى « علم الدين » واهية كنسيج العنكبوت : شيخ أزهرى فقير ، يستعين به فى القاهرة مستشرق إنجليزى يعدّ للطبع معجم ابن منظور « لسان العرب » ، ثم يدعوه لمواصلة تحقيق النصّ معه بانجلترا ، ويصطحب الشيخ فى هذه الرحلة ابنه « برهان الدين » . والقارئ يفقد هذا الخيط القصصى مرارًا فى غمرة المعلومات العامة التى تغرق المسامرات إغراقا . والحق أن المؤلف يتعمد إزجاء تلك المواد التعليمية ، متمثلًا بما راج فى عصره من كتب فرنسية أنشئت لتثقيف الشباب ، ومنها مااتخذ صورة الرحلة حول فرنسا[2] وثمة مصدر آخر لعلم الدين هو السيرة

---

(١) على مبارك ، « علم الدين » ، الإسكندرية ، مطبعة المحروسة ، ١٨٨٢ ، جـ ١ ، المقدمة ص ٦ - ٨ .

(٢) راجع الأمثلة ص ٩٨ من كتابنا Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe Siècle. Paris, Didier, 1970.

الذاتية : فالبطل كعلى مبارك ينزح إلى القاهرة أولا من قرية يعمل فيها أبوه إمامًا للمسجد ، ولعلى مبارك كالبطل ولد أرسله للدراسة فى فرنسا سنة ١٨٧٩ اسمه يوسف ، بل ونستطيع أن نتعرف فى لفظة « علم » اسمًا رمزيًّا مركبًا من حرفى « على » الأوّلين مضافًا إليها الحرف الأول من « مبارك » . وهذا يعيدنا إلى الصلة الوثقى بين واقع الرحلة على أرض السيرة الذاتية وبين ظهور الشكل الروائى فى أدبنا الحديث .

على أن أهمّ مصدر لعلم الدين ليس إلاّ « تخليص الإبريز » . صحيح أن على مبارك قد استوحى - دون أن يبوح بذلك - صداقة الشيخ إبراهيم الدسوقى « باشمصحح المطبعة الأميرية » والمستشرق الإنجليزى « لين » صاحب « مد القاموس » فقد روى فى « الخطط »[1] ، وعلى لسان الشيخ إبراهيم نفسه قصة لقائهما وتعاونهما العلمى . غير أن الصداقة بين مستشرق آخر شهير وشيخ أزهرى آخر شهير - هما سلفستر دى ساسى ورفاعة الطهطاوى - كانت نموذجًا بارزًا فى « تخليص الإبريز » يثير إعجاب على مبارك ، بل وتحسّره لأنه لم يسعد بمثل تلك العلاقة فى فرنسا أثناء بعثته - بعد بعثة رفاعة بعشرين سنة - إذ احتبسته المدارس العسكرية بضبطها وربطها فحالت دون اتصاله بمن كان يتوق إلى مجالستهم من المستشرقين ، ولاسيما سيديو Sédillot فهو

(١) جـ ١١ ص ٩ - ١٣ .

يرجع إلى مؤلفاته عن تاريخ العلوم عند العرب ، ويرمز إليه فى زيارة علم الدين الخيالية للجمعية الأسيوية بباريس .

ويضيق المقام عن إحصاء خمائر الرواية التى استمدّها على مبارك - فى تأليف قصته - من « تخليص الإبريز » . حسبنا اقتداؤه برفاعة فى سرد جانب من مغامرات المصريين الذين هاجروا مع جلاء الحملة الفرنسية وحطّوا فى مرسيليا ، وتلك مادة قصصية ممتازة لم يفلح الأديب الوزير فى استغلالها .

وحسبنا اقتداؤه برفاعة فى استخدام التعبير بالرسائل كالرسالة التى يكتبها علم الدين إلى زوجته أو الصفحات التى يكتبها برهان الدين إلى أمه . ولم تكن الرسائل فى « تخليص الإبريز » شكلاً أدبيًّا ، وإنما كانت خطابات واقعية ، أفرد لها رفاعة فصلاً بعنوان : « فى بعض مراسلات بينى وبين بعض كبار علماء الفرنساوية » ، ولعلّ أطرفها فى نظر الباحث عن العناصر القصصية رسالة « جول سلادان » وسطور رفاعة التالية فى تقديمها :

« ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بينى وبينه محبّة أكيدة ، وصورة اجتماعى بهذا الشخص أنى دخلت مكتبة لقراءة الكازيطات أى الوقايع اليومية فتعرفت بهذا الشخص الذى هو محاسبجى فى وزارة الخزينة المالية وأخوه مأمور دبرطمانة يعنى إقليما من أقاليم الفرنساوية ، وهو من بدنة عظيمة تسمى السلادانية نسبة إلى سلادان يعنى صلاح الدين يتوهمون أنهم ينتسبون إلى السلطان

صلاح الدين الأيوبى قائلين إنه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الإفرنج تسرّى بفرنساوية ، فحملت منه ثم انطلقت إلى بلادها فبقى الاسم فى أولادها وذراريها إلى الآن .

ثم إنى كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه ولازلت معهم على الصحبة الأكيدة مدة إقامتى فى باريس فلما سافرت كان عند أخيه المأمور فى إقليم الترن فى مدينة يقال لها ألبى ، فأرسل إلى هذا المكتوب »[1] .

لقد تأثر على مبارك دون أدنى شك برفاعة الطهطاوى ، وحاكاه ، بل نافسه - من وراء المناصب - منافسةً واعية فى قصّة « علم الدين » ، لا أدّل عليها من غمزة طائشة ندّت عن المستشرق الإنجليزى الذى راح يتهكم على ذلك الشيخ الصعيدى الذى وصف نساء الفرنسيس دون أن يخالطهن و « طاف حول الدن إلاّ أنه لم يدندن » .[2] وفضلا عن هذا كله ، فالرحلة بطبيعتها رواية ، حدث يجرى فى الزمان - وقد أفصح عن ذلك عنوان المويلحى بصيغته الكاملة : « حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن » . وكما تتألف الرواية فنيًّا من مقدمة ووسط وخاتمة ، تتألف الرحلة واقعيًّا من ذهاب وإقامة وإياب . وتجربة الرحلة على كل حال تمثل الحدث الرئيسى فى حياة كلّ من رفاعة وخليفته على

---

(١) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، الطبعة الثانية ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) علم الدين جـ ٤ ص ١٣٣٤ .

مبارك ، بل وفى حياة المجتمع المصرى الذى خرجا منه وعادا إليه واشتركا فى تغييره بما شحذا فى معاهد الغرب من أدوات الإصلاح وأشكال التعبير .

فى هذا المنظور تبدو لنا اليوم رحلة رفاعة كالخطوة الأولى على طريق ينشق نحونا . ففى « تخليص الإبريز » تكمن نواة الموضوع التى تفجّر عنها فى أدبنا المعاصر تيّار روائى مبكر ساقت إلينا أمواجه - ضمن ماساقت - قصة « علم الدين » - بفجاجة فنها المسخر للتربية والتعليم ، فحديث عيسى بن هشام الذى ارتقى بالصنعة ليجاوب التحدى بلغة التراث دون أن تتلاحم فى بوتقته مع ذلك مقومات الرواية ، ثم أديب طه حسين حيث نضجت عناصر الرواية الفنية ، والتأمت فى واقع العصر أغراض عريقة من الأدب العربى .

بقى علينا أن نتدراك ماشاع لدى مؤرخى أدبنا الحديث ممن رصدوا بزوغ الرواية المصرية فى غير هذا المجال . فقد اعتادوا تحديد مولدها بظهور « زينب » التى كتبها محمد حسين هيكل عام ١٩١٤ ونشرها عام ١٩٢٩ . ويخيّل إلينا لأوّل وهلة أن قصّة « زينب » التى أضاف المؤلف إلى عنوانها « مناظر وأخلاق ريفية بقلم فلاح مصرى » ، والتى استمدّ أشخاصها وأحداثها من البيئة الزراعية على ضفاف النيل ، قصة لاتنتسب إلى تيّار الرحلة . ولكنها فى واقع الأمر قصة مكتوبة فى أوربا ، فرضت نفسها على هيكل فرضًا أثناء دراسته الحقوق بباريس . أملاها عليه حنينه إلى

وطنه من ناحية ، واطلاعه من ناحية أخرى على لغة طيعة تيسّر للفرنسيين التعبير عن دقة العواصف كما يعبّرون عن دقة المعارف . وفضل الحنين إلى مصر وفضل استكشاف لغة حيّة يتجلّيان من قبل فى « تخليص الإبريز » ويشهد اقترانهما بتبلور رفاعة الثقافى . ولقد سجّل هيكل بدوره هذين الحافزين اللذين أنجبهما انتقاله فى المكان - أى الرحلة - فالرحلة دائمًا مواجهة للغير تحيلنا إلى البحث عن الذات . يقول هيكل :

« ولعلّ الحنين وحده هو الذى دفع بى لكتابة هذه القصة . ولولا هذا الحنين ماخطّ قلمى فيها حرفًا ، ولا رأت هى نور الوجود . فلقد كنت فى باريس طالب علم يوم بدأت أكتبها . وكنت ما أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ماخلّفت فى مصر مما لا تقع عينى هناك على مثله ، فيعاودنى للوطن حنين فيه عذوبة لذاعة لاتخلو من حنان ولاتخلو من لوعة »[1] .

ويعلّق يحيى حقى - عن خبرة - على فعل السفر فى قلب الأديب وعقله فيقول :

« يعينه هذا البعد - كشأنه دائمًا - على إجادة التأمل حين يفكر فى وطنه - وعلى تصحيح النسبة بين المرئيات ، ويعزف له قلبه لحنًا شجيًّا تتأجج عليه العواطف وتنصهر عليه الألفاظ ، ويجلل الكلام

---

(١) « زينب - مناظر وأخلاق ريفية » ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ ، المقدمة ، ص ١٠ .

كله مسحة شعرية رقيقة . إنه الحنين للوطن ، والمصرى منذ الفراعنة لايدانيه أحد فى قلقه عند الهجرة وتفجعّه بها ؛ إنها تهصر روحه ، وتضىء قلبه وجسده من فرط حبّه لوطنه .. بل يذهب هيكل فى حرصه على استبقاء رباطه الروحى بمصر فى غربته إلى حدّ أنه كان حين يبدأ الكتابة فى الصباح المبكر - وهى ساعته المفضلة - يقفل أستار نوافذه فتحجب ضوء النهار ويضىء مصابيح الكهرباء كأنما يريد أن ينقطع عن حياة باريس ليرى فى وحدته وانقطاعه حياة مصر مرسومة فى ذاكرته وخياله »[1]

وأما الحافز الثانى الذى دفع هيكل إلى كتابة « زينب » فهو انفتاحه على سلاسة التعبير الممكنة عندما أدرك وظيفة الدقة اللغوية فى صياغة العمل الأدبى :

« وكنت ولعًا يومئذ بالأدب الفرنسى أشدّ ولع . فلم أكن أعرف عنه إلاّ قليلاً يوم غادرت مصر وبضاعتى من الفرنسية لاتتجاوز الكلمات عدًّا . فلما أكببت على دراسة تلك اللغة وآدابها رأيت فيها ما رأيت من قبل فى الآداب الإنجليزية وفى الآداب العربية . رأيت سلاسة وسهولة وسيلا ، ورأيت مع هذا كله قصدًا ودقة فى التعبير والوصف وبساطة فى العبارة لاتواتى إلاّ الذين يحبّون مايريدون التعبير عنه أكثر من حبهم ألفاظ عبارتهم . واختلط فى نفسى ولعى

---

(١) يحيى حقى ، فجر القصة المصرية . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

بهذا الأدب الجديد عندى بحنينى العظيم إلى وطنى »[1] .

باعتراف هيكل إذن يحق لنا أن نرد « زينب » إلى أدب الرحلة ، ولو لم يظهر على مسرح أحداثها طرف المواجهة الثانى ، وهو العالم الغربى الذى أوحى بها عاطفيا ، وشكلّها فنيًّا ، وأنبتها على أرضه ثمرة مصرية جديدة .

وينتهى مطافنا بحثًا عن روّاد الرواية المصرية هناك فى باريس ، سنة ١٩١٤ ، إذ ينجز طالب مصرى ريفى أتى ليدرس الحقوق تأليف رواية يؤرخ بها فى الأدب العربى ، على حين يفتك الجنون بطالب مصرى ريفى آخر أتى ليدرس الآداب فتقمص المواجهة الحضارية إلى أقصاها . وفى القاهرة ، بعد انقضاء ربع قرن ، لن يسبق نشر « زينب » إلا بست سنوات فقط ظهور « أديب » .

وما بالنا نتحدث عن الرواية المصرية ، وأحرى بنا أن نقول : رواية مصر . فإذا كان لأمة أن تكتب قصة نهضتها ، فقد كتبتها مصر فى العصر الحديث ، وهى قصة علاقتها المحتومة بالغرب ، كما رواها أبناؤها جيلا بعد جيل . ولقد أدّى تعاقب الأجيال خلال أطوار الزمن إلى بعد سردى عند النظر إلى الأحداث ، وازاه تفاعل النماذج العربية والغربية ، حتى تَخَلَّق الشكل الروائى عندنا واتضحت معالمه وتثبتت مقوماته . فبعد كتاب الرحلة التقليدى ،

---

(١) زينب ، ص ٩ .

أصبحت الرحلة إطارًا لرواية تعليمية ، فإطارًا لجدل قومّى شَهَر المقامة الموروثة حجةً فى قضية التحول الحضارى ، فموضوعًا إنسانيًا يضارع إنجازات الأدب العالمى بما ضمت « أديب » من أبعاد الصراع النفسية والاجتماعية وما يتسمع طه حسين فى أعماق الفطرة من أصداء التراث ورموز الأساطير .

ولن تقف بعد أديب طه حسين سلسلة توليد الرواية من تجارب الرحلة ، بل ستمتد حلقاتها وتتصل ، ولاسيما مع توفيق الحكيم فى « عصفور من الشرق » ومع يحيى حقى فى « قنديل أم هاشم » . ولا أدل على استحكام هذه الظاهرة فى الأدب العربى المعاصر من إلحاحها خارج مصر مثلا على أديب لبنانى كسهيل إدريس فى رواية « الحى اللاتينى » وعلى أديب سودانى كالطيب صالح فى « موسم الهجرة إلى الشمال » .

وفى ختام هذا التقرير الموجز الذى يسرنى أن أذيعه من جامعة المنيا عن تولّد الرواية عندنا من أدب الرحلة ، يطيب لى أن أجمع فى تحية صعيدية واحدة رائدينا الجليلين : رفاعة الطهطاوى وطه حسين .

فهـرس

صفحة

مقدمة : ربع قرن مع رفاعة الطهطاوى ٥
١ – قصة بعثة علمية ١١
٢ – موعد ولقاء ٣٦
٣ – هذا « الديوان النفيس » ٤٧
٤ – التخليص والتلخيص ٨٥
٥ – لغة النهضة ١٠٨
٦ – عرفوه فقالوا ١٢٠
٧ – أدب جديد ١٣٤
٨ – « الأيام » بين رفاعة الطهطاوى وطه حسين ١٦٤
٩ – مرحلة المرآة ٢٠١
١٠ – الواقع أنجب الرواية ٢٢٠

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٢٨٩٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٢٨٨-١	ISBN

١ / ٨٤ / ٢٠٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٤٠٥٥٥٣/٠١